تاريخ الفتح العربي في ليبيا

تأليف
الطاهر أحمد الزّاوي

المدار الإسلامي

تاريخ الفتح العربي في ليبيا

تأليف
الطَاهِر أحمَد الزّاوِي

دار المدار الإسلامي

الطبعة الرابعة

آذار/مارس/الربيع 2004 إفرنجي

تصميم الغلاف: نقوش

دار المدار الإسلامي

أوتوستراد شاتيلا ـ الطيونة، شارع هادي نصر الله ـ بناية فرحات وحجيج، طابق 5،
خليوي: 933989 ـ 03 ـ هاتف وفاكس: 542778 ـ 1 ـ 00961 ـ بريد إلكتروني: szrekany@inco.com.lb
ص.ب. 14/6703 ـ بيروت ـ لبنان
الموقع الإلكتروني www.oeabooks.com

توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية: زاوية الدهماني، السوق الأخضر، ص.ب: 13498،
هاتف: 4448750 ـ 4449903 ـ 3338571. 21 . 00218 ـ فاكس: 4442758 . 21 . 00218،
طرابلس ـ الجماهيرية العظمى ـ oeabooks@yahoo.com

الإهـــــداء

أُهدي كتابي هذا:

إلى كل ليبي يحطِّم قيود الاستعمار ويطهِّر ليبيا من المستعمرين.

إلى كل ليبي يعمل على توفير الرخاء وهناءة العيش لليبيا.

إلى كل ليبي يرفع منار العلم في ربوع ليبيا التي حرمت نوره منذ قرون.

إلى كل ليبي يفنى في حب ليبيا، والعمل على بناء مجدها وتمكين عزها.

الطاهر الزاوي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله الذي جعل العرب خير أُمة أخرجت للناس، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وصحابته وأتباعه الذين جاهدوا في الله وأخلصوا دينهم لله.

وبعد. فإن من أمجاد العرب ما لا يزال محجوباً بما تراكم عليه من غبار الماضي البعيد، وتضليل الأوربيين وأذنابهم من أنصار المستعمرين وأصحاب الأغراض الدنيئة والنفوس المريضة.

ولقد كان لهم من أعمال البطولة ـ في مشارق الأرض ومغاربها ـ ما لم يحفظ التاريخ مثله لغيرهم من أمم الدنيا.. ومن هذه الأمجاد وتلك البطولة ذلك الفتح المبين والنصر المؤزر الذي أحرزوه في الشمال الإفريقي في السنة الثانية والعشرين من الهجرة وما تلاها من السنين إلى أن استقرت أقدامهم فيه وتمَّ لهم الأمر في سنة 88.

وكان للعرب في ليبيا عشر جولات في سبع وستين سنة. وكانت أولى هذه الجولات بقيادة عمرو بن العاص سنة 22، وآخرها بقيادة موسى بن نصير سنة 88 هـ وفي هذه المدة ملكوا ما بين الاسكندرية وبحر الظلمات (الأطلنطي)، وما بين البحر الأبيض وبلاد كاوار (السودان).

ولقد كانت لهم في إفريقية ملاحم تشيب الرضيع، تذرَّعوا فيها بالصبر فكتب لهم النصر، وأخلصوا فيها لله فوقاهم شر الهزيمة.

وإن تعجب فعجب أن يفتح العرب إفريقية وهم في تلك القلّة، وهي

مشحونة بالروم والبربر تكاد تغصُّ بهم كثرة، على ما بينهم وبينها من طول المسافة وبُعد الشقة، ولكنه الصبر على المشاق، وقوة العزيمة التي ربَّاهم عليها القرآن وتعاليم الإسلام، فكانوا إذا اعتزموا الأمر لا يثنيهم عنه ثان. أما الموت وما دونه من المكاره فلا يبالونه، لأنهم تعلموا من القرآن ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾.

ومما كان يحزُّ في نفسي أني حينما كنت أُطالع فتح إفريقية في كتاب مّا لم نجد فيه من آثار الفتح العربي في ليبيا ما يعطي للقارىء صورة لهذا الوطن العربي وأعمال العرب فيه، فأدركت أن ما يتعلق منه بليبيا لا يزال مبعثراً في بطون الكتب، ويحتاج إلى جمع وتنسيق، فأردت أن أقوم بهذه المهمة كفاء لما لطرابلس علينا من فضل التربية وحقوق الأمومة، وقياماً بواجب الوطن وما يتطلبه في حياته الجديدة من تضافر جهود أبنائه على تدعيم نهضته الثقافية.. فاعتزمت الأمر، ورجعت إلى كل كتاب علمت أنه يتصل بالفتح العربي في ليبيا من قريب أو بعيد، وأخذت منه كل ما يتعلق بليبيا.

ولم يكن في وسعي أن أتجنب - في كثير من المناسبات الكلام على القيروان وبعض المدن الإفريقية لأن صلة طرابلس - إذ ذاك - بهذه المدن كانت صلة متينة، صلة التابع بالمتبوع. وتحت هذه الظروف انساق بي الكلام على غير ليبيا مقتصراً في ذلك على قدر الضرورة.

والمتتبع لتاريخ الفتح العربي في ليبيا، لا يقع نظره إلا على غزاة تتابعت غزواتهم عليها، لنشر تعاليم الإسلام تارة، وللحكم والسيطرة تارة أخرى، يتخلل هذا وذاك حروب طاحنة، وثورات متوالية، صرفت الليبيين عما يجب عليهم لوطنهم من توفير وسائل العمران، ونشر المعارف، والأخذ بنصيب من المدنية لا يقل عن نصيب جارتيها تونس ومصر.

ولقد كان لأعمال التخريب التي قامت بها الكاهنة من سنة 82 إلى 84 أكبر الأثر في تأخر وسائل العمران في ليبيا.

وإذا نظرنا إلى ما كانت عليه مدنها زمن الروم وقبيل الفتح العربي نجدها كانت في حالة انحطاط مادي وأدبي نتيجة لتعسف الروم في أحكامهم، وقسوتهم في جباية الأموال لتوفير ملذاتهم، وإهمال شأن الإصلاح مما قعد بها عن اللحاق بجاراتها في مضمار المدنية.

وليس ما جمعته هو كل ما كنت أتمنى جمعه، ولكنه كل ما وجدته. وقد وجدت كل كتب تاريخ إفريقية تنقل عن «تاريخ الرقيق» فحاولت الاستفادة منه، فلم أعثر عليه في دار الكتب المصرية، ولا في غيرها من مكتبات مصر، واستعنت ببعض من أعرفهم ممن لهم دراية بأسماء الكتب فلم أعثر له على خبر. وأعتقد أن تاريخ الشمال الإفريقي في حاجة إلى هذا الكتاب الجليل. وأن كل كاتب في تاريخ إفريقية ـ لم يستعن بهذا التاريخ ـ لن يصل فيما يكتبه إلى غايته.

وقد سميت ما جمعته «تاريخ الفتح العربي في ليبيا» باعتبار أن المنطقة التي تكلمت عليها تسمى الآن «ليبيا».

وإني إذ أُقدم إلى أبناء العروبة هذا الكتاب أعتقد أني كشفت لهم عن حلقة من تاريخ قطعة من وطن العربية كانت مجهولة لكثير منهم، وسيجدون فيه ـ وخصوصاً أبناء ليبيا ـ ما يفتح أمامهم باب البحث، لإكمال الناقص من تاريخ ليبيا العزيزة.

وأرجو أن يكون فيه للمواطن الصالح ما يحمله على العمل لسعادة ليبيا ودفعها إلى اللحاق بمن تقدمها من الأمم في ميدان الحضارة.

الطَّاهر أحمَد الزَّاوي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله على ما وجده كتابنا (تاريخ الفتح العربي في ليبيا) من رغبة القراء، والإقبال على اقتنائه.

وقد وُفِّقت إلى إصلاح الأخطاء التي وقعت في الطبعة الأولى، كما وُفِّقت إلى زيادات وضعتها في مواضعها من الكتاب، وتحقيقات كثيرة، مما زاد في قيمة الكتاب التاريخية، وأصبح من الضروري للباحث عن تاريخ ليبيا الاطلاع على هذه الزيادات.

وقد صدر الكتاب في ثوب أجمل بما تبديه دار المعارف من الاهتمام بمطبوعاتها، ومادة علمية أوفى وأوسع مما كان عليه في الطبعة الأولى.

والله ولي التوفيق. ونسأله العون على خدمة ليبيا العزيزة في عهدها الجديد السعيد: عهد الاستقلال والحرية والثقافة. إنه سميع مجيب.

نوفمبر سنة 1963

الطّاهر أحمَد الزّاوي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثالثة

تاريخ الفتح العربي في ليبيا كان مبعثراً في بطون كتب التاريخ التي تعرضت لفتح إفريقية. وقد جمعت ما أمكنني جمعه، ورتبته ترتيباً زمنياً حسب تسلسل حوادثه.

ومما أحمد الله عليه أن يعاد طبعه المرة الثالثة وليبيا مستقلة استقلالاً تاماً في عهد (الجمهورية العربية الليبية) وليدة ثورة الفاتح من سبتمبر المباركة سنة 1969 التي تحمي العلم وتبحث عن الحقيقة وكتاب (تاريخ الفتح العربي في ليبيا) أول كتاب تخصَّص في البحث عن تاريخها، وجمع ما لم يجمعه غيره.

وقد وجد من الاهتمام به من محبي التاريخ ما هيأه للطبعة الثالثة.

والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه في خدمة وطننا العزيز.

الطّاهر أحمد الزّاوي

التعريف بلوبيا

«لوبيا» بضم اللام وسكون الواو. وبالباء الموحدة والياء المثناة من تحت وألف: مدينة بين الإسكندرية وبرقة[1]. والنسبة إليها لوبي.

وكلمة لوبيا كلمة قديمة تتحدر من الجغرافية القديمة، وقد هجر استعمالها منذ زمن بعيد.

وقد اختلف في الجهة التي تطلق عليها كلمة لوبيا... فقال أبو الريحان البيروني[2]: كان اليونانيون يقسمون المعمورة أقساماً ثلاثة، ويعتبرون أرض مصر مجتمعاً لها، فما مال عنها وعن بحر الروم نحو الجنوب فاسمه لوبيا، ويحدها من الغرب بحر أوقيانوس المحيط الأخضر. ومن جهة الشمال بحر مصر. ومن جهة الجنوب بحر الحبش. ومن جهة المشرق خليج القلزم، وهو بحر سوف «أي البردى». وهذا كله يسمى لوبيا.

وهذا التقسيم اليوناني لا يجد له مبرراً من التاريخ، لأن أول عهد اليونان ـ وهم الإغريق ـ ببرقة كان في آخر القرن السابع ق.م، وذلك أن جماعة من سكان جزيرة ثيرا ـ وهي إحدى جزر بحر إيجا ـ ويقال لهم الثيرانيون نسبة إليها، جاءوا في هذا التاريخ إلى برقة بعد أن منعهم القرطاجنيون من الإقامة في شمال إفريقية، وبعد عشر سنوات من وجودهم فيها أسسوا مدينة قورين. وفي هذا الوقت كان الفينيقيون يملكون الشمال الإفريقي، وكان قد مضى على تأسيس قرطاجنة نحو 140 سنة، فكيف يصح

---

(1) انظر النجوم الزاهرة جـ3 ص 303.

(2) كان البيروني من العلماء الذين امتازوا بالتدقيق والروح العلمي الصحيح، ومن أكبر الباحثين الذين تركوا مآثر في العلوم والتاريخ.

أن يطلق اليونان اسم لوبيا على أملاك القرطاجنيين؟. وإذا قلنا إنهم أطلقوه عليها قبل أن يأتوا إلى برقة فهو أشد بطلاناً وأبعد عن الحقيقة... على أن نفوذ اللوبيين لم يتجاوز برقة، وكانوا في نزاع مستمر مع فراعنة مصر. ولما جاء اليونانيون إلى برقة، وبعد أن بنيت قورين وتوطد ملكهم فيها اضطهدوا اللوبيين وأجلوهم عن لوبيا. وخلف الروم اليونانيين على برقة فكانوا أشد اضطهاداً للوبيين.

والحقيقة التي يؤيدها أكثر المؤرخين - بل كلهم إذا استثنينا ذلك التقسيم الباطل الذي ذكره أبو الريحان البيروني - أن الأرض التي تسمى لوبيا هي الأرض الواقعة بين حدود مطروح الغربية وحدود برقة الشرقية. وفي هذه المنطقة كانت عاصمة لوبيا، وفيها كان يسكن اللوبيون، ومنها كانوا يهاجمون فراعنة مصر، ويحاولون الاستيلاء على ضفاف وادي النيل.

وقد عدد المقريزي في خططه كوَرَ مصر، فذكر من كور الجوف الغربي: كورة الإسكندرية. وكورة مريوط. وكورة لوبيا ومراقية.. وذكر في تحديد مصر أنها تحد من الجهة الغربية ببرقة.. ونقل عن القضاعي ما نصه: «الذي يقع عليه اسم مصر من العريش إلى آخر لوبية ومراقية. وفي آخر أرض مراقية تلقى أرض أنطابلس وهي برقة» اهـ. وفيما ذكره المقريزي رد واضح على أبي الريحان، وتحديد لموقع لوبيا، وأنها من الأراضي المصرية، وتقع شرقي حدود برقة.

واللوبيون كانوا من الجنس الأسمر، وقد انقرضوا من هذه المنطقة ولم يبقَ فيها منهم أحد، ولا في غيرها بهذا الاسم. ويسكن الآن في هذه المنطقة جماعات من سلالات العرب الخلَّص كأولاد عليّ وغيرهم، ولا يربطهم بهذا الجنس إلا الآدمية.. ولا يوجد فيما بين الإسكندريةِ والمحيط الأطلنطي إنسان واحد معروف النسب إلى هذا الجنس... فإطلاق كلمة لوبيا على برقة وطرابلس إطلاق ظلموا به ذلك الشعب العربي الذي ما ينفك ينتسب إلى العرب.

وقد هجر اسم لوبيا منذ عهد اليونان في قورين. وبعد أن فتحها العرب لم ينطقوا بكلمة أطرابلس أو برقة.

وذكرت دائرة المعارف الإيطالية أن «اسم ليبيا قديم يتحدر من الجغرافية القديمة. وأول من أخرجه إلى الاستعمال العالم الجغرافي «ف مينوتلي» . في كتابه «جغرافية ليبيا» المطبوع في تورينو سنة 1903 ليدل به على الولاية التركية التي تشمل طرابلس وبرقة. ثم اتخذته إيطاليا اسماً رسميّاً لولاية طرابلس بعد أن أعلنت سيادتها عليها في 24 من يونية سنة 1929. ومن ذلك الحين شاع استعماله في جميع أنحاء العالم، وشمل طرابلس وبرقة وفزان والواحات التابعة لها» .

هذا ما ذكرته دائرة المعارف الإيطالية. ويفهم منه أن اسم لوبيا كان مهجوراً، وأنه ما كان يطلق على طرابلس وبرقة، وبعد أن هُجر سنين طوالاً أُخرج ليطلق على الولاية التركية التي ما كانت تسمى به. ولم يكن لهم سند تاريخي في هذا الإطلاق، ولكنه اصطلاح الغرض منه دعاية استعمارية قصد بها القضاء على الأسماء العربية التي كانت تطلق على هذه المقاطعات الثلاث.

ولما أعلنت الدولة الليبية في 24 ديسمبر سنة 1951، أقرت كلمة ليبيا وأطلقتها على ما أطلقها عليه الإيطاليون: على ما بين حدود مصر وتونس، وما بين البحر الأبيض وحدود السودان، كما سمت نفسها «الدولة الليبية».

وقد اعترض كثير من الطرابلسيين على إطلاق كلمة ليبيا على بلادهم، وعلى تسمية الدولة باسم «الدولة الليبية»، لأن كلمة ليبيا كلمة دخيلة على العربية، أحياها الطليان لأغراض استعمارية كما قدَّمنا آنفاً.

واقترح المعترضون أن تطلق كلمة طرابلس على ما أُطلقت عليه كلمة ليبيا، وأن تسمى الدولة: «الدولة الطرابلسية».

وكلمة طرابلس هي التي استعملها العرب منذ الفتح الإسلامي وجرى عليها العرف الدولي منذ مئات السنين.

وقد وجدت فكرة إطلاق كلمة طرابلس بدل كلمة ليبيا معارضة شديدة بدعوى أن اسم طرابلس لا يشمل برقة وفزان، وما كانت برقة وفزان إلا قطعتين من طرابلس، والاتفاق الذي يجعلنا نقر كلمة ليبيا ـ وهي الكلمة الاستعمارية الدخيلة ـ كفيل بأن يجعلنا نقر كلمة طرابلس، وهي الكلمة العربية الأصيلة. ولكن قاتل الله السياسة، فقد أيدت الرأي المناصر لكلمة ليبيا وكتب له النجاح، وأطلقت على طرابلس وبرقة وفزان.

وتتكون ليبيا من ثلاثة أقسام: طرابلس، وبرقة، وفزان، ومن هذه الأقسام الثلاثة تتكون أراضي الدولة الليبية.

والدولة الليبية دولة ملكية، وراثية، دستورية، اتحادية، على طريقة النظام الفدرالي الأوروبي[1]. ولها حكومة مركزية، ووزراء ورئيس وزراء. وفي كل قسم من الأقسام الثلاثة حكومة رئيسها يسمى الوالي، وإلى جانبه نظار بعدد ما في الحكومة المركزية من وزارات، كل ناظر يوكل إليه النظر في شؤون الناحية التي يمثلها الوزير في الحكومة المركزية، فناظر المعارف يمثل وزير المعارف في قسمه المختص به، وناظر المالية يمثل في قسمه وزير المالية، وهكذا... ولها مجلس نواب يمثل الأمة على النسبة العددية للأمة جمعاء. ولها مجلس شيوخ يمثل الأمة تمثيلاً ثلاثيّاً على نسبة متساوية للأقسام الثلاثة التي تتكون منها الدولة من غير نظر إلى عدد سكان كل قسم على انفراده.

وهذا النظام الذي أشرنا إليه آنفاً كان قبل ثورة الفاتح من سبتمبر سنة 1969. وقد ثبت بالتجربة أن النظام الملكي لا يصلح في ليبيا لما فيه من حصر الكفايات البشرية الممتازة في طبقة من الناس قد تكون من البلادة بمكان.

لذلك فإن ثورة الفاتح من سبتمبر التي أزالت العهد الملكي بما فيه من

---

(1) ألغي هذا النظام وما يترتب عليه في مارس سنة 1963 وأصبحت دولة متحدة.

شرور وآثام، اختارت (الحكم الجمهوري) لليبيا، وأصبح اسم الدولة الليبية (الجمهورية العربية الليبية).

وتحت هذا الاسم المبارك توحَّدت ليبيا: من حدود مصر إلى حدود تونس، ومن البحر الأبيض إلى حدود السودان.

وهي الآن زعيمة الدول الإسلامية، في الدعوة إلى الوحدة، والرجوع إلى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية.

وقد شرعت في تطبيقها بالفعل، فمنعت بيع الخمر وشربها. ومنعت المكوس التي كانت تجبى من الأسواق.

وسنَّت قانوناً لجباية الزكاة على الطريقة الشرعية.. وشكلت لجنة من العلماء للنظر في القوانين الوضعية الموجودة، ولجعل الشريعة الإسلامية مصدراً لجميع قوانين الدولة. فما وافق الشريعة الإسلامية أبقته، وما خالفها ألغته وسنَّت غيره موافقاً لها.

وعما قريب ستكون الكلمة العليا في جميع الأحكام هي كلمة الله، وكلمة رسوله محمد ﷺ.

سكان ليبيا القدماء

تعاقبت على هذه المنطقة من ساحل الشمال الإفريقي التي تسمى الآن ليبيا أمم مختلفة ودول كثيرة. وأقدم هذه الأمم أمة البربر.

البربر

أمة البربر أقدم أمة عرفها التاريخ في الشمال الإفريقي.

قال ابن خلدون: البربر جيل من الآدميين سكان المغرب من القِدم، ملأوا البسائط والجبال من تلوله وأريافه وضواحيه وأمصاره، يتخذون البيوت من الحجارة والطين، ومن الخصاص والشجر، ومن الأشعار والأوبار.

ويظعن أهل العز منهم والغلب لانتجاع المراعي فيما قرب من الرحلة، لا يتجاوزون فيها الريف إلى الصحراء والقفر الأملس. ومكاسبهم الشاء والبقر. والخيل في الغالب للركوب والنتاج، وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم. شأنهم في ذلك شأن العرب.

ومعاش المستضعفين منهم في الفلح ودواجن السائمة، ومعاش المعتزين من أهل الانتجاع والظعن في نتاج الإبل وظلال الرماح وقطع السابلة، وأكثر أثاثهم من الصوف ويشتملون الصماء بالأكسية المعلمة، ويفرغون عليها البرانس الكحل، ورؤوسهم في الغالب حاسرة، وربما يتعهدونها بالحلق. ولغتهم من الرطانة الأعجمية متميزة بنوعها، وهي التي اختصوا لأجلها بهذا الاسم.

لغز في البربر[1]:

قال عبد الله بن محمد الهرغي ملغزاً في البربر:

وما أمة سكناهُمُ نصف وَصفِهِم ... وعيش أعاليهم إذا ضُمَّ أوَّلُهْ

ومقلوبُه بالضم مشروبُ جُلِّهِمْ ... وبالفتح مَن كلٌّ عليه مُعَوَّلُهْ

وما كان للبربر من الآثار تشهد أخباره كلها بأنهم جيل عزيز على الأيام، وأنهم قوم مرهوبٌ جانبهم، شديدٌ بأسهم، كثير جمعهم، مضاهون لأمم العالم وأجياله من العرب والفرس والروم. اهـ.

وكلمة بربر أُطلقت بأربعة إطلاقات في أربعة عهود مختلفة. فأطلقت في عهد هومير على القبائل المعقدة اللغة واللهجة حيثما وجدت... وأطلقت في عهد هيرودوت على الأمم الغريبة عن لغة اليونان وحضارتهم... وأُطلقت في عهد بلتوس على الروم ما عدا سكان روما... وأطلقها العرب في عهدهم على الأمة التي تسكن الساحل الإفريقي لأنهم

(1) من الدرر الكامنة جـ2 ص 852.

يتكلمون بلغة ليست مفهومة للعرب، والعرب يطلقون كلمة بربرة على الأصوات المتجمعة غير المفهومة «وهم شعوب وقبائل أكثر من أن تحصى». . . وكانت مواطنهم من الإسكندرية إلى بحر الظلمات، ومن البحر الشامي إلى حدود السودان.

وقد تغيَّر هذا الوضع في عهد ابن خلدون، فذكر أن إفريقية كلها إلى طرابلس كانت دياراً لنفزاوة، وبني يَفرُن، ونفوسة، ومن لا يحصى من قبائل البربر، وكانت قاعدتها القيروان، وهي لهذا العهد ـ عهد ابن خلدون ـ مجالات للعرب من سُليم. . . وبنو يفرن. وهوارة مغلوبون تحت أيديهم، وقد تبدَّوا معهم، ونسوا رطانة الأعاجم، وتكلموا بلغات العرب، وتحلوا بشعارهم في جميع أحوالهم، وقاعدتها لهذا العهد ـ عهد ابن خلدون ـ تونس، وهي دار ملكها.

وأما برقة فدرست وخربت أمصارها وانقرض أمرها، وعادت داراً للواتة وهوارة وغيرهم، وكانت بها الأمصار المستبحرة مثل برقة وزويلة وغيرهما، فعادت يباباً ومفاوز كأن لم تكن. وهم في إفريقية ـ كما قال ابن خلدون ـ «من أزمنة لا يعرف أولها ولا ما قبلها(1)» وكل ما قيل في تاريخ دخولهم إفريقية هو من قبيل التقريب، وهو إلى التخمين أقرب.

وأصح ما قيل في أُصولهم هو ما قاله ابن خلدون: «والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح. وأن اسم أبيهم مازيغ. . . فلا يقعنَّ في وهمك غير هذا فهو الصحيح الذي لا يعدل عنه».

(1) يقول المؤرخ التونسي الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب: أول من عرف البربر هم قدماء المصريين في زمان الفراعنة، وكانوا يعرفونهم باسم «الليبو» المشتق من نعت بلادهم ليبيا وذلك أن البربر كانوا في سني الجدب يشنون الغارة على ساحات وادي النيل الخصيبة وبهذه الوسيلة احتكوا بالمدنية المصرية، واقتبسوا منها بعض أسباب الحضارة وشيئاً من العقائد والتقاليد التي انتشرت من هنالك في الشمال بأسره ويفهم من كلام الأستاذ حسن حسني أن البربر هم الليبيون. وهذا رأي لبعض المؤرخين. وهناك رأي آخر يقول إن البربر غير الليبيين، وأنهم أقدم من الليبيين في الشمال الإفريقي.

ثم نقل عن جمهرة الأنساب لابن حزم ما نصه: «ادَّعت طوائف من البربر أنهم من اليمن ومن حِمْيَر، وبعضهم ينسب إلى برّ بن قيس عيلان، وهذا كلام باطل لا شك فيه. وما علم النسابون لقيس عيلان ولداً اسمه برّ أصلا... وما كان لحمير طريق إلى بلاد بربر إلا في أكاذيب مؤرخي اليمن».

وأما ما ذهب إليه ابن قتيبة أنهم من ولد جالوت، وأن جالوت من ولد قيس عيلان فأبعد عن الصواب: ذلك لأن قيس عيلان من ولد معدّ، ومعد كان معاصراً لبختنصَّر، فأخذه أرمياء النبي وذهب به إلى الشام خوفاً عليه من بختنصر حينما تسلط على العرب وكان يقتلهم. وبختنصر هو الذي هدم بيت المقدس بعدما بناه داود بنحو أربعمائة وخمسين سنة، وإذا كان جالوت قتله داود بنص القرآن ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ فكيف يكون جالوت المعاصر لداود من ولد قيس عيلان الذي وُجد بعد جالوت بنحو أربعمائة وخمسين سنة؟. قال ابن حزم: هذا في غاية البعد، وأظنها غفلة من ابن قتيبة ووهماً.

ثم قال ابن خلدون: ولا خلاف بين نسَّابة العرب أن شعوب البربر كلهم من البربر إلا صنهاجة وكتامة، فإن بين نسابة العرب خلافاً فبهم، والمشهور أنهم من اليمنية، وأن إفريقش لما غزا إفريقية أنزلهم بها.

ويقول ابن خلدون أيضاً: إن أُمة العرب لم يكن لها إلمام قط بالمغرب لا في جاهلية ولا في إسلام، لأن البربر كانوا يمانعون عليه الأمم، وقد غزاه إفريقش بن صيفي - الذي سميت به إفريقية - من ملوك التبابعة وملكها، ثم رجع عنها وترك كتامة وصنهاجة من قبائل حِمْيَر فاستحالت طبيعتهم إلى البربر واندمجوا في أعدادهم وذهب مُلْكُ العرب منهم. ثم جاءت الملة الإسلامية وظهر العرب على سائر الأمم، بظهور الدين فساروا في المغرب، وافتتحوا سائر أمصاره ومدنه، وعاينوا من حروب البربر شدة.

وذكر ما يزعمه نسابة البربر: أن لُواتة من حمير، وهوارة من كندة من السكاسك، وزناتة من التبابعة، أو من العمالقة فروا أمام بني إسرائيل،

وغمارة وزواوة ومكلاتة من حمير. . ثم عقب عليه بقوله: «وهذه كلها مزاعم. والحق الذي شهد به الموطن والعجمة، أنهم بمعزل عن العرب، إلا ما تزعمه نسابة العرب في صنهاجة وكتامة». . ثم أبدى ابن خلدون رأيه فقال: وعندي أنهم من إخوانهم. والله أعلم - يعني إخوانهم البربر.

والقبائل التي ذكر بعض النسابة أنها من أصول عربية مثل كتامة وصنهاجة لا شك أنها تبربرت بطول الزمن في لغتها وزيها وعاداتها، لأنهم طرأوا على قبائل بربرية هي التي قال فيها ابن خلدون: «لا يعرف أولها ولا ما قبلها»، فنسبتهم إلى العرب لا تعني أولية البربر في الشمال الإفريقي.

وكل ما جاء بعدهم من أمم إلى الشمال الإفريقي فإنما جاءوا من طريق الغزو والفتح لا فرق في ذلك بين الفينيقيين، والروم[1] والوندال، والعرب.

ديانة البربر:

كانت ديانتهم قبل الإسلام المجوسية، وكانوا في بعض الأحيان يدينون بدين من غلب عليهم من الأمم، فإن الأمم أهل الدول العظيمة كانوا يتغلبون عليهم مثل حمير أبي القبائل اليمنية، وإفريقش ابن صيفي من التبابعة، والفينيقيين وغيرهم، فكان البربر في عهود هؤلاء المتغلبين يدينون بدينهم. وبعد ظهور المسيحية[2] وفي حوالي سنة 576م نجح البيزنطيون في قلب عقيدة الكثير منهم، وأصبحوا مسيحيين.

ويظهر أن حكم هؤلاء المتغلبين كان قاصراً على الأمصار. قال ابن خلدون: وكان للبربر وراء هذه الأمصار المرهوبة الحامية ما شاء الله من قوة وعدة وعدد، وملوك ورؤساء، وأقيال وأمراء، لا يرامون بذلّ. ولا ينالهم

(1) جاء الروم إلى إفريقية مرتين: مرة قبل الوندال، ومرة بعدهم.
(2) أول ما ظهرت المسيحية في أوربا كانت في إيطاليا زمن قسطنطين الأكبر حوالي سنة 330م.

الروم والإفرنج في ضواحيهم تلك بمسخطة الإساءة اهـ.

وقد صبَّحهم الإسلام وحكام السواحل كلهم من الفرنجة، وهم المستولون على مدن الساحل الإفريقي كلها.

وكان حكام ساحل إفريقية يؤدون الجباية لهرقل ملك القسطنطينية وكان المقوقس صاحب مصر والإسكندرية وبرقة يؤدي الجباية له أيضاً. وكذلك صاحب لبدة وطرابلس، وصبراتة وصقلية.

وقد أخذ البربر دين المسيحية قبل الإسلام عن الروم لأنهم كانوا مغلوبين لهم.

وكان الفرنجة هم الذين يلون أمر إفريقية، ولم يكن للروم فيها شيء من ولاية، وإنما كانوا جنداً للفرنجة وأعواناً، ومن حشودهم. وما جاء في كتب فتح إفريقية من ذكر الروم فمن باب التغليب، لأن العرب قبل فتح إفريقية لم يقاتلوا الفرنجة، وإنما قاتلوا الروم في الشام، وعرفوهم فأطلقوا هذا اللفظ على فرنجة إفريقية[1].

وكان هرقل الرومي ملك النصرانية كلها لا فرق بين الرومي والفرنجي، فظن العرب أن الروم هم الغالبون على أمم النصرانية فغلبوا اسمهم عليهم، ودرجت أخبار فتوحات العرب على ذلك. فجرجير صاحب سبيطلة الذي قتل في الفتح من الفرنجة. وكذلك الأمة التي كانت غالبة على البربر بإفريقية. ونازلة مدنها وحصونها كانت من الفرنجة.

وكان جيش جرجير خليطاً من الفرنجة والروم والبربر.

وكلمة فرنجة يقصد منها الفرنسيس.. قال ابن خلدون: هذه الأمة المعروفة بالإفرنجة، وتسميها العامة بالإفرنسيس نسبة إلى بلد من أمهات أعمالهم تسمى فرانسة، ما بين جزيرة الأندلس ومضيق قسطنطينة، أخذوا بدين النصرانية من الروم، واستفحل ملكهم عند تراجع ملك الروم، وأجازوا البحر

---

(1) من ابن خلدون.

إلى إفريقية مع الروم فملكوها ونزلوا أمصارها العظيمة مثل سبيطلة، وجلّولاء، وقرطاجنة وغيرها من الأمصار، وغلبوا من كان بها من البربر حتى اتبعوهم على دينهم. . وجاء الفتح العربي فانتزع من أيديهم سائر أمصار إفريقية وإفريطش (جزيرة كريد) ومالطة وصقلية. واجتاز العرب خليج طنجة، وغلبوا القوط والجلالقة، والبشكنس، وملكوا الأندلس، وخرجوا منها إلى بسائط هؤلاء الفرنجة، فدوخوها، فلم تزل في نفوسهم من ذلك ضغائن، وكانوا يطمعون في إرجاع ما غلبوا عليه. وكانت الحروب الصليبية نتيجة لهذه الرغبة. وكان النصر الذي أحرزه صلاح الدين الأيوبي ثأراً لما أصاب المسلمين من هؤلاء الفرنجة. اهـ ملخصاً من ابن خلدون.

وقد دلت آثارهم ومدنهم الصحراوية القديمة على أنهم كانوا يميلون إلى إنشاء عواصمهم حول الجبال وما وراءها إلى الجنوب خوفاً من غزو أمم الشمال التي كانت تسكن جنوبي أوربا على الساحل الشمالي للبحر الأبيض.

قال ابن خلدون: كان البربر قبل الإسلام أهل قوة وكثرة في إفريقية والمغرب. وكانوا يعطون الطاعة للفرنجة الذين كانوا يملكون الضواحي كلها. وعلى البربر مناصرة الفرنجة كلما احتاجوا إليهم. ولما دخل المسلمون إفريقية ناصروا جرجير عليهم. ولما قتل المسلمون جرجير تشتت شملهم وتعددت رياستهم. . وكان كسيلة من أقوى رجالاتهم وأشدهم فالتفوا حوله. وهو من قبيلة أوْربة البربرية اهـ.

ونقل ابن خلدون عن ابن أبي زيد أن البربر ارتدوا بإفريقية اثنتي عشرة مرة من طرابلس إلى طنجة، وزحفوا في كلها على المسلمين ولم يثبت إسلامهم إلا في أيام موسى بن نصير. ولما جاز إلى الأندلس أخذ معه بعضاً من رجالاتهم ليجاهدوا معه واستقروا هناك، فاستقر الإسلام بالمغرب، وأذعن البربر لحكمه، ورسخت فيهم كلمة الإسلام وتناسوا الردة. ثم سرت فيهم دعوة الخارجية ممن قدموا من العراق، ووجدت من عامتهم صفاء فاعتنقوها وتعددت طوائفهم فيها وتشعبت طرقها إلى أن رسخت فيهم، وتطاولت نفوسهم إلى الفتك بالعرب فقتلوا يزيد بن مسلم سنة 102هـ.

هوارة:

ومن أشهر قبائلهم في طرابلس قبيلة هوارة. وهي بطن من البرانس تنسب إلى هوارين أو ريغ بن برنس جد البرانس. ومن بطون هوارة غريان، وورفل، وسراتة وسلاتة، ومجريس.. (وسلاتة، وغريان، ومجريس أبناء هوار).

وكانت مواطنهم زمن الفتح حول طرابلس إلى ما يقارب سرت. وإلى قصر ميمون من ناحية الجنوب.. وما زال وادي ميمون معروفاً إلى الآن في أراضي ورفلة، وبه آثار قصور ما زالت موجودة إلى الآن.. وكانوا ظواعن وأهلين. ومنهم من رحل إلى بلاد السودان، وما زالوا يقال لهم هكار، قلبت العجمة واوها كافاً أعجمية تخرج بين الكاف والقاف العربيتين. وكان لهوارة ذكر في الردة، وكانوا متعصبين للخوارج، ثم اعتنقوا مذهب الإباضية واستقروا عليه.. ثم غلبتهم العرب على أمرهم، وتوزعتهم فيمن توزعوا للخدمة، ويملكوهم تملك العبيد للجباية منهم.. قال ابن خلدون: ثم جرّت عليهم الدول أذيالها، وأناخت عليهم بكلاكلها، ومنهم أوزاع في مصر متفرقون، أوطنوها أكرَة وشاوية[1].

نفوسة:

ومن أشهر قبائلهم في طرابلس قبيلة نفوسة. وهي من البرابر البتر، تنسب إلى نفوس بن زحيك بن مادغيس، وهو مادغيس الأبتر جد البرابر البتر. وكانت من أكبر قبائل البربر. ومن بطونها بنو زمور، وبنو مكسورة. وماطوسة. وكانت بطونهم بجهات طرابلس وما إليها - وما زالت جماعات منهم كثيرة تسكن الجبل المعروف بهم إلى الآن (جبل نفوسة) وكانت مدينة صبرة (صبراتة) في مواطنهم وتنسب إليهم.

لواتة:

ومن أشهر قبائلهم لواتة. وكانت زمن الفتح العربي تسكن برقة. وهي

(1) الأكرة: الذين يؤجرون أنفسهم للخدمة. والشاوية: الرعاة.

من أكبر بطون البربر البتر ينسبون إلى لُو الأصغر، ابن لُو الأكبر، ولو الأصغر هو نفزاو. والبربر إذا أرادوا العموم في الجمع زادوا الألف والتاء فقالوا لُوات، فلما عربته العرب حملوه على الإفراد وألحقوا به الهاء[1].

زواغة:

ومن قبائلهم زواغة، وهم من البرابر البتر، وهم أوزاع في القبائل، ومنهم جماعة بنواحي طرابلس. ومدينة زواغة ما زالت تعرف بهذا الاسم، وهي غربي صبراتة بنحو عشرة ك م. وقد خربت ولم يبق منها إلا أطلالها. ويسكن تلك الجهة الآن جماعات من العرب.

لماية:

ومن قبائلهم لَماية، وهي من البرابر البتر. وكان جمهورهم بالمغرب الأوسط. ولما انتشر مذهب الإباضية في إفريقية. أخذوا به. . . ولماية البلد المعروفة في طرابلس بين زنزور والزاوية مسماة باسمهم، لأن جماعة منهم كانت تسكنها.

الفينيقيون

أمة عربية قديمة من الأصل السامي، اشتهرت منذ القدم بالتجارة والأسفار البحرية، وكانت مواطنهم فلسطين وسواحل الشام. ومن أشهر مدنهم صيدا، وصور، وطرابلس الشام، وبيروت. وكانوا يترددون على الشمال الإفريقي منذ القرن الثاني عشر ق.م. وأنشأوا على ساحله محطات تجارية كثيرة لنقل بضائعهم منها إلى الأسواق التي تروج فيها. وكانت عنايتهم بالتجارة والصناعة في الدرجة الأولى من شؤون حياتهم. ولا يبعد أن يكونوا هم الذين جاءوا بزراعة الزيتون إلى إفريقية[2].

---

(1) من ابن خلدون.

(2) خلاصة تاريخ تونس.

ولما مات ملكهم معطجين[1] ترك بنته عليصار وولده بيجماليون، وكانت رغبته أن يشتركا في الملك بعده، ولكن الأهالي ولوا عليهم بيجماليون، وتركوا عليصار وكانت تسمى «ديدو»، وكانت متزوجة من «طيخار بعل» رئيس حزب الأشراف، فقتله أخوها «بيجماليون» بعد مدة من توليه الملك، فاستاءت ديدو من عمل أخيها، فثارت عليه لتخلعه من الملك، ولكنه تغلب عليها فركبت البحر هاربة، وأخذت معها جماعة من أكابر قومها حتى وصلت الشمال الإفريقي، فسميت «ديدو الهربانة».

قرطاجنة:

ولما وصلت ديدو الشمال الإفريقي نزلت إلى البر، واشترت من البربر قطعة أرض، وبنت عليها مدينة «قرطاجنة» (سنة 840 ق.م)[2] ومعناها المدينة الجديدة. وهي من أعظم المدن التي عرفت في الشمال الإفريقي.. وتطلق قرطاجنة على ثلاث مدن: قرطاجنة إفريقية وهي أعظمها، وقرطاجنة الجزيرة الخضراء بالأندلس عند جبل طارق، وقرطاجنة الخلفاء بكورة تُدمير بالأندلس.

نظام الحكم فيها:

وكان نظام حكمها زمن القرطاجنيين أشبه بالجمهوري، وكان يدير شؤون الحكم مجلس مكون من مائة عضو من الأعيان والتجار. وكان لهم رئيسان ينتخبان في كل سنة، وديانتهم الوثنية، وأكبر آلهتهم «بعل».

ولما استقر ملك الفينيقيين في شمالي إفريقية، وقوي سلطانهم فيها أخذوا يفكرون في توسيع نفوذهم طمعاً في الاستيلاء على البلاد كلها.. وفي سنة (480 ق.م.) صاروا يغيرون على القبائل البربرية التي كانت تسكن

---

(1) يقال إن هذا هو الملك الذي قال الله فيه: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾.

(2) وقيل بنيت سنة 880 ق.م. وذكر بعض المؤرخين أنها بنيت في عهد بعاز ملك يهوذا سنة 846 ق.م.

السواحل حتى أخضعوها لسلطانهم، وشمل نفوذهم من حدود برقة الشرقية إلى بحر الظلمات كما شمل ساحل أوربا الجنوبي إلى جبل طارق الذي كان يسمى إذ ذاك أعمدة هرقل.

الروم

من الأمم التي سكنت الشمال الإفريقي الروم. وقد جاء في كتاب «المسالك والممالك»: أول ما دخل البربر إفريقية ملأوا سهولها وجبالها، واضطر أهلها ـ وكانوا من الروم ـ إلى الجلاء إلى صقلية.. وهذا يفيد أن الروم وُجدوا في الشمال الإفريقي قبل البربر. ولا يستبعد هذا لقربهم من الشمال الإفريقي، وإذا صح هذا فهو في تاريخ غير معلوم البداية ولا النهاية، لأن تاريخ وجود البربر في إفريقية غير معلوم البداية.. وإذا كان التاريخ لم يعين لنا في هذا الدور زمن وجود الروم في إفريقية، فقد عينه لنا في عودتهم على أثر تغلبهم على القرطاجنيين. وذلك أن القرطاجنيين لما ملكوا إيطاليا الجنوبية أساءوا معاملة أهلها واستبدوا بهم، فلم يطيقوا صبراً على هذا الاستبداد فحاربوهم، ودامت الحرب بينهم أكثر من مائة سنة فقد وقعت بين الروم والقرطاجنيين ثلاث حروب[1] في المدة ما بين سنة 264 إلى سنة 146 ق.م.

الحرب الأولى ابتدأت من سنة 264، وانتهت سنة 241 ق.م. انهزم فيها الجيش الرومي بإفريقية.. وانهزم فيها الجيش القرطاجني بصقلية.

الحرب الثانية ابتدأت سنة 218، وانتهت سنة 202 ق.م. انتصر فيها «حنبعل» القائد القرطاجني بإيطاليا في واقعة «كان[2]»، وقتل فيها من الروم ما يربو على سبعين ألفاً. وكانت سنة 216 ق.م. وكان حنبعل من أكبر قواد

---

(1) تقسيم هذه الحروب منقول من خلاصة تاريخ تونس للعلامة حسن حسني عبد الوهاب التونسي.

(2) بلدة غربي إيطاليا كانت تابعة لها. والآن تابعة لفرنسا وتقع في جنوبيها.

القرطاجنيين، وكاد يقضي في هذه المعركة على روما لولا تقاعس دولته عن إمداده بالمال والجند لخلاف كان بينه وبين بعض الرؤساء... وانتصر عليه الروم في واقعة «جامة[1]» سنة 202 ق.م. ففر إلى الشام ومات بأنطاكية.

الحرب الثالثة ابتدأت سنة 149 وانتهت سنة 146 ق.م، ورجحت فيها كفة الروم على القرطاجنيين، واستمات القرطاجنيون في الدفاع عن عاصمهم، وانتهز البربر فرصة رجحان كفة الروم فانضموا إليهم بزعامة ماكسن البربري، وكان ذلك نتيجة لما قاسوه من ظلم القرطاجنيين واستبدادهم بهم.. وكانت هذه الحرب القاضية على القرطاجنيين، فملك الروم قرطاجنة، وخربوها وأحرقوها بالنار، وأصبحت أثراً بعد عين، وكان ذلك سنة 146 ق.م.. وزال ملك قرطاجنة من الوجود بعد أن دام نحو سبعمائة سنة. واستولى الروم على جميع البلدان التي كانت تابعة لقرطاجنة ومن ضمنها طرابلس.. وهذا أول عهد الروم بالشمال الإفريقي فيما حدد التاريخ زمنه.

الوندال

هم من الأصل الجرماني «الألمان»، زحفوا في القرن الرابع الميلادي على إسبانيا فاحتلوها وأقاموا بها دولة عظيمة، وكانوا يسكنون فيما وراء جبل طارق الذي كان يسمى إذ ذاك «أعمدة هرقل».

وسبب احتلالهم قرطاجنة أن ملك روما كانت تنوب عنه في حكم إفريقية إمرأة يقال لها «إيلا ليديا» ومقر حكمها قرطاجنة، وكان «بونيفاس» أحد ولاة الروم على إفريقية يطعن عليها ويهزأ بحكمها، ولم تطق صبراً على معاكسته إياها. وفي سنة 429 م[2] أرادت أن تنتقم منه، فشق عصا الطاعة على روما سنة 427 م، والتجأ إلى الوندال في إسبانيا واستنجد عليها بملكهم

(1) قرية قرب مدينة الكاف غربي المملكة التونسية، ويسميها الروم زاما.
(2) وقيل سنة 427.

«جنسريك»، فلبى طلبه، واجتاز من إسبانيا إلى المغرب، واحتل مدن إفريقية الواحدة بعد الأُخرى إلى أن احتل قرطاجنة سنة 435 م[1]، وقضى على مُلْكِ روما في إفريقية[2]، وجعل قرطاجنة عاصمة لمملكته الجديدة، وأصبح الشمال الإفريقي كله ممتلكات وندالية بعد أن كانت رومية. وأحسن الوندال معاملة البربر فكانوا عوناً لهم على غيرهم.

واستفحل أمر «الوندال» فاحتلوا روما سنة 455م. وأطلقوا أيدي الجند فيها 15 يوماً فنهبوا كل ما فيها من ذخائر نفيسة. وعبثوا بالنظام الرومي في إفريقية حتى قضوا على آثاره فيها.

وبعد أن مات «جنسريك» ملك الوندال سنة 477م تولى بعده ابنه «هنريق»، وكان قاسياً على الكاثوليك. وفي سنة 483م قبض على خمسة آلاف من رهبانهم، وشردهم في الصحراء، واغتصب أموالهم وكنائسهم. وفي سنة 523م تولى على الوندال «هلدريق»، وكان ضعيف الإرادة، منحل العزيمة، فخلعوه وولوا مكانه «جليمير».

الروم مرة ثانية:

ولما خُلِعَ «هلدريق» استنجد بيوستنيان قيصر القسطنطينية لاسترجاع ملكه وكانت فرصة اغتنمها يوستنيان لطرد الوندال من إفريقية وإرجاعها إلى ملك روما، فأنجده وأعلن الحرب على الوندال. وهاجم بيليساريوس القائد الرومي قرطاجنة سنة 534م، وأسر ملك الوندال «جليمير» واسترد جميع البلاد التي كانت تابعة للوندال إلى مملكة بيزنطة «القسطنطينية» وزالت دولة الوندال من إفريقية بعد أن ملكتها نحو مائة سنة. وأسس الروم على أطلال قرطاجنة رومية، وتأنقوا في عمارتها وحضارتها ما شاء لهم الفن والعلم.

(1) وقيل سنة 439م.

(2) وفي أيام حكمهم الأول أيام قسطنطين الأكبر سنة 330 انتشرت الديانة المسيحية في أوربا وما اتصل بها.

وقد جلبوا إليها الماء من عين زغوان جنوبي تونس بنحو تسعين ك م في ساقية بُنيت على قناطر وحنايا وسدود، أُتقن صنعها على شكل هندسي في غاية القوة والإتقان، يعلون بالمنخفض حتى يصل إلى المستوى المطلوب، وينزلون بالمرتفع إلى حيث المستوى المطلوب.

وقد عُني الروم بتعمير إفريقية فجلبوا الماء إلى قرطاجنة وحفروا الآبار والصهاريج والمآجل وادّخروا فيها ماء المطر للانتفاع به في الصيف، وأسسوا فيها مدناً كثيرة، وحسّنوا مواصلاتها فأنشأوا طرقاً كثيرة، ومنها طريق كان يصل بين طرابلس وعنابة ببلاد الجزائر ويمر بأكثر مدن الساحل.

وقد بلغ عدد سكان إفريقية في هذا العهد أربعة ملايين من النفوس، وكان عدد سكان قرطاجنة وحدها لا يقل عن خمسين ألفاً.

وقد عنوا بفن النحت فكان لهم السبق في صنع التماثيل الحجرية، يدل على هذا ما كشف عليه الحفر في مدينتي لبدة وصبراتة. ومنها ما زال ماثلاً إلى اليوم في كرزة.

ومع طول الزمن وتعاقب السنين اندمج بربر السواحل في الروم بسنَّة تقليد الضعيف للقوي، واستحسان المغلوب ما عليه الغالب من عادات وتقاليد، ونسي بعضهم قوميتهم وعاداتهم، وأصبحوا روماً في كل مقومات الحياة حتى زالت الفوارق بينهم وبين الروم. وبهذا الاندماج أمكنهم أن يتولوا أكبر المناصب في الدولة، فإن سبتيم سيفاروس - وهو بربري الأصل - انتخبه الجند إمبراطوراً لعرش الروم سنة 193م، ومات محارباً بإنجلترا سنة 211م وخلفه ابنه.

وكان هذا الاندماج في بربر السواحل وما قاربها، أما البربر الذين يسكنون الجبال وما وراءها فقد احتفظوا بقوميتهم وعاداتهم، ولم يتأثروا بعادات الروم، ولذلك نراهم كثيراً ما قاوموا الروم وحاولوا إجلاءهم عن وطنهم، ولم يتركوا فرصة للثورة إلا ثاروا عليهم للتخلص من حكمهم. وفي القرن السابع الميلادي تقلّص نفوذ الروم من دواخل ليبيا وانحصر في السواحل.

وفي كل مرة احتُلَّت فيها قرطاجنة كان السبب المباشر في التغلب عليها هو اختلاف الرؤساء، وجور الحاكمين، وتذمر السكان من الذل الذي كانوا يلاقونه من الطبقة الحاكمة.

وكانت طرابلس دائماً تابعة لقرطاجنة، ومحط أساطيل الدول التي تغلبت عليها في هذه الحقب الطويلة والأزمان البعيدة، وكانت قبل الفتح الإسلامي عامرة بالأشجار والبساتين والمزارع، وصهاريج المياه، والسدود التي في مجاري الأنهار لحبس المياه للانتفاع بها في الصيف، والفساقي، والآبار المحفورة في الأرض، والمآجل وما زالت آثار هذا العمران موجودة إلى الآن.

وبقيت إفريقية تحت ملوك الروم بالقسطنطينية إلى أن فتحها العرب سنة 647م فأجلوهم عنها.. ولأجل هذا نرى الطليان يقولون إن طرابلس بلدنا، ولقد كذبوا على التاريخ وخالفوا الحقيقة، فإن بلادهم الأصلية هي روما وما حولها من بلاد شمال البحر الأبيض المتوسط. وإنما جاءوا إلى طرابلس فاتحين وأخذوها بالقوة من الفينيقيين والوندال، كما أخذها منهم العرب في الفتح الإسلامي بالقوة.

وكان من أهم أسباب انهيار الدولة الرومية هو ما سرى فيها من أنواع الترف والانحلال الخلقي والاختلافات الطائفية. وهذه العوامل ما فشت في أمةٍ إلا أدال الله منها، وأزالها من الوجود، واستبدل بها أمة صالحة للبقاء، وقد كانت هذه الأمة هي الأمة العربية والحمد لله.

فتح برقة[1]

كانت برقة قبل الفتح الإسلامي تابعة للإسكندرية تحت حكم دولة الروم الشرقية، كما كانت جميع البلاد الإفريقية تابعة لهذه الدولة. وما كاد العرب ينتهون من فتح مصر والإسكندرية حتى اتجهت أنظارهم نحو إفريقية لفتحها، وتخليص سكانها من ظلم الروم وجبروتهم. وكان فتح مصر والاسكندرية مشجعاً على فتح إفريقية لما وجدوه فيهما من ثروة تمكنهم من جعلهما قاعدة لغزو إفريقية إتماماً لسلسلة فتوحاتهم الموفقة، والاستئصال نفوذ الروم من إفريقية.

وكانت أخبار فتح العرب في مصر والإسكندرية قد انتشرت في كل البلاد المجاورة لهما. وقد اشتملت هذه الأخبار على ما أبداه العرب من شجاعة في مقاتلة العدو، وعلى ما أظهروه من عدالة في أحكامهم، ومساواة بين الناس في الحقوق، واحترام معابد المسيحيين واليهود وأملاكهم وأعراضهم، فكانت هذه الأخبار - من حيث شجاعة العرب وإقدامهم - مرهبة لسكان برقة، ومثبطة لعزائمهم، ومن حيث عدالتهم وحسن معاملتهم مطمئنة لنفوسهم، وباعثاً لرغبتهم في التخلص من حكم الروم الذين سلبوهم نعمة الحرية واتخذوا منهم عبيداً، ومن برقة مزرعة يعملون فيها ليوفروا لهم رغد العيش ومتع الحياة. وهم محرومون من كل شيء حتى مما يشبع بطونهم ويغطي أجسامهم، حتى اضطر الكثيرون منهم إلى احتراف اللصوصية لكسب لقمة العيش.

---

(1) برقة: بفتح الباء والقاف غير مضافة. وهذا هو الفتح الأول في إفريقية.

انتهى عمرو بن العاص من فتح الإسكندرية في النصف الأخير من سبتمبر سنة 642م[1] الموافق لذي القعدة سنة 21هـ، وسار بجيشه إلى برقة لفتحها، فلم يحاربه أهلها، وآثروا أن يدخلوا تحت حكم الإسلام ويتمتعوا بما فيه من حرية وعدالة ـ على حرب لا قدرة لهم عليها، وطلبوا من عمرو الصلح فصالحهم على ثلاثة عشر ألف دينار فرعوني يدفعونها إليه جزية في كل سنة، فكانوا يرسلونها إليه بدون أن يحوجوه إلى جابي خراج يرسله إليهم.

وجاء في رواية هذا الصلح: «على أن يبيعوا من أولادهم في جزيتهم».

ويفهم من هذه العبارة أن عمراً شرط عليهم ذلك في حالة العجز عن الدفع.. وهذا أمر غير مألوف عند العرب في فتوحاتهم. ولم يؤثر عن عمرو ولا غيره من قادة العرب أنهم شرطوا على المصالحين بيع أولادهم في دفع الجزية. ويظهر أن البربر هم الذين اشترطوا على أنفسهم توكيداً لالتزام الوفاء ولو أدى ذلك إلى بيع أولادهم. وإلى هذا الرأي ذهب صاحب «فتح العرب للمغرب». وذكر أن مثل هذا الالتزام كان متعارفاً في تلك العصور فقد نقل عن المستشرق «ديل روي»: «أن أهل كورسيكة كانوا يبيعون أبناءهم ليستطيعوا دفع الضرائب للحكومة البيزنطية». ويظهر من هذا أن بيع الأولاد كان أمراً عاديّاً حتى سهل على البربر أن يشترطوه على أنفسهم لعمرو وكتب في الوثيقة على أنه التزام منهم لا شرط عليهم. وهذا هو ما يتفق مع ما اعتاده العرب في فتوحاتهم كلها.

والذي يتفق مع المنطق المعقول أن الذي يهم العرب إنما هو دفع

---

(1) فتحت الإسكندرية عنوة. وجاء في كتاب عمرو يصفها إلى عمر بن الخطاب قوله: «إن فيها أربعة آلاف قصر، وأربعة آلاف حمام، وأربعمائة ملهى، وأربعين ألف يهودي يؤدون الخراج». فردَّ عليه عمر بأن يمنع النهب، ويحفظ غناها لبيت المال ونشر الإسلام، (الوافي في المسألة الشرقية).

الجزية. أما الطرق التي يتوصل بها المصالحون إلى تحصيلها فهي موكولة إليهم.

وتم فتح برقة سنة 21هـ. وفي بعض الروايات أن برقة فتحت سنة 22هـ. وقد يكون هذا التاريخ أقرب إلى الصحة لأنه من المعقول أن يبقى عمرو في الإسكندرية بعد التغلب عليها حتى تستقر الأمور ويأمن الثورة. وإذا قدرنا أن المسافة بين الإسكندرية وبرقة لا تقل عن عشرين يوماً على أقل تقدير اتضح لنا أن المدة الباقية من شهري ذي القعدة وذي الحجة لا تكفي لاستقرار الأمور في الاسكندرية، لذلك يبدو أن القول بفتحها سنة 22هـ. أقرب إلى الصحة.

وكانت «برقة» قبل الفتح الإسلامي تسمى «أنطابلس» وهي كلمة رومية معناها بالعربية «خمس مدن» وهذه المدن هي: «طوشيرا»، وسميت فيما بعد «أوسينولي». واسمها عند العرب الآن طوكرة.. و«سيرين». أو قورين. واسمها الآن قرنة، أو شحات.. «ورد برنيق». وقد بنيت على بعض أنقاضها بني غازي.. «وأبولونيا»، واسمها الآن سوسة.. «وبارش»، وسميت فيما بعد أبطوليمائيس، واسمها الآن المرج.. وهي مدن قديمة أسسها اليونان في أزمان مختلفة كانت موجودة قبل الفتح الإسلامي، وكان لها شأن في التاريخ القديم، وما زالت معروفة إلى الآن، وقد أدخل العرب على بعض الأسماء شيئاً من التغيير ليسهل عليهم النطق بها.

وقد خرب العرب أسوار هذه المدن لأغراض حربية وهي الخوف من ارتداد أهلها ومحاربة العرب من وراء الأسوار. ولهذا الغرض نفسه رأينا في هذا العصر الحديث أن الفرنجة كلما احتلوا بلداً من بلاد العرب، فأول ما يضعون أيديهم على الحصون وعلى المواقع الحربية، وكل ما يمكن التحصن به من هجومهم، ووضعوا فيه من الجند والمدافع ما يمكنهم من صد أي هجوم عربي، وإذا كان المستعمرون الآن عندهم من الجيوش ما يمكن توزيعه على القلاع والحصون، ومع ذلك فأول ما يبادرون بالاستيلاء على الحصون ومواقع الدفاع، فإن العرب لم تكن جيوشهم في بادىء الأمر من

الكثرة بحيث تمكنهم من هذا، لذلك كانوا يضطرون إلى هدم أسوار المدن التي كانوا يفتحونها، ثم يتركونها ويذهبون إلى غيرها.

وفكرة هدم أسوار المدن المختلفة وحصونها فكرة حربية قديمة يعتبرها الغزاة من أقوى أسلحة الهجوم، كما أن إقامة الحصون والأسوار يعتبرها المدافعون من أقوى أسلحة الدفاع. وما زالت هذه الفكرة متبعة الآن في عصر الذرة والطائرات.

وفي هذا الدور من فتوحات العرب لم يتخذوا عاصمة في برقة، بل ولا في غيرها. وفي القرن الثامن م بنوا مدينة المرج وجعلوها عاصمة برقة، وما زالت إلى الآن عاصمة الجبل الأخضر، وهي تقع في الجنوب الشرقي من مدينة بني غازي بنحو مائة ك م. وكان من عادات العرب أنهم يبنون عواصم البلاد التي يفتحونها بعيدة عن البحر خوفاً من غزو الفرنجة، وأيضاً لأنها تكون أقرب لأهل النجعة منهم إلى مراعي حيواناتهم ومنابت زروعهم.

وأطلق العرب كلمة القيروان على قورين. ومن أجل هذا رأينا الطليان كثيراً ما يطلقون كلمة قيروان على هذه الناحية، كما أطلقوا كلمة برقة على ما يشمل قصور حسان في سرت. وقد استقرت الأمور على أن يكون الحد الفاصل بين برقة وطرابلس هو المقطاع أو عين الكبريت حيث بنى الطليان قوساً هناك وجعلوه حدًّا فاصلاً بين طرابلس وبرقة[1].

وعاصمة برقة الآن بني غازي، وقد بنيت على جزء من مدينة برنيق القديمة.

ومن أشهر مدن برقة ـ بعد بني غازي ـ درنة، وهي مدينة على الطراز العربي، بنيت على مكان مدينة درنيس القديمة. وكانت غير مسوّرة، وبعد الاحتلال الإيطالي أحاطوها بسور من الناحية الغربية.

ويشقها نهر يجري ماؤه دائماً من الجنوب إلى الشمال ويبتدىء جريانه

---

(1) بني هذا القوس سنة 1929، ويبلغ ارتفاعه 33 متراً.

من وادي الضحاك بقرب الظهر الأحمر وكلما انحدر إلى الشمال أضيفت إليه عيون أخرى إلى أن يمر بعين منصور قرب المدينة، وهي من أكبر العيون التي تمد هذا النهر.

ويوزع ماؤه على بساتين وبيوت المدينة، وما من بيت إلا وبه بساتين تحتوي على كثير من أشجار الفاكهة من البرتقال والعنب، ويضرب المثل برمانها وموزها في الجودة.. وأكثر سكان المدينة من أصول طرابلسية هاجروا إليها من طرابلس، وما زالوا ينتسبون إلى أُسرهم الطرابلسية: مصراتة، وورفلة، وتاجورة وغيرها.

وقد اشتهرت أراضي برقة بالخصب منذ القدم، وإذا قدر لها من الأيدي العاملة ما يكفي لإصلاحها فستكون مصدراً للثروة لا ينضب.

فتح زويلة[1]

زويلة مدينة من مدن فزان القديمة، وتقع في الجنوب الشرقي من مرزق بنحو 150 ك م، وتبعد عن مدينة طرابلس إلى الجنوب الشرقي بنحو 770 ك م، ويعبر عنها بعض المؤرخين بزويلة السودان احترازاً عن زويلة إفريقية التي بناها عبيد الله المهدي بقرب تونس. . وكانت زمن الفتح الإسلامي عاصمة فزان بدل مرزق. . وسميت زويلة بعد الفتح الإسلامي بلد الأشراف، كما سميت زويلة بني خطاب؛ لأن بني خطاب البرابرة أقاموا فيها، وأسسوا فيها حكومة، وسيأتي الكلام عليها. وبقرب زويلة من الجهة الشرقية كثير من قبور الشهداء الذين استشهدوا في فتحها. ويسميها السكان قبور الصحابة.

ولما كان عمرو بن العاص في برقة، وقبل أن يتوجه إلى طرابلس، أرسل إليها جيشاً من المسلمين بقيادة عقبة بن نافع، فسار في الجنوب الغربي حتى وصلها وتم فتحها على يديه سنة 22هـ، وفرض على أهلها 300 رأس من العبيد. قال في (المسالك والممالك): «إنها ليست بجزية ولا خراج».

وكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب بالمدينة المنورة يخبره بأنه قد ولى عقبة بن نافع المغرب، فبلغ زويلة، وأن ما بين زويلة وبرقة أصبح سلماً، وقد حسنت طاعتهم، وأدى مسلمهم الصدقة، وأقر معاهدهم بالجزية، وأنه قد وضع على أهل زويلة ومن بينها وبين برقة ما رأى أنه

(1) بفتح الزاي وكسر الواو.

يطيقونه وأمر عماله جميعاً أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها في الفقراء ويأخذوا الجزية من أهل الذمة فتحمل إليه بمصر، وأن يؤخذ من أرض المسلمين العشر أو نصف العشر[1]، ومن أهل الصلح ما صالحهم عليه.

وليس في جواب عمرو ما يدعو إلى الشك الذي وقع فيه صاحب «فتح العرب للمغرب» لأن عمراً كان عنده من الوقت ما يمكنه من تطبيق نظام الزكاة في برقة، وبعد فتح زويلة أصبح ما بينها وبين برقة سلماً. وفرض عليهم عقبة ما يطيقونه وهو ثلاثمائة رأس من العبيد. وقد طبق في كل بلد ما يتفق مع وضعها مما جاء في كتاب عمرو، فلا داعي للشك، ولا يوجد ما يمنع الحقيقة.

سار عمرو إلى طرابلس على طريق الساحل، وهو آمن أن يؤتى من الجنوب لوجود عقبة في الجنوب، كما أمن عقبة أن يؤتى من الخلف أو الشمال لوجود عمرو في الشمال. وقد خلف كل منهما برقة، وقد عقدوا معها الصلح وأصبحوا معها في أمان. وهي خطة حربية حكيمة دلت على مهارة عمرو وعلمه بقيادة الحروب.

ويظهر أن عقبة لم يمر في طريقه إلى زويلة ببلاد ودان، لأنه سيأتي أن عمراً أرسل إلى ودان بُسْر بن أبي أرطأة لفتحها.. إذاً فمن المحقق أن عقبة أغذَّ في السير إلى زويلة وخلف بلاد ودان عن يمينه، وأن عمراً لم يأمره بفتحها حتى اضطر عمرو إلى أن يرسل إليها بعثاً آخر وهو يحاصر طرابلس لئلا تكون شوكة في ظهره، ولئلا تقطع الطريق على عقبة إذا رجع من فتح زويلة. وسار عمرو إلى طرابلس، وفي طريقه إليها مر بسُرت ففتحها.

---

(1) الزرع الذي يسقى بالآلات وفي سقيه مشقة زكاته نصف العشر، والزرع الذي يسقى بالمطر، أو بما لا مشقة فيه فزكاته العشر.

مدينة سرت

سرت بضم السين مدينة قديمة تقع على الخليج المسمى بها الآن[1]. وهي تبعد عن البحر إلى الجنوب بنحو 4 ك م. وتقع في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس بنحو 554 ك م، وكانت محاطة بسور من التراب. وهي غير سرت المعروفة الآن؛ لأن سرت هذه أُنشئت في العهد التركي سنة 1303هـ.

وقد ذكر العياشي في رحلته ما يقرب من تحديد مكانها فقال:

مررنا بالزعفران، وهو أحساء[2] على ساحل البحر ماؤها عذب، وإلى جنوبيّه كثبان من الرمل الأحمر تظهر من بعيد، ومن وراء الكثبان من ناحية البر قصور سرت وهي ثلاثة قصور يخزن فيها العرب ما ثقل حمله. اهـ.

والمفهوم من كلام العياشي أنها تُسامت الزعفران من الجنوب. والزعفران ما زال معروفاً إلى الآن سنة 1383، ورحلة العياشي كانت سنة 1072 وعاد منها سنة 1073.

وتسمى الآن قرارة الأقواس. وقد طرأ عليها هذا الاسم بعد أن خربت وبقيت أكواماً من التراب والحجارة ولأنها كانت بها أقواس قائمة، ومن أجل

(1) يبتدىء امتداد خليج سرت من مدينة مصراتة، إلى الجنوب حتى بويرات الحسون. ثم يتجه شرقاً إلى العقيلة على مسافة 585كم من مصراته ثم يتقوس إلى الشمال حتى مدينة بني غازي، مسافة 285كم ومدينة بني غازي في الشرق تقابلها مدينة مصراتة في المغرب، ويقع خليج سرت جنوبي الخط الاعتباري الذي يصل بين المدينتين.

(2) الأحساء: جمع حسي، وهو بئر قليلة الغور يتجمع فيها الماء بطريق الرشح من جوف الأرض، وتوجد في الأراضي الرملية وخصوصاً على ساحل البحر.

ذلك سميت قرارة الأقواس. وما زال الطاعنون في السن من سكان تلك الناحية يعرفون أنها سرت القديمة. وما زالت بها أكوام من الحجارة والتراب تدل على بقايا قصورها الثلاثة التي ذكرها العياشي في رحلته. وفي حوالي 300 سنة أصبحت أثراً بعد عين. وفي زمن العياشي كان للعرب فيها ثروة وصولة ونفوذ.

ونقل في حقائق الأخبار عن البكري أن سكان مدينة سرت (القدماء)، كانت لهم رطانة يتفاهمون بها، ليست بعربية ولا قبطية، ولا بربرية، ولا عجمية. اهـ. ولا يستبعد أن تكون هذه اللهجة سودانية سرت إليهم من السودان لكثرة الاتصال بهم بسبب التجارة.

فتح مدينة سرت

مر بها عمرو في طريقه إلى طرابلس ففتحها، ولم يجد عناء في فتحها، ولم يذكر أحد أنها فتحت عنوة أو صلحاً، مما يدل على أنها لم تكن ذات خطر، فاكتفى منها المسلمون بالاستسلام، وساروا في طريقهم إلى طرابلس، ومروا في طريقهم إليها بلبدة.

لبدة[1]

كانت منطقة لبدة موطناً لجماعات بشرية في عصور ما قبل التاريخ كما تدل على ذلك بعض حجارة وجدت على ضفاف وادي الرملة، وقد أسس بها الفينيقيون المراكز الأولى للبدة وصبراتة.

ولبدة مدينة عظيمة من مدن الشمال الإفريقي الكبرى، أسسها الفينيقيون في أوائل القرن العاشر ق.م. عند بداية استعمارهم إفريقية. وهذا التاريخ يقرب من تاريخ إنشاء قرطاجنة. وكانت معروفة عند القرطاجنيين

(1) ملخص ما ترجمه ابننا الأستاذ أحمد الطيب البشتي من دائرة المعارف الإيطالية.

باسم «لبكى»، وقد حرفها اليونانيون إلى «لبشس». وبقيت هذه الكلمة مستعملة إلى القرن الثالث ق.م. ثم حرفت في اللغة اليونانية من «لبشس» إلى «لبتس» لسهولة النطق في اللغة اليونانية بكلمة «لبتس» عن «لبشس».. وبما أن «لبتس» اسم لمدينة في «بيزاشينا»[1] خافوا أن يحصل التباس بين المدينتين، فأضافوا إلى لبتس الإفريقية كلمة «مانيا»، فصارت «لبتس مانيا» ومعناها لبدة العظيمة، أو لبدة الكبيرة.

وقد استطاع الفينيقيون أن يعمروا البلاد بسرعة نظراً لخصوبة أرضها، واعتدال مناخها وصلاحيته للسكنى، ولأن لها ميناء مأموناً وصالحاً للملاحة ولوقوعها على نهر عين كعام[2]، الذي يقع شرقيها بقليل.. ومما زاد في سرعة عمرانها العلاقات الطيبة التي نشأت بين السكان والفينيقيين نتيجة لحسن معاملتهم لهم[3].

وذكر هيرودوت واقعة كبيرة وقعت عند مصب «شنبس» وادي عين كعام. ويستنبط بعض المؤرخين أن هذه الواقعة كان لها أثر سيىء في تأخر لبدة وتدهور حضارتها.. وقد اعتراها الانحطاط في أواخر القرن السادس ق.م. وفي هذا الوقت حاولت عصابة من اليونان برياسة الأسبرطي ديور أن تنشىء مستعمرة عند مصب نهر «شنبس» نهر عين كعام، منتهزة فرصة ما اعترى لبدة من التأخر والانحطاط، وقد تم لها ما أرادت.

وكانت تقصد إلى أن تحل محل الفينيقيين في هذه المنطقة، ولكن القرطاجنيين خافوا تسرب نفوذ اليونان غربي سرت فلم يلبثوا أن هاجموها وخربوا مستعمرتها وطردوها هي ومن معها، ولم يمكنوها من الرجوع مرة أخرى. واستولوا على لبدة وما حولها، وأعادوا إليها ما فقدت من عمرانها وحضاراتها[4].

---

(1) لعلها من البلاد اليونانية.

(2) كان يسمى نهر «شنبس».

(3) لم نطلع على ما كان بينها وبين المدن الإفريقية من علاقات.

(4) يظهر أن اليونانيين جاءوا إلى لبدة من برقة، وقد ترتب على تغلب القرطاجنيين =

وتوطد ملك القرطاجنيين فيما بين السرت الكبير والسرت الصغير[1]، وأُطلق على هذه المنطقة اسم «أمبوريا»، وصارت جزءاً من أملاك الأمبراطورية القرطاجنية، وبقيت لبدت المركز الرئيسي للمنطقة فيما بين السُّرتين، وتتمتع باستقلال داخلي.. وبقيت تحت حكم القرطاجنيين إلى أوائل القرن الثاني قبل الميلاد.

وفي أوائل هذا القرن أصبحت تابعة للنوميديين في الفترة ما بين الحربين القرطاجنتين الثانية سنة 218، والثالثة سنة 149 ق.م. وكانت تبعيتها للنوميديين شكلية لأنها كانت مقصورة على دفع الجزية.

وفي سنة 111 ق.م. أرسلت وفداً إلى روما طالبة صداقتها والتحالف معها للتخلص من حكم النوميديين. وفي سنة 107ق.م. أمدتها روما بأربع كتائب من الجنود لمحاربة النوميديين. ويظهر أنها لم يمكنها التغلب عليهم، وبقيت تحت سيادتهم الاسمية متمتعة باستقلالها الداخلي إلى أن احتلها الروم سنة 42ق.م، وانتهى حكم النوميديين.

وبدخولها تحت الروم صارت جزءاً من إفريقية. هذا بالنسبة للسواحل أما الدواخل فبقيت تحت سلطة حاكم من نوميديا حتى أوائل القرن الثالث ميلادي، حيث أقيم خط دفاع ضد سكان الجنوب، وسموه ليمس تريبوليتانوس.

وقد تعرضت لبدة لغارات الجرمنتيين فيما بين سنتي 24 و17ق.م، واستعانوا بقبائل أخرى من الجنوب، وذلك بسبب نزاع قام بينها وبين «أويا» طرابلس الآن بسبب اختطاف الماشية، والتعدي على بعض الأشخاص، فاستنجدت «أويا»، طرابلس بالجرمنتيين وبعض قبائل الجنوب، فخفوا لنجدتها، وهاجموا لبدة فتغلبوا عليها، وخربوا ضواحيها، واضطر السكان إلى الاحتماء بأسوار المدينة حتى أدركهم «فاليريو فيستو» بجيشه وطرد

= على اليونان أن أقيمت الحدود بين مملكة قرطاجنة واليونان في برقة.

(1) السرت الكبير هو خليج قابس بتونس. والسرت الصغير هو خليج سدرة بليبيا.

الجرمنتيين، وأعاد إلى المدينة طمأنينتها وما فقدته من أهمية كانت تتمتع بها كمحطة للقوافل. التي كانت تصل ساحل البحر الأبيض بالجنوب والسودان.

وفي سنة 146م ظهر في لبدة «ستّيميو سيفير» وهو من إحدى الأسر الكريمة فيها، فتولى عرشها، فعني بشؤونها، ونشر فيها العلم والأمن، وأمعن في مطاردة المعتدين عليها من قبائل الجنوب حتى أقصاهم عنها. وعني برقيِّها الدّاخلي، فوفر لها سبل الحياة الصالحة بما أنشأ فيها من وسائل العمران والتقدم.. وتقديراً لأعمال هذا الرجل المصلح واعترافاً بإخلاصه أطلق السكان على أنفسهم اسم السَّتيميين تيمناً باسم ستّيميو، واشتهروا بذلك.

وفي القرن الثالث الميلادي ـ زمن الأمبراطور سيڤيروس سيبتيموس، من سنة 193 إلى 211م. وزمن ألكسندر سيڤيروس[1] من سنة 222 إلى سنة 235م. بلغت لبدة مبلغاً عظيماً في الحضارة والتقدم العمراني. وفي هذا العصر كان سكانها خليطاً من القرطاجنيين والروم واليونان والليبيين، وبلغ عددهم ثمانين ألفاً. وكانت أويا «طرابلس» في هذا العهد لم تبلغ شأواً يمكنها من مزاحمة لبدة في النفوذ والسلطان.

وفي القرن الرابع أصدر دقيانوس أمره بإعطاء أويا لقب ولاية. وكانت لبدة لها الصدارة، فأخذت أويا تزاحمها في صدارتها ومكانتها.

وفيما بين سنتي 363، 366 من القرن الرابع م اعتدى الاستريانون على ولاية لبدة فألحقوا بها أضراراً بالغة[2]، وخصوصاً بالمدينة حتى ساءت أحوالها وأخذت في الانحطاط حتى طمع فيها الوندال.

---

(1) ولد في طرابلس، وعني برقي المدن الثلاث، فكانت تأتيها القوافل المشحونة بالعاج والذهب، وخشب الأبانوس، وريش النعام والعبيد. وكانت هذه البضائع تصدر من مواني المدن الثلاث إلى أسواق روما وجنوبي أوربا. وكان زيتونها خير ما ينتج في حوض البحر الأبيض المتوسط.

(2) وفي بعض الكتب أن قبيلة بربرية خربتها سنة 370م، وهذا يوافق زمن احتلال الروم الأول لقرطاجنة.

وفي سنة 455م احتلها الوندال[1]، ولكنهم لم يعنوا بها وتركوها للفوضى، وامتدت إليها يد النهب والسلب من القبائل البربرية المقيمة في المدينة وحولها، وأكبرها قبيلة لواتة[2]. وفي هذه الفترة أصيبت بفيضان كبير من وادي عين كعام فحطم الجسور والأسوار، وكان له أسوأ الأثر في شل الأيدي العاملة، وتسرب اليأس إلى النفوس من القدرة على الإصلاح. فأهمل شأنها، وزحفت الرمال عليها، ودبَّت روح التمرد في القبائل القاطنة حولها. ولم تأت سنة 533م حتى حولت هذه القبائل الفوضوية المدينة إلى خراب، وطمع البيزنطيون في احتلالها.

وفي سنة 533م احتل البيزنطيون لبدة. وكان احتلالهم لها بداية عهد جديد لعمرانها واسترداد بعض ما فقدت من حضارتها واتخذت مقراً للحاكم العسكري. وقد أصلح جوستنيان كثيراً مما امتدت إليه أيدي الفساد في العهد الذي قبله. وأدخل عليها الروم من فنون العمارة والزخرفة ما زاد في ضخامتها وجمالها. يشهد بذلك ما اكتشف من آثارها الجميلة زمن الاحتلال الإيطالي من سنة 1911 إلى أواخر سنة 1942.

ولكن اللواتيين دأبوا على الثورة والتخريب، ولم يخضعوا لما أقيم في لبدة من حكم وانتهى الأمر بانسحاب حاكم البلد «سيرجو» منها.

وبعد جوستنيان أخذت البلاد في الانحطاط، والسير إلى الخراب بخطى واسعة.

وفي سنة 643م وصلت إليها طلائع العرب الأولى للفتح الإسلامي، فلم تجد في لبدة من العمران إلا بقايا من قصورها العظيمة ودورها الفخمة، وإلا بقايا من السكان خليطاً من أجناس متعددة يعيشون فيما بقي من خرائب

(1) يلاحظ أن الوندال احتلوا قرطاجنة سنة 435م. وجاء في كتاب جوزيف كاكيا عن طرابلس: أن الوندال احتلوا قرطاجنة سنة 429م، وهذا يخالف ما نقلناه عن دائرة المعارف الإيطالية. واحتلوا صقلية سنة 440م، وروما سنة 455م، ومالطة سنة 456م.

(2) كان الوندال ولواتة كل منهما يناصر الآخر.

دورها وقصورها. وقد مر بهم العرب الفاتحون في ذهابهم وإيابهم، فلم يكن لهم معهم شأن، نتيجة لما هم فيه من ضعف واستكانة، وفقر مدقع.

وقد أتت الكاهنة على ما بقي فيها قابلاً للإصلاح، كما أتت على عمران غيرها من مدن إفريقية.

وتقع لبدة شرقي مدينة طرابلس بنحو تسعين ك م، وقد أكل البحر جزءاً كبيراً منها. وبنيت مدينة الخمس في أوائل القرن التاسع عشر على جزء منها وبأنقاضها.

ولما بنى مراد آغا جامعه الذي بتاجورة نقل إليه منها أعمدة الرخام التي أقامه عليها. وكثيراً ما نقلت منها أعمدة الرخام للجوامع.

فتح لبدة

مر بها المسلمون فوجدوها خراباً مهدمة، وحواليها قليل من السكان خليطاً من البربر والروم، ولم ينقل أحد من المؤرخين أنهم وجدوا فيها أي مقاومة. وواصلوا سيرهم إلى طرابلس.

وكانت في قديمها على جانب كبير من العظمة العمرانية والأبهة المدنية. وقد كشف الحفر فيها عن آثار في غاية الروعة وجمال الفن... وقد وضع ما أمكن نقله في متحف خاص هناك.. أما بقايا القصور الضخمة، وأعمدة الرخام وغيرها مما لا يمكن نقله فما زالت في أمكنتها ماثلة للعيان تسترعي النظر وتبهر العقول.

ولم ينته الحفر فيها إلى غايته. وكثير من روائع فنها ما زال مدفوناً.

طرابلس الغرب

نبذة من تاريخها القديم

طرابلس مدينة قديمة فينيقية على أرجح الأقوال، أو قرطاجنية.

وفي حوالي سنة 795ق.م، شمل النفوذ القرطاجني ما بين خليج قابس وخليج سرت، وأسسوا موانىء صبراتة، وأويا، ولبتس مانيا، وربطت هذه المنطقة مع إفريقية بطرق القوافل، ومع قرطاجنة بطريق ساحلي يبلغ طوله 512 ميلاً.

والثابت أنها أنشئت بعد صبراتة ولبدة، ولم يعين أحد زمن إنشائها وكانت أقل منهما أهمية، وكانت تسمى «أويا[1]».

وفيما بين سنتي 24، 17ق.م حصلت فتنة بين لبدة و «أويا» طرابلس بسبب نهب بعض الماشية، فأرسلت لبدة رسلاً إلى «أويا»، طرابلس للتفاهم وإزالة الخلاف، فاعتدوا عليهم، وازدادت الفتنة حتى انقلبت إلى حرب بين الطرفين.

وكان الجرمنتيون إذ ذاك يسكنون فزان، وكان لسكان أويا صلة بهم فاستنجدت أويا بالجرمنتيين وبعض سكان الجنوب على لبدة، فأنجدوها وهاجموا لبدة فتغلبوا عليها، وخربوا ضواحيها، والتجأ السكان إلى المدينة،

---

(1) ذكر بعض المؤرخين أن اسمها «أوايات» ويظهر أنه اسم بربري حرفه الروم إلى «أوا»، [illegible] أوا كانت مدينة قديمة، فخربت وبنيت على أنقاضها مدينة طرابلس الآن.
وذكرت في دائرة المعارف الإيطالية باسم «أويا» فكتبناها كما جاءت فيها. [illegible] في بعض المصادر أن اسمها «أناس» ولا أعلم مبلغ صحته.

فدافع عنها «فاليريو فيستو» وطرد الجرمنتيين[1].

وفي أوائل القرن الثالث الميلادي أقيم خط دفاعي ضد الهجوم من قبائل الجنوب وسمي هذا الخط «ليمس تريبوليتانوس»، ومنذ ذلك الحين أُطلق اسم «تريبوليتانوس» على المنطقة الواقعة بين السرتيْن: السرت الكبير وهو خليج قابس، والسرت الصغير وهو خليج سرت..

و كلمة «تريبوليتانوس» تفيد معنى «إقليم المدن الثلاث»، وهي لبدة، وطرابلس، وصبراته.. ومع طول الزمن وكثرة الاستعمال اختصرت إلى تريبولي، ومعناها أيضاً المدن الثلاث، لأن كلمة «تري» معناها ثلاثة، وكلمة «بولي» معناها مدينة.

ومما يدل على أن كلمة تريبولي تشمل الإقليم كله أن الطليان بعد احتلالهم طرابلس سنة 1911، كانوا يسمون كل مدينة باسمها، فيقولون لبتس، وصبراتة، وأويا.

وكانت أويا في منتصف القرن الثالث الميلادي مركزاً دينياً مسيحياً.

وفي العهد الرومي، وقبل عهد دقيانوس كان نظام الحكم في المنطقة الواقعة بين السرتين أن يكون فيها نائب للملك، وحارس على أموال الإمبراطورية.

---

(1) الجرمنتيون: سكان جرما عاصمة فزان إذ ذاك، وما زالت آثارها موجودة (انظر فزان). وقد أطلقت دائرة المعارف الإيطالية على الجرمنتيين كلمة بربر، ولا ندري هل هم من البربر حقيقة، لأن البربر كانوا موجودين في إفريقية إذ ذاك، أو لأنهم كانوا يطلقون كلمة بربر على القبائل الهمجية فأطلقت عليهم لهمجيتهم.

ويلاحظ أن الصلة بين طرابلس وفزان كانت موجودة من قبل الميلاد، وقد تطورت هذه الصلة مع الزمن حتى أصبحت فزان تابعة لطرابلس. واستمرت هذه التبعية زمناً طويلاً قبل العهد التركي، وطول العهد التركي، وأيام الاحتلال الإيطالي. وهذا مما يدحض أكاذيب الفرنسيين من أن فزان تعتبر امتداداً للقطر التونسي فهي تابعة لتونس. وهذا كذب على التاريخ، وإخفاء للحقيقة لإشباع الرغبة الإستعمارية التي أنست المستعمرين كل صفات الإنسانية التي تميزهم عن البهائم ووحوش الصحراء.

وفي القرن الرابع الميلادي أصدر دقيانوس أمره بإعطاء «أويا» طرابلس، لقب ولاية وأصبحت عاصمة المنطقة كلها. ومن ذلك الحين أخذت تزاحم لبدة فيما كان لها من الصدارة، وما كانت تمتاز به من الأهمية التجارية والعمرانية. وقد شجع «أويا» طرابلس، على هذه المزاحمة ما أحاط بلبدة من ظروف التأخر والانحطاط بسبب ثورات بربر لواتة وأنصارهم.

وفي زمن دقيانوس كان لهذه المنطقة حكومة إقليمية مستقلة لها حاكم مدني وحاكم عسكري.

ذكرنا فيما تقدم أن الفينيقيين هم أول من أسس مدينة طرابلس في زمن غير معين، إلا أنهم لم يحيطوها بسور. ولما احتل الروم الشمال الإفريقي، وتولى أسفاروس قيصر (أحد قياصرة الروم) أحاطها بسور من الشرق والغرب والجنوب[1]، . . . وعلى الرغم من أنها إحدى المدن الثلاث التي أطلق عليها الروم كلمة تريبولي فإنها لم يكن لها من أبهة المدن وعظمتها ما كان للبدة، وصبراتة، لا في الاتساع، ولا في ضخامة البناء، ولا في الزخرفة والفن المعماري. وكانت في زمن قرطاجنة مشمولة بنفوذها دائماً، وكل دولة تستولي على قرطاجنة تستولي على طرابلس.

وكانت طرابلس زمن الفتح الإسلامي تابعة لدولة الروم بالقسطنطينية التي كانت تسمى بيزنطية[2]، وكانت ولاية واحدة مع برقة تابعة لمصر.. ويقول بعض المؤرخين إنها كانت تابعة لجرجير حاكم سبيطلة. ولكن مؤرخاً واحداً ممن اطلعت على كتبهم لم يذكر أن جرجير حاول الدفاع عنها من غزو العرب بأي وسيلة، بل ولا عن صبراتة وشروس. وانتهى عمرو بن العاص من فتح منطقة تريبولي كلها، وجرجير قابع في سبيطلة لم يحرك ساكناً وهذا يدل على أنها لم تكن تابعة له، وإنما كانت تابعة لنفوذ مصر كما قدمنا.

(1) أكمله هرثمة بن أعين من الشمال سنة 179هـ.

(2) انقسمت دولة الروم سنة 395م إلى قسمين: غربية وعاصمتها روما، وشرقية وعاصمتها بيزنطة (القسطنطينية).

وفي زمن الفتح الإسلامي كان أكثر سكان المدينة الروم الذين نسميهم الآن الطليان، أما خارج السور إلى فزان فكان يسكنه قبيلة هوارة، وغيرها من قبائل البربر، وتسكن نفوسة الجبل، وتسكن لواتة برقة وسرت مما جعلهم يغيرون على لبدة.

فتح طرابلس

لما انتهى عمرو من فتح برقة سار في طريقه إلى أن وصل طرابلس، ولما وصلها، قال ابن عبد الحكم: نزل على القبة التي على الشرف من شرقيها. ولا شك أن ابن عبد الحكم يقصد قبة الشيخ عبد الله الشعاب المعروفة الآن، لأن الشيخ الشعاب توفي سنة 243هـ. وابن عبد الحكم ألف كتابه في النصف الأول من القرن الثالث، وتوفي سنة 257 بعد وفاة الشيخ الشعاب بأربع عشرة سنة، فمن المعقول أنه روى عمن أخبره بوجود القبة في مكان مرتفع كما هو الواقع، فنقل هذه الرواية الصحيحة كما هو مشهور عنه في دقة النقل.

ولما حاصرها المسلمون امتنع أهلها عن التسليم، وتحصنوا داخل السور.

ويقول صاحب البيان المغرب: إن سكانها استنجدوا بسكان جبل نفوسة، لأنهم اعتنقوا النصرانية تبعاً للروم الذين كانوا يحكمونهم. ولو صح هذا الاستنجاد لوجد العرب مقاومة من قبيلة نفوسة التي جاءت من الجبل لنجدة من بداخل السور، ولكن واحداً من المؤرخين لم يذكر أن العرب وجدوا أي مقاومة خارجة السور، مما يبعث الشك في هذه الرواية. ولعل جماعة من بربر نفوسة كانوا داخل السور وقت حصار المدينة، فاعتبرهم بعض المؤرخين نجدة.

وقد كان سور طرابلس من المناعة بحيث لم يقدر المسلمون أن يتسوروه، كما لم يقدروا أن يقتحموا أبوابه.

وكان السور يحيط بالمدينة من جهة الشرق، والغرب، والجنوب، ولم تكن مسورة من الشمال بينها وبين البحر.

وبقي المسلمون على حصارها نحو شهر لا يقدرون منها على شيء، وكانت رسلهم تغدو وتروح حول السور علَّهم يجدون فجوة توصلهم إلى داخل المدينة فلم يجدوا.. وفي ذات صباح ذهب سبعة من المسلمين للاستكشاف، أو للصيد كما يقول ابن عبد الحكم، وكانوا مسلحين بسيوفهم ورماحهم، وساروا حتى وصلوا إلى جهة السور الغربية الشمالية فوجدوا السور غير متصل بالبحر لأنها لم تكن مسورة من الناحية الشمالية كما ذكرنا، وقد يكون البحر في حالة جزر مما زاد في اتساع الطريق بين نهاية السور والبحر، ورأوا من الممكن الوصول إلى داخل المدينة من هذه الفجوة، فدخلوها من فورهم من ناحية الكنيسة القديمة، وهو مكان مرتفع يقع في الشمال الغربي من المدينة، وقد أعملوا سيوفهم في رقاب الروم، وعلت أصواتهم بالتهليل والتكبير[1]، وسمع عمرو وبقية المسلمين تكبير إخوانهم داخل السور فأسرعوا إليهم، وتكاثر المسلمون، وعلت سيوفهم رقاب الروم فذهلوا وذعروا فلم يسعهم إلا الفرار، وتدافعوا في الطرقات المؤدية إلى السفن التي كانت راسية على شاطىء المدينة ناجين بأنفسهم إلى عرض البحر، واستولى المسلمون على المدينة وغنموا كل ما فيها، وكانت غنائم كثيرة، باعها عمرو وفرق ثمنها على المسلمين.

ولم يبد الروم أي مقاومة لا خارج السور ولا داخله. وقد أصابهم من الخوف والذعر ـ حينما اقتحم العرب عليهم المدينة ـ ما دل على انهيار قواهم وعدم استعدادهم للحرب، وعلى أنهم كانوا في حالة ضعف وانحلال لا تقل عن الحال التي كان عليها أهل برقة، نتيجة لاضطهاد البيزنطيين، وفساد حكمهم وقسوتهم في جباية الأموال حتى أصبحوا في حال فقر مدقع.

وقد استغرب صاحب «فتح العرب للمغرب» كيف يمكن لهذا النفر القليل من المسلمين أن يقتحموا مدينة على أهلها، وقال إنها اشتبهت على من رواها بقصة فتح بابليون في مصر.

---

(1) كان المسلمون إذا اختلطوا بالعدو وقت الحرب هللوا وكبروا: أي قالوا الله أكبر، يقصدون إرهاب العدو بهذه الكلمة المقدسة.

ومن رأيي أن القصة لا غرابة فيها، ولا تستدعي الطعن في راويها. فقد ذكر ابن عبد الحكم أنه «خرج رجل من بني مدلج ذات يوم من عسكر عمرو متصيداً في سبعة نفر»، وذكر قصة لا تخرج عما ذكرنا. وأكثر المؤرخين ذكر القصة بدون لفظ المدلجي. وذكر بعضهم أن المدلجي ومن معه لم يدخلوا المدينة وحدهم بل ندبوا معهم جماعة. وهذا ينفي ما تخيله المؤلف من الغرابة وقد أجمعوا على أن العرب دخلوا المدينة من غير أبوابها ولم يذكروا كيف دخلوها إلا ابن عبد الحكم والذين تابعوه على رواية القصة بذكر المدلجي أو بدونه. والذي يعرف طبيعة الأرض من الناحية التي دخل منها العرب، ومن الناحية التي كان يعسكر فيها جيشهم، وبعد مسافتها على السور لا يستغرب ذلك، فإن الجهة التي دخل منها العرب تؤدي إلى مرتفع من الأرض يقرب من ارتفاع السور إذ ذاك وهو يقع بجوار كنيسة قديمة، وما زال مرتفعاً إلى الآن. والعرب كانوا يعسكرون على مرتفع من الأرض خارج السور يقرب من ارتفاع السور على مسافة منه لا تزيد على كيلومتر تقريباً، يضاف إلى هذا ما استولى على نفوس الروم من الخوف والفزع وما يشعرون به من الضعف وعدم القدرة على المقاومة، فبمجرد أن اقتحم العرب المدينة، وصعدوا إلى المكان المرتفع الذي أشرنا إليه، وعلت أصوات النصر من العرب، وأصوات الخوف من الروم سمعهم من كانوا خارج السور، فأسرعوا إليهم، وطبيعة الأرض إذ ذاك لا تنافي سماع الصوت وقد لا تنافي الرؤية أيضاً. ولو اطلع صاحب «فتح العرب للمغرب» على طبيعة الأرض لما وجد في الأمر غرابة، ولعلم أن هناك فرقاً كبيراً بين سور طرابلس إذ ذاك وحصن بابليون، وبين قوة الأقباط في مصر وقوة الروم في طرابلس. ولعل هذه الغرابة سرت إليه من تشككات المستشرقين فإنه كثيراً ما يروي عنهم في كتابه هذا.

ولما تم استيلاء العرب على المدينة أمّنوا من بقي فيها، وكفلوا لهم أموالهم ومنعوا التعدي على أعراضهم ومعابدهم وأنفسهم.

ولم يذكر أحد من المؤرخين أن الروم قاوموا العرب بالسيف حينما

اقتحموا عليهم المدينة، مما يدل على أنهم كانوا في حكم المستسلمين. ويقال إن المسلمين بنوا فيها مسجداً، وأن مسجد أحمد باشا بني على أنقاضه.

وقبل أن يغادرها المسلمون هدموا سورها، لأنهم يخافون من انتفاض الروم عليهم وتحصنهم بالسور، خصوصاً وأن المسلمين كانوا قليلين بالنسبة للروم وأنصارهم، وكان العرب حديثي عهد بالبلاد، وكانت عاصمة المسلمين التي يأتيهم منها المدد بعيدة وهي إذ ذاك المدينة المنورة.

وكل هذه مبررات لتخريب الحصون وهدم الأسوار.. وتم فتح طرابلس سنة 22هـ.

صبراتة[1]

مدينة قديمة، تقع غربي مدينة طرابلس بنحو 67 كم على ساحل البحر الأبيض المتوسط.. أنشأها الفينيقيون حوالي سنة 900 أو 800ق.م. وهي من أعظم المدن التي كانت في الشمال الإفريقي. وكانت أكبر من طرابلس، وأعظم منها عمراناً ومدنية، وأروج تجارة. وكانت مركزاً من أهم المراكز التجارية الفينيقية في إفريقية لسهولة مينائها، وارتباطها بالدواخل بواسطة الطرق التجارية، وكانت تحت نفوذ قرطاجنة.

وقد اتخذت لها موقفاً ودّياً مع الروم في حروبهم مع القرطاجنيين. وكانت هي وأويا ولبدة إقليماً واحداً هو إقليم طرابلس الآن، وفي ذلك العهد كان يطلق عليه كلمة تريبولي، إلا أنها كانت تتمتع بنوع من الاستقلال الداخلي.

وفي بداية القرن الثاني الميلادي تحسن مركزها السياسي، وأصبح لها حق سك النقود، ونالت قسطاً كبيراً من الازدهار والتقدم. ولم يدم هذا الازدهار طويلاً.

وفي القرن الثالث الميلادي أدركتها الشيخوخة ودخلت في دور الانحطاط، وفي القرن الرابع كثرت فيها الثورات الداخلية، وامتدت أيدي الثوار إلى السلب والنهب، وصارت بحالة من الضعف لفتت إليها أنظار الوندال فاحتلوها حوالي منتصف القرن الخامس م فدمروها. ثم احتلها

---

(1) ملخص مما ترجمه لنا ابننا الأستاذ أحمد الطيب البشتي من دائرة المعارف الإيطالية وكان العرب يسمونها صبرة. قال في الروض المعطار: صبرة مدينة بناحية طرابلس إفريقية.

البيزنطيون في القرن السادس الميلادي. وفي حوالي النصف منه أمكنهم أن يعيدوا إليها شيئاً من الرخاء والطمأنينة، وأعادوا بناء أسوارها ولكن على محيط أصغر وأصلحوا كثيراً مما أفسده الوندال، وأضافوا إليها من فن العمارة الشيء الكثير. وقد كشف الطليان عن بعض آثارها بعد أن احتلوا طرابلس سنة 1911، فظهر فيها من آثار الفن وأُبهة المدنية ما يبهر العقول.

وقد زرتها في نوفمبر سنة 1950 وشاهدت ما كشف الحفر عنه من تماثيل آدمية[1] وحيوانية ما زالت في غاية الإبداع والإتقان. ووجدت فيها مقادير كبيرة من الفسيفساء ما زالت محتفظة بنضارتها وألوانها الزاهية، كما كشف الحفر فيها عن ملهى ما زال محتفظاً بمدرجاته ومسرحه، وغرفه المطلة عليه، وفيه كثير من الأجزاء لا تحتاج إلى إصلاح.

وقد بنى الطليان مكاناً في وسط آثار المدينة التي ما تزال قائمة في كل مكان منها، ووضعوا فيه ما عثروا عليه من صور وتماثيل آدمية وحيوانية، وكل ما كان صالحاً للبقاء. ووضعوا فيه ما عثروا عليه من فسيفساء، ونسقوها تنسيقاً فنّياً رائعاً غاية في الجمال والروعة. وإنك لتجد تمثال الإنسان منحوتاً من الرخام ما زال محتفظاً بجميع أجزائه حتى بتجعد شعره وطوايا ملابسه، وحتى بمميزات الذكورة والأنوثة.

(1) توجد مثل هذه التماثيل في كرزة ـ مكان في بادية أولاد أبي سيف ومن أملاكهم ـ ما زالت متماسكة الأجزاء ومحتفظة بمميزاتها. وتسميها العامة المساخيط ويعللون ذلك بأنهم كانوا يعصون الله كثيراً فسخطهم، يعني بدل صورهم من آدمية إلى حجرية.. وكان البربر قبل الفتح الإسلامي يسكنون هذه الجهة. وبها صنم كانوا يقربون له القرابين ويتبركون به في أموالهم، ويستشفون به من أمراضهم. انظر كتاب (المغرب).

فتح صبراتة

لا شك أن أخبار حصار العرب لطرابلس وصلت إلى صبراتة، وليس من المعقول أن يبقى العرب محاصرين لطرابلس نحو شهر، ولا تصل أخبارهم إليها، خصوصاً لما بينها وبين طرابلس من الروابط.. ويظهر أنه لما طال حصار العرب لطرابلس ظن أهل صبراتة أنهم لا يقدرون على فتحها، فاستكانوا لهذا الظن وأمنوا. وإذا عجز العرب عن فتح طرابلس - في ظنهم - فهم عاجزون عن فتح صبراتة من باب أولى، لأن سورها أقوى من سور طرابلس وسكانها أكثر من سكان طرابلس، فلم يهتموا لأمر العرب كثيراً، ولم يعملوا على وقاية مدينتهم من إغارة المسلمين. وبغير هذا التخمين لا يمكن أن يفسر كيف أُخذوا على غرة، وقد علموا بوصول العرب إلى طرابلس وحصارهم لها. وقد نقل ابن غلبون ما يؤيد هذا الرأي.

ولما انتهى عمرو من فتح طرابلس أمر الخيل بالإسراع بالمسير إلى صبراتة لفتحها، وبقي هو في طرابلس للإشراف على أمورها وأسرعت الخيل في المسير برياسة عبد الله بن الزبير فصبحوها من ليلتهم على غرة. فوجدوا أبواب السور مفتوحة، وأهلها مشغولين بإخراج الحيوانات للمرعى، فاقتحموها عليهم بالقوة، وأوقعوا فيهم القتل حتى استسلموا ولم يهرب منهم أحد كما وقع في طرابلس. ويقول التجاني: ولم ينج منها إلا من ركب البحر إلى صقلية، وقد هُدم سورها خوفاً من تحصن الروم به مرة ثانية، واستولى المسلمون عليها، وغنموا كل ما فيها، وكان شيئاً كثيراً، وأرسلوا إلى عمرو بن العاص في طرابلس يخبرونه بما فتح الله عليهم وبالنصر الجديد الذي أحرزوه على الروم، فحضر إلى صبراتة. وبعد أن تم استيلاؤهم عليها رتبوا من أُمورها ما أمكنهم ترتيبه. وقد خربوا سورها

للأسباب التي ذكرناها آنفاً. ثم ارتحلوا عنها قاصدين مدينة شروس بجبل نفوسة.

ولم يتأثر مركزها التجاري بالفتح العربي، فبقيت محتفظة به. وكانت تسمى بالسوق القديم إلى أن نقل عبد الرحمن بن حبيب السوق منها إلى طرابلس سنة 131هـ.

زوّاغة

تقع مدينة زوَّاغة غربي صبراتة بنحو عشرة ك م، وهي مدينة بربرية كانت تسكنها قبيلة زوَّاغة البربرية. وهي غير موجودة الآن وليس فيها من الآثار ما يلفت النظر، وما زالت تُعرف إلى الآن بهذا الاسم. ولم يأت ذكر المدينة زواغة في الفتح الإسلامي لأنها كانت تابعة لمدينة صبراتة. ويظهر أن سكانها استسلموا حينما رأوا ما حل بصبراتة.

جبل نفوسة

هو سلسلة جبال صخرية تمتد من الغرب إلى الشرق، وهو جزء من سلسلة جبال أطلس التي تبتدىء من بحر الظلمات، وتمر بمراكش، والجزائر وتونس، وطرابلس، وتنتهي إلى جبال قُماطة، وهي الهضاب التي تسمى «النقَّازة» غربي مدينة الخمس بقليل. وكان جبل نفوسة، وما زال إلى الآن، موطن البربر، ومحل إقامتهم الدائمة، وممتلكاتهم الخاصة.

وبعد أن استقر العرب في إفريقية شاركوا البربر في سكناه وأنشأوا فيه كثيراً من القرى الخاصة بهم. وتجد في سفوحه الشمالية والجنوبية كثيراً من الأراضي الخصبة والمراعي الفسيحة.

وفيه عيون جارية: عين الترك في غريان. وعين الرومية في يفرن. وعين الريايغة، وعين الرابطة. والعين الزرقاء. وعين أم القرب «ننّاتالة» وهي تختلف في اندفاع الماء منها قوة وضعفاً. وأكثرها نفعاً للزراعة عين الرابطة،

وعين الرومية في يفرن. وسمي جبل نفوسة باسم قبيلة نفوسة البربرية التي كانت وما زالت تسكنه، وهي من أكبر قبائل البربر. ونفوسة بفتح أوله وضم الفاء مخففة.

مدينة شروس

ويقال لها سروس - بمهملتين - وهي من أكبر عواصم البربر القديمة في جبل نفوسة التي كانت موجودة زمن الفتح. وما زالت خرائبها إلى اليوم. وكانت إحدى عاصمتي الجبل. وكانت تحتوي على نحو 300 قرية. والعاصمة الأُخرى هي جادو على ما نقله الحموي وغيره.

ولما انتهى العرب من فتح صبراتة ساروا إلى شروس لفتحها. وما زالوا بها حتى فتحوها، وكان أهلها نصارى. ولا ندري هل فتحت صلحاً أو عنوة لأننا لم نر أحداً ذكر ذلك، ولم يشأ عمرو أن يتقدم إلى الغرب لقلة القوة التي معه، ولأنه يعلم أن مدناً كثيرة للروم والبربر ما زالت أمامه، وأيضاً فإن عيونه أخبرته بكثرة تجمعات الروم والبربر في تلك المدن، من أجل ذلك، وتنفيذاً لما تقتضيه الخطط الحربية، أراد أن يستأذن الخليفة عمر ابن الخطاب في التقدم، حتى إذا أذن له اتخذ من هذا الإذن وسيلة لطلب المدد، فكتب إليه قبل أن يغادر شروس - وكان عمر في المدينة المنورة - يستأذنه في فتح إفريقية بعد أن فتح عليه طرابلس وهذا نص كتابه:

«إن الله قد فتح علينا أطرابلس، وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل».

فلم يوافقه الخليفة على تقدم المسلمين في إفريقية. وردَّ عليه بكتاب هذا نصه:

«لا، إنها ليست بإفريقية، ولكنها المفرقة، غادرة مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيت».

ولما كان عمرو في مصر اتفق مع المقوقس أن يخبره بكل ما يحدث

بعده في مصر. وبعد أن انتهى عمرو من فتح شروس وقبل أن يرتحل عنها أتاه كتاب من المقوقس يخبره فيه بأن الروم يريدون نكث العهد، ونقض ما كان بينهم وبينه، فعاد عمرو إلى مصر قبل مقتل عمر بن الخطاب الذي كان في 27 من ذي الحجة سنة 23، وترك عقبة في زويلة. ويقول صاحب فتح العرب للمغرب: إن عمراً ترك عقبة في برقة.. وهذا يعين أن عقبة أتم فتح زويلة في سنة 23 ووصل إلى برقة قبل مقتل عمر بن الخطاب.

ويظهر أن عمراً رجع هو وكل من معه من العرب، لأنه لم يذكر أحد أن عمراً ترك من ينوب عنه في طرابلس، أو في صبراتة، أو في شروس، كما لم يذكر أحد أن عقبة ترك من ينوب عنه من العرب في زويلة.

ويفهم من كتاب عمرو بن العاص أنه أول من سمى أطرابلس بهذا الاسم، لأنه كتب كتابه على أثر الفتح وقبل أن يغادر شروس.

حدود طرابلس

تقدم أن تريبوليتانوس التي اختصرت مع مرور الزمن وكثرة الاستعمال إلى تريبولي، كانت تطلق على المنطقة التي تقع بين خليج سرت وخليج قابس.. أما بعد الفتح الإسلامي، وبعد أن عرَّب العرب كلمة تريبولي إلى أطرابلس، فكانت حدودها تمتد إلى ما وراء صفاقس غرباً كما حصل أيام طورغود باشا، وإلى ما وراء سرت شرقاً كما حصل في زمن الفاطميين وغيرهم، وتارة تنقص عن هذا، وذلك تبع قوة النفوذ السياسي وضعفه.

وفي العهد التركي، وحينما أدركت الشيخوخة دولة آل عثمان امتدت أيدي المستعمرين إلى ممتلكاتها، فما لم يمكنهم الاستيلاء عليه اقتطعوا أطرافه وانتقصوا حدوده.

ولما احتل الفرنسيس تونس سنة 1881 توسعوا في حدودها الشرقية على حساب الأراضي الطرابلسية، وحصل أخذ وردّ بين الدولتين كاد ينقلب إلى نزاع.

وقد اتفق الترك والفرنساويون سنة 1910 على إقامة الحدود في مكان غربي قصر بوكماش بنحو 11 كم يقال له الغدير، وما زال معروفاً بهذا الاسم. ونقله بعض الكتاب العرب عن اللغات الإفرنجية بلفظ أغادير، وهو غلط، ونصبت هناك أعمدة من البناء عند خط الطول 11°، ثم يصعد في الجنوب مارًّا بوسط ذهيبة غربي نالوت، ومنها إلى غربي غدامس، ثم ينحرف إلى الغرب جنوبي الحدود التونسية إلى حدود الجزائر الشرقية ثم يستقيم في الجنوب مارًّا غربي غات حتى ينتهي إلى حدود السودان في خط العرض 23° وهو حد ليبيا الجنوبية، وتعتبر هذه الحدود حدوداً لليبيا كلها. أما حد ليبيا الشرقي فهو الحد الذي نص عليه اتفاق 6 ديسمبر سنة 1925 بين مصر وإيطاليا، وهو يبتدىء من بئر الرملة بقرب السلوم مارًّا في اتجاهه إلى الجنوب، شرقي واحة الجغبوب بنحو 30 كم إلى ملتقى الخط الخامس والعشرين من خطوط الطول بخط العرض التاسع والعشرين.

ويبلغ مجموع مساحة ليبيا كلها نحو مليون و640 كم مربعاً ويبلغ طول ساحلها نحو 1800 كم. وتنتهي حدود طرابلس شرقاً إلى العقيلة بقرب عين الكبريت.. وقد بنى الطليان هناك قوساً[1] يعتبر الحد الفاصل بين برقة

(1) حصل نزاع فيما بين سنة 313، و310ق.م بين اليونانيين في برقة، والقرطاجنيين غربي خليج سرت على الحد الفاصل بين الأراضي اليونانية والأراضي القرطاجنية، ثم اتفقوا على أن يعين كل من الطرفين عدائين من جانبه، يقوم اليونانيون من مدينة قورين (قرنة) متجهين إلى الغرب، ويقوم القرطاجنيون من مدينة قرطاجنة متجهين إلى الشرق وحيث يلتقي الفريقان تقام الحدود، وقد التقوا في مكان القوس الذي بناه الطليان حدًّا فاصلاً بين برقة وطرابلس.

وقد اتهم اليونانيون القرطاجنيين بأنهم قاموا بالعدو قبل الموعد المتفق عليه، واشترطوا لرضاهم بإقامة الحد حيث التقوا أن يدفن القرطاجنيون أنفسهم أحياء في مكان الالتقاء، أو يتركوا يعدون إلى المكان الذي يريدونه ويدفنون أنفسهم فيه أحياء ويكون الحد الفاصل، فرضي القرطاجنيون أن يدفنوا أنفسهم أحياء حيث التقوا باليونانيين ويكون الحد الفاصل، فدفنوا أنفسهم أحياء في المنطقة التي أقيم فيها القوس الآن، واعتبر هذا العمل منهم تضحية كبرى في سبيل إعزاز الوطن وتوسيع حدوده

وطرابلس، وقد تم بناء هذا القوس في أوائل سنة 1929، ويبلغ ارتفاعه 33 متراً ويمر الحد في مسامتة العقيلة جنوباً إلى حدود السودان في خط العرض 23°، وهو حد ليبيا الجنوبي... ومن الشمال البحر الأبيض المتوسط.

وهذا التحديد أقره الطليان بمقتضى الأمر الملكي الصادر في 12 يناير سنة 1913، وفي هذا التاريخ كانت طرابلس بحدودها المذكورة تحت إدارة واحدة. وفي أبريل سنة 1937 قسمها الطليان إلى ثلاث مديريات: طرابلس، ومصراتة، وهون، وتعتبر هون مركز المنطقة الجنوبية، وتسمى المنطقة العسكرية؛ وتشمل غات، وفزان، وغدامس، وما يسامت غدامس شرقاً إلى حدود الجفرة الشرقية (كان هذا التقسيم أيام الحكم الإيطالي).

ولما فتحها العرب عربوا كلمة تريبولي إلى أطرابلس، وهو تعريب قريب من الأصل، مع تحريف بسيط، لأن كلمة تريبولي في اللغة الإيطالية القديمة كان يلحق بها السين في آخرها.

وأول مصدر عربي ذكرت فيه كلمة «أطرابلس» هو جواب عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب الذي ذكرناه آنفاً. ولكثرة الاستعمال تركت الهمزة وصار ينطق بها طرابلس بضم الباء واللام، أو بضم الباء وسكون اللام.

وقد غلب إطلاق كلمة طرابلس منذ أوائل عهد العرب بإفريقية على المدينة المعروفة الآن، وذلك بسبب ما أصاب لبدة من خراب قبل الفتح الإسلامي شمل جميع أجزائها، وبما أصيبت به صبراتة أيضاً من انحطاط وتأخر آل إلى خراب شامل أيام حكم الكاهنة البربرية... وقد يطلق لفظ طرابلس ويراد به الإقليم كله إذا دلت القرينة على ذلك.

ودان

مدينة قديمة من مدن البربر الجنوبية. ويتبعها زلة، وهون، وسوكنة وما جاورها. ويطلق على الكل بلاد ودان. وكانت ودان زمن الفتح الإسلامي هي العاصمة. وكان عليها سور، وقد تهدم ولم يبق منه الآن إلا آثاره. وقد امتد عمرانها خارج السور.

وتقع ودان وهون[1] وسوكنة على خط طوله نحو ستين كيلومتراً يبتدىء من الشرق بودان، وينتهي من الغرب إلى سوكنة مع انحراف سوكنة إلى الجنوب قليلاً. . وتقع زلة في الجنوب الشرقي من ودان بنحو 160 ك م. . وتقع ودان في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس بنحو 769 ك م، وإلى جنوبي سرت بنحو 280 ك م.

فتح ودان

ولما كان عمرو بن العاص محاصراً مدينة طرابلس بعث إليها جيشاً بقيادة بُسر بن أبي أرطاة[2]، ففتحها سنة 23هـ، وفرض على أهلها غرامة قدرها 360 رأساً من الرقيق. وبعد أن غادرهم بسر ارتدوا وبقوا على ردتهم

(1) هون. يظهر لي أنها سميت بهذا الاسم لوجود بني الهون فيها. وبنو الهون قبيلة عربية تنتسب إلى الهون بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. ولا شك أن قبائل وأفخاذاً كثيرة من العرب دخلت إفريقية فلا يبعد أن يكون بنو الهون وجدوا في هذه الناحية فسميت باسمهم.

(2) وقيل: بسر العامري. واسم أبي أرطاة عمير وكان بشر من المتحمسين لنصرة معاوية. حضر معركة صفين في عسكر الشام ضد علي بن أبي طالب. وحضر فتوح الشام. وقاد الجيوش في البر والبحر واشترك في فتح إفريقية. . وكان شجاعاً. وفيه كثير من قسوة البداوة. وقاد الحملة التي انتهت بتنازل الحسن بن علي عن الخلافة، وكوفىء عليها من معاوية بولاية البصرة. وقد أوقع بآل بيت النبوة كثيراً من القتل والتشريد قال صاحب مروج الذهب: حتى خدَّ لهم الأخاديد. وقتل ولدي عبيد الله بن عباس وهما صغيران على يدي أمهما، ففقدت عقلها، وهامت على وجهها، وقد دعا عليه علي بأن يطيل الله عمره ويذهب عقله. فكان كذلك. ولم تصح له صحبة.

إلى أن فتحهم عقبة بن نافع سنة 49هـ.

يؤخذ مما تقدم أن البلاد الطرابلسية التي تم فتحها بقيادة عمرو بن العاص هي بلاد الساحل من برقة إلى صبراتة، ومن بلاد الجنوب شروس، وزويلة، وودان، وهون، وسوكنة. واستغرقت أعمال الفتح فيها من سنة 21 إلى سنة 23هـ. وكل هذه البلاد فتحت عنوة (بالحرب) إلا برقة وزويلة فإنهما فتحتا صلحاً.

الفتح الثاني

انتهى الدور الأول من فتح طرابلس. وبعد رجوع عمرو إلى مصر بقليل توفي عمر بن الخطاب يوم 27 من ذي الحجة سنة 23، وأُسندت الخلافة بعده إلى عثمان غرة المحرم سنة 24 الموافق 7 من نوفمبر سنة 644م.

وكان حادث قتل عمر سبباً في شغل المسلمين بعض الوقت. ولم يطل الأمر بسكان طرابلس حتى نقضوا ما عاهدوا عليه عمراً، وارتد عن الإسلام من كان أسلم منهم، وانقطعت صلة العرب بطرابلس نحو خمس سنوات وتنوسيت أعمالهم فيها، وأصبحت وكأن لم يدخلوها فاتحين.

وفي سنة 25 ولى عثمان على مصر عبد الله بن أبي سرح - أخاه من الرضاع - وقد كان وجوده في مصر مدعاة للتفكير في شأن أفريقية فأخذ يرسل إليها خيله غازية مستطلعة ليقف على ما فيها من قوة، وعلى ما تركه فتح العرب في نفوس أهلها من أثر. فكانت هذه البعوث الغازية تغدو وتروح محملة بالغنائم من غير أن تلقى مقاومة تذكر. وكانت هذه البعوث من الكثرة بحيث عبر عنها بعض المؤرخين بكلمة (جيش) وذكر فيها عقبة بن نافع، وأنها كانت سنة 25. ومن المرجح أن يكون فيها عقبة. لأنه بقي في برقة حينما رجع عمرو إلى مصر، ولأنه تقدمت له خبرة ببرقة وبعض الجهات الجنوبية من طرابلس، فكانت هذه البعوث لا تستغني عن خبرته، خصوصاً وهو في طريقها جيئةً وذهاباً. وأنه ليخيل لقارىء أخبار هذه البعوث أنها غزوات مستقلة، وما هي إلا للاستطلاع والاختبار. وكانت تأتي بأخبار مطمئنة، ومشجعة على التفكير في الاستعداد للفتح ثانية.. وقد أرسل ابن

أبي سرح بأخبار هذه البعوث إلى عثمان بالمدينة مشفوعة برغبته في الإذن له بفتح إفريقية. فانشرحت نفس عثمان للأمر، ولكنه أبى أن يعتزمه إلا بعد استشارة كبار الصحابة، فاستشار علياً، وطلحة، والزبير، والعباس، فأشاروا كلهم بغزوها. فاعتزم عثمان الأمر، وكتب إلى عبد الله بن أبي سرح بالموافقة. وتسامع الناس بما اعتزمه خليفة المسلمين فتوافدوا على المدينة من كل صوب، واشترك في هذه الغزوة أكثر قبائل العرب الضاربة حول المدينة، وانضم إليها جمع غفير من الصحابة وأبنائهم. فخرج عبد الله بن الزبير في جماعة من بني أسد بن عبد العزى. ومروان بن الحكم في جماعة من بني أمية. والمسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن الأسود في جماعة من بني زهرة. وعبد الرحمن بن أبي بكر في جماعة من قومه بني تيم[1] وعبد الله بن عمر بن الخطاب وأخوه عاصم، وعبد الرحمن بن زيد بن الخطاب في جماعة من قومهم بني عدي. وعبد الله بن عمرو بن العاص في جماعة من قومه بني سهم. والسائب بن عامر، وبسر بن أبي أرطاة في جماعة من قومهما بني عامر. . وخرج من جهينة ستمائة، ومِنْ أسلم ثلاثمائة ومن مزينة ثمانمائة. ومن بني سليم أربعمائة وخمسون. . ومن بني الديل وضمرة، وغفار، وعبد مناف خمسمائة. وخرج من غطفان وفزارة، ومُرّ سبعمائة. اهـ من طبقات علماء إفريقية.

ويقول النويري: «إن عثمان أعان الجيش بألف بعير من ماله، وحمل على خيل، وفرق السلاح، وأمر للناس بأعطياتهم، وكان ذلك في المحرم سنة 27. وخطب في الناس، ورغبهم في الجهاد، وقال لهم: لقد استعملت عليكم الحارث بن الحكم إلى أن تقدموا على عبد الله بن سعد فيكون الأمر إليه وأستودعتكم الله[2]».

(1) تيم بن مرة بن كعب بن لؤي، جد جاهلي من قريش، من نسله أبو بكر الصديق، وطلحة الصحابيان رضي الله عنهما (سبائك الذهب).

(2) فتح العرب للمغرب.

ووصل جيش المدينة إلى مصر، وانضم إليه من كانوا في انتظاره ممن جمعهم عبد الله بن أبي سرح، واجتمع من هؤلاء وأولئك جيش لا يقل عن عشرين ألف مقاتل. وبعد أن استكمل الجيش عدته سار إلى إفريقية بقيادة عبد الله بن أبي سرح. وهذه الغزوة تسمى غزوة العبادلة.

غزوة العبادلة

تسمى هذه الغزوة غزوة العبادلة، ويسمى الجيش جيش العبادلة، لأنه اجتمع فيه سبعة من كبار الصحابة كل منهم اسمه عبد الله، وهم:

عبد الله بن عباس[1]، وعبد الله بن أبي سرح[2]. وعبد الله بن جعفر[3]، وعبد الله بن عمر بن الخطاب[4]. وعبد الله بن عمرو بن العاص. وعبد الله بن الزبير[5]. وعبد الله بن مسعود. ولما وصلوا برقة وجدوا فيها

(1) كنيته أبو الفضل، وهو ابن عم النبي ﷺ. ولد بالشعب قبل الهجرة، وتوفي النبي وهو ابن 15 سنة. ودعا له فقال: «اللهم علمه الكتاب والحكمة» فكان أعلم الناس بمعاني القرآن وناسخه ومنسوخه.

(2) عبد الله بن سعد بن أبي سرح، أبو يحيى القرشي العامري، أرضعت أمه عثمان بن عفان فهو أخوه من الرضاع، له صحبة وكان يكتب الوحي للنبي ﷺ، وكان يغير فيما يمليه عليه النبي، فأهدر دمه، فخرج هارباً من المدينة إلى مكة مرتداً عن الإسلام، فاستأمن له عثمان يوم الفتح، وقبل النبي إسلامه. وكان يفر من مقابلة النبي حياء منه، فشكا ذلك عثمان إلى النبي ﷺ فقال له: «الإسلام يجبُّ ما كان قبله» فكان بعد ذلك يجلس مع رسول الله ﷺ ويسلم عليه. ولاه عثمان مصر سنة 25 فشكاه أهلها وأخرجوه منها. وولاه عثمان على إفريقية وفتحها سنة 27. ولم يبايع لعلي ولا لمعاوية. . وكان دعا الله أن يميته وهو في الصلاة فصلى الصبح وسلم على يمينه، وفاضت روحه قبل أن يسلم على شماله. وكانت وفاته بعسقلان سنة 36. وقيل سنة 37هـ ودفن بها في مقابر قريش.

(3) كنيته أبو عبد الرحمن، أسلم بإسلام أبيه، وشهد بدراً وأحداً، وكان عمره يوم بدر 12 سنة. غزا إفريقية مرتين: الأولى مع عبد الله بن أبي سرح، والثانية مع معاوية بن حديج. وكانت معه في إفريقية أم ولد توفيت بإفريقية، وكان له منها أولاد.

(4) كنيته أبو محمد، ولد قبل الهجرة بسبع سنين، وبينه وبين أبيه في العمر 13 سنة. شهد فتح إفريقية مع ابن أبي سرح سنة 27 وتوفي سنة 65 عن 72 سنة.

(5) ولد بعد الهجرة بعشرين شهراً، وهو أول مولود ولد في الإسلام بالمدينة. وهو أول من كسا الكعبة الديباج. وهو الذي قتل جرجير. قتله الحجاج بن يوسف وصلبه بمكة في 18 من ج. خ سنة 73.

عقبة بن نافع، فانضم إليهم هو ومن معه من المسلمين.

وتوجه الجيش إلى إفريقية، وكان - وهو في طريقه - يرسل الطلائع في كل وجه، فكانت تأتي بالبقر والشاء وعلف الدواب. ولما وصلوا إلى طرابلس مرت إحدى طلائع المسلمين بها، فرأوْا مراكب راسية على الساحل خارج السور فشدوا عليها، فأسروا أهلها - وكانوا مائة - وغنموا ما في المراكب، وكان ذلك على مرأى من أهل المدينة، فلم يتعرضوا لهم، قال في رياض النفوس: «وتحصن أهل طرابلس ولم يتعرضوا لنا ولم نهجمهم، وأخذنا ما في السفن فكانت هذه أول غنيمة أصيبت»، ولما لحق بهم عبد الله بن أبي سرح سلموا له الأسرى فقتلهم. لأنهم نقضوا عهد عمرو بن العاص، وارتد من كان أسلم منهم.

وكانت طرابلس إذ ذاك تابعة لجرجير[1] حاكم سبيطلة. واكتفى ابن أبي سرح من طرابلس بهذه الغنيمة، ولم يفتحها، واستمر في طريقه إلى سبيطلة. هكذا يقول صاحب فتح العرب للمغرب، وهو يوافق ما جاء في رياض النفوس. وذكر غيرهما أنه فتحها. وهذه الرواية معقولة لأنه يبعد أن يتركها شوكة في ظهره، وهو يعلم أنها نقضت عهدها وارتد من أسلم من أهلها، وقد يستغلها الروم لمهاجمته من الخلف.

تقدم المسلمون من طرابلس إلى إفريقية، وكانت عاصمتها إذ ذاك قرطاجنة ونزلوا بقرب السبخة المجاورة لمكان مدينة القيروان الآن، وتوجه تفكيرهم إلى فتح سبيطلة، وهي العاصمة الثانية بعد قرطاجنة، وكان جرجير يقيم بها. . . وجرجير هذا بَطْريق معين من قبل ملك الروم هرقل الذي كان يقيم في القسطنطينية عاصمة ملكه إذ ذاك، وكانت تسمى بيزنطية. وكان نفوذ جرجير[2] يمتد من طرابلس إلى طنجة بالنيابة عن هرقل. . ويقال إن جرجير

---

(1) تقدم أنها هي وبرقة كانتا تابعتين لمصر. ولعل أهل طرابلس بعد أن غادرهم عمرو أيقنوا أن صلتهم بمصر غير ممكنة، وغير مجدية، فسعوا في تحسين علاقتهم بحاكم سبيطلة وانضموا إلى حكمه.

(2) اسمه الأصلي غريغور، وحرفه العرب إلى جرجير.

خلع طاعة هرقل، وضرب العملة باسمه، وادعى الملك في إفريقية لنفسه، وكان هذا بتحريض من البابا مارتن الذي قبض عليه قسطنطين فيما بعد وأنزل به عقاباً شديداً.

لم يتقدم جرجير بطلب الصلح من العرب، فلم يكن للعرب بد من اتخاذ مثل هذه الترتيبات والاستعداد للقاء الروم في أي وقت. فما لبث الفريقان غير قليل حتى نشبت المعركة بينهما، وتوالت المعارك فكانت طاحنة، وأبلى العرب فيها بلاء مكَّنهم من إحراز النصر، ورجحت كفة المعركة إلى جانبهم، وظهر الضعف في صفوف جرجير، فرأى من الخير له أن يجنح إلى الصلح بعد أن رأى بوادر الهزيمة، وتقدم إلى ابن أبي سرح بطلب الصلح على مال يؤدونه له ويرتحل العرب عن بلادهم، فاتفقوا على أن يدفع الروم ألفي ألف وخمسمائة ألف دينار للعرب، فدفعوها لهم، وارتحل العرب عن إفريقية.

وكان طلب جرجير للصلح فرصة انتهزها ابن أبي سرح خوفاً من أن يتكاثر عليه الروم والبربر، وهو في قلة من المسلمين، وقد تأثر جيشه من تلك المعارك الطاحنة التي ما كانت القوة فيها متكافئة، ولكن قوة إيمان العرب، وتفانيهم في نشر الدعوة الإسلامية هو الذي كان دائماً سبباً في إحرازهم النصر في مثل هذه المعارك وأشد منها. ولم يخف على ابن أبي سرح بعد مركز المسلمين الذي يأتيهم منه المدد، فلو رفض الصلح - وهو في تلك القلة - لما أمن أن يجمع الروم والبربر جموعهم، فينقضوا عليهم، وإذ ذاك قد لا يفوز العرب بالنصر. فقبول ابن أبي سرح الصلح كان تطبيقاً لسياسة حكيمة أملتها الظروف، واقتضاها قول الله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

أسرع ابن أبي سرح - بعد عقد الصلح مع الروم - بالرجوع إلى مصر سنة 28[1] بعد أن مكثوا في إفريقية سنة وثلاثة أشهر، ولم يستخلف بها أحداً

(1) وفي خلاصة تاريخ تونس سنة 29.

ولم يُبْقِ بها معسكراً.

ولا شك أن هذه الغزوة كانت أقوى أثراً وأبعد مدى من غزوة عمرو التي سبقتها، بما امتازت به من التوغل في الأراضي الإفريقية التي أكسب العرب علماً بحالة السكان الاجتماعية، ومن الصدام العنيف الذي كانت نتيجته معرفة قوة الروم المادية وروحهم المعنوية، ومعرفة الروابط بين الروم والبربر، ومكنتهم من دراسة إفريقية عن كثب فكانت بمثابة مقدمة لما تلاها من غزو وفتح.

الفتح الثالث

عبد الله بن أبي سرح[1]

رجع ابن أبي سرح ومن معه من العرب إلى الشرق، وتركوا إفريقية على ما صالحهم عليه جرجير، وعلى ما أخذوه عليه من عهود. ولكن جرجير لم يلبث أن نقض العهد وخان المواثيق. وقد وصلت أخباره إلى المسلمين في الشرق فأخذوا يفكرون في فتح إفريقية مرة ثالثة.

وفي سنة 29 أرسل إليها عثمان جيشاً بقيادة عبد الله بن أبي سرح. ولم تكد أخبارهم تصل إلى جرجير حتى أخذ يستعد للقائهم، فجمع جموعاً كثيرة من الروم والبربر قرابة مائة وعشرين ألفاً.

ووصل المسلمون إلى إفريقية[2] فوجدوا جرجير على استعداد للقائهم

---

(1) اختلفت كتب التاريخ في تعيين هذه الغزوة بين سنوات 26، 27، 29 أما تاريخ 26 فلا يصح لأن أول غزوات ابن أبي سرح كانت سنة 27 فكيف تقع الثانية في 26. أما تاريخ 27 فهو الذي جعل بعض الكتّاب يقول باتحاد الغزوتين. ولكن حينما يمعن القارىء النظر في تفاصيلهما لا يسعه إلا أن يحكم بتعددهما لأنه بينما نرى أن الغزوة الأولى انتهت إلى صلح عقده جرجير نفسه مع العرب، إذا بنا نرى أن الغزوة الثانية كانت فيها معارك طاحنة، وذكرت فيها قصة بنت جرجير، وقتل فيها جرجير، وانتهت بصلح مع أعيان البلاد بعد قتل جرجير. إذاً فلا بد من اختيار التاريخ الثالث الذي اختاره ابن خلدون وهو سنة 29 وقد ثبت أن ابن أبي سرح حارب في إفريقية أكثر من مرة، مما يؤيد أن سبب اختلاف تواريخ الغزوات هو تعددها.. والقول بتعدد الغزوتين هو الذي يتفق مع ما اشتملنا عليه من تفصيل. وتباين الروايات يدل على تعددها. والقول بأن تعدد التواريخ شك من الرواة في الواقعة الواحدة لا دليل عليه.

(2) لم نر من المؤرخين من تعرض لأخبار طرابلس في هذه الغزوة، ويظهر أنها بقيت على عهدها في الغزوة الأولى، فلم تتعرض لهجوم العرب في هذه الغزوة.

في سبيطلة وهي مدينة مسورة تبعد عن القيروان سبعين ميلاً.

وبما أني اخترت الرأي القائل بتعدد غزوات ابن أبي سرح في إفريقية أذكر ما جاء في رياض النفوس في غزوة ابن أبي سرح الثانية من رواية الواقدي عن ربيعة الديلي قال: «... ثم تمادينا إلى إفريقية، وجعلنا نضرب في كل جهة. وأقمنا أياماً تجري بيننا وبين جرجير - ملكهم - الرسل ندعوه إلى الإسلام، فكلما دعوناه إلى الإسلام نخر. ثم استطال وقال: لا أفعل هذا أبداً. فقلنا له: فتخرج الجزية في كل عام، فقال: لو سألتموني درهماً لم أفعل. فتهيأ الناس للقتال. وعبأ عبد الله بن سعد الناس ميمنة وميسرة وقلباً».

وعبأ جرجير جيوشه، وكانت نحو مائة وعشرين ألفاً. ودارت المعارك الأولى لم ينل فيها من العرب، فأراد أن يغري بهم الروم، فأخرج ابنته أمام الجيوش ونادى في عسكره: من قتل أمير العرب: زوجته ابنتي هذه، فسمع بذلك عبد الله بن أبي سرح فنادى في المسلمين: «وحق محمد رسول الله ﷺ لا يقتل أحد منكم جرجير إلا نفلته ابنته وما معها[1]». والتحم القتال حتى ظن الناس أنه الفناء، وصبر المجاهدون فانهزم جرجير وجيشه، واندفع العرب نحوه يتسابقون إلى قتله، فرأت ابنة جرجير المسلمين يتدافعون بسيوفهم في زحام شديد، - وكانت تطل على المعركة - فقالت: ما لهم يتزاحمون؟، فقالوا لها: يتزاحمون على قتل أبيك.

وذكر في رياض النفوس أن ابنة جرجير أشرفت على العرب في عسكرهم، فاستقلَّتهم فقالت لأبيها: لا تسرع بالقتل في هؤلاء وأنحلنيهم، فقال لها: قد أنحلتكهم.

واشتدت المعركة وكانت قاسية وطاحنة، فانتهز عبد الله بن الزبير غرة من جرجير فقتله. وذكر في دول الإسلام من رواية عبد الله بن الزبير هذه

---

(1) كان هذا النداء بعد أن أشار عليه به عبد الله بن الزبير.

القصة فقال: هجم علينا جرجير في مائة وعشرين ألفاً، واختلف الجند على ابن أبي سرح فغضب ابن أبي سرح، ودخل فسطاطه. وخاف المسلمون العدو، وأحاط بنا العدو، وكنا عشرين ألفاً، فرأيت أنا غرة من جرجير، بصرت به خلف جيوشه على برذون أشهب معه جاريتان تظللان عليه بريش الطواويس، وبينه وبين عسكره فلاة من الأرض، فأتيت أميرنا ابن أبي سرح ودخلت عليه الفسطاط، فوجدته مستلقياً على ظهره، فلما دخلت عليه استوى جالساً وقال: ما أدخلك عليَّ يا بن الزبير؟ فقلت له: إني رأيت عورةً من العدو، فاخرج فاندب الناس، قال: وما هي؟ فأخبرته، فخرج معي مسرعاً وقال: أيها الناس، انتدبوا مع ابن الزبير، فندب لي فرساناً فأخذت منهم ثلاثين وقلت لهم أثبتوا هنا، وحملت على جرجير، وقلت: احموا لي ظهري، وخرقت إلى جرجير وهو يظن أني رسول إليه، فلما دنوت منه عرف الشّرّ فوثب على برذونه وساق مولياً فأدركته فطعنته فسقط، ثم ضربته بالسيف ونصبت رأسه على رمحي وكبرت. وقد ركب المسلمون فحملوا، وركبنا أكتاف العدو وتمزقوا. وسبقت خيول المسلمين إلى باب الحصن. فحالوا بينهم وبين الدخول فيه، وقتلوا أنجادهم وفرسانهم.. ودارت الدائرة على الروم والبربر، وكثر فيهم القتل والسبي، واستولى العرب على ما في المعركة، وجمعت الغنائم فكانت شيئاً لا يحصى كثرة ووقعت ابنة جرجير في الأسر وقالت: لقد رأيت الذي قتل والدي، ولما عرض عليها المجاهدون تعرفت على ابن الزبير.

ووفى ابن أبي سرح بوعده فأعطى بنت جرجير لابن الزبير وأرسل السرايا في طول البلاد وعرضها لإخضاع الروم والبربر، فما ذهبت مذهباً إلا رجعت سالمة غانمة. وكانت هذه المعركة سبباً في كسر شوكة الروم والبربر وذهاب ملك جرجير، فلجأوا إلى الحصون، ورهبوا جانب العرب.

ولما رأى رؤساء أهل المدن والقرى ما حل بهم من هزيمة، ورأوا أن العرب ما زالوا يغيرون ويفتحون، وأيقنوا بعجزهم عن مقاومتهم طلبوا من ابن أبي سرح صلحاً على مال يؤدونه ويرحل عنهم، فقبل منهم، وعقد

معهم صلحاً جاء فيه: «إن ما غنمه المسلمون قبل الصلح فهو لهم، وما أخذوه بعد الصلح ردوه[1]»، واتفقوا على ثلاثمائة قنطار من الذهب، فقبضها ابن أبي سرح ورحل عنهم.

وبعد انتهاء المعركة، وقبل أن يرحل ابن أبي سرح أرسل عبد الله بن الزبير بخبر الفتح إلى عثمان بالمدينة يبشره بما أفاء الله على المسلمين من النصر والغنيمة، وأخذ ابن الزبير معه بنت جرجير. وقد ساءها أن تكون مسبية في يد العرب، فألقت بنفسها من على جمل في أثناء الطريق فماتت.

وقد أوصى ابن أبي سرح ابن الزبير أن يبلغ عثمان أن يرسل إليه سفناً في البحر ليشحن فيها الغنائم فأرسلت إليه.

وسافر ابن أبي سرح إلى المشرق ومعه من الغنائم شيء لا يحصى كثرة، ووافته السفن التي طلبها من عثمان في طرابلس، فشحن فيها ما يمكن شحنه وسار هو وأصحابه على طريق البر. وقد بلغ سهم الراجل ألف دينار، وبلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف... ولئن دل مجيء سفن العرب إلى طرابلس على شيء فإنما يدل على ضعف دولة الروم وتقلص نفوذها وانهيار قواها أمام ضربات العرب حتى في إفريقية. وقد خيمت على عقولهم صولة العرب، وهيمنت على نفوسهم، فكانت مقاومتهم بعد هذه المعركة تسير من ضعيف إلى أضعف.

وقد يمكن لمتتبع معارك ابن أبي سرح وما بذله من جهود في فتح إفريقية أن يعجب من انسحابه من إفريقية، بدون أن يترك فيها حاكماً أو حامية، في نظير مبلغ من المال مهما كان عظيماً، بعد أن خاض فيها تلك المعارك الهائلة، وبعد أن ضحّى فيها بعدد كبير من رجالات المسلمين الذين

---

(1) يلاحظ أن الصلح في الغزوة الأولى كان مع جرجير نفسه، وكان على ألفي ألف وخمسمائة ألف. وفي هذه الغزوة كان الصلح مع الأعيان بعد قتل جرجير، وكان على ثلاثمائة قنطار من الذهب. وقال في رياض النفوس: كان الصلح - في الغزوة الثانية - على مائة ألف رطل من الذهب، وهذا مما يدل على تعدد الغزوات كما قلنا.

استشهدوا في معارك بسيطلة الطاحنة، وقد يمكنه أيضاً أن يرى في انسحابه قضاء مبرماً على جهود المسلمين في إفريقية وجهادهم الذي دام ست سنوات متواصلة قد يمكن هذا العجب، ولكنه لا يلبث أن يزول إذا علمنا أن جيش ابن أبي سرح قد مني بخسائر كبيرة في الرجال في معارك سبيطلة، وأنَّ من بقي معه من المسلمين لا يمكنهم أن يصمدوا أمام جيوش الروم والبربر التي تفوقهم بأضعاف مضاعفة. . هذا إلى بُعد مراكز جيوش المسلمين التي يمكن الاستنجاد بها. وإذاً فإن ما فعله ابن أبي سرح هو عين الحكمة ومقتضى الخطط الحربية. ولولا انسحابه لتعرض جيشه للفناء.

وكان هذا الفتح قاصراً على السواحل فيما بين جبل نفوسة[1] والبحر، أما غدامس فلم تفتح إلا في سنة 24هـ في سرية عقبة، وبقيت ودان على ردتها حتى فتحها هي وغدامس عقبة بن نافع سنة 49 وسيأتي خبرهما.

وكان من بين أسرى هذه المعركة وِزمار بن صقلاب البربري، جد الخزرونيين، وأمير مغراوة وزناتة[2]. ولما وصل إلى عثمان بالمدينة أسلم على يديه، فأطلقه وعقد له على قومه، ولذلك كانت زناتة تناصر دعوة الأمويين، بخلاف صنهاجة فإنها كانت تناصر دعوة العباسيين.

وصول الخبر إلى هرقل:

أسف هرقل كثيراً حينما بلغه ـ وهو بالقسطنطينية ـ خبر قتل جرجير وهزيمة الروم والبربر، ومصالحة رؤساء المدن والقرى للمسلمين على تلك المئات من قناطير الذهب، فأرسل إليهم بطريقاً نائباً عنه يقال له «أوليمة» ليطالبهم بالخراج الذي كانوا يؤدونه إليه في كل سنة، ونزل بقرطاجنة. ولما

---

(1) لم يذكر أحد موقف سكان جبل نفوسة من هذه الغزوة. ويظهر أن من فيه من البربر استكانوا وأفسحوا الطريق للعرب يذهبون حيث شاءوا، كما رضي العرب منهم بهذا الموقف فتركوهم.

(2) قال ابن خلدون: وقد أسر في زمن ابن أبي سرح وزمار إلخ وذكر غيره هذا المعنى، وعلل به مناصرة زناتة لدعوة الأمويين، ومخالفة صنهاجة لها ومناصرتها دعوة العباسيين.

طلب من الناس ما أمره به هرقل امتنعوا وقالوا إن ما بأيدينا من الأموال فديناً به أنفسنا من العرب.

وقد حصل خلاف كبير بين «أوليمة» نائب هرقل، وبين «حباحيه» حاكم البلد الذي أقيم بعد قتل جرجير، ورجع البطريق مطروداً ولم يحصل على شيء..

لم يول ابن أبي سرح أحداً على إفريقية بعد أن رحل عنها، وتركها كما تركها في المرة الأولى مكتفياً بعهود الصلح وتقديم الطاعة. وكذلك كان العرب يفعلون قبل أن تستقر أقدامهم في إفريقية، وقبل أن يتخذوا منها موطناً لهم، فكانوا يكتفون بدفع الغرامة، وبتقديم الطاعة سواء أكانت بطريق الصلح أم بطريق القهر والغلبة، لأنهم ما كانوا يأمنون غدر الروم وقتلهم من يولونه عليهم.

ويقول ابن خلدون إن جرجير كان من الفرنجة، وكان نائباً عن هرقل في إفريقية لأن هرقل كان ملك النصرانية كلها لا فرق بين الروم وغيرهم، والأمم التي كانت متغلبة على البربر، وكانت تملك مدنها وقراها إنما هي من الفرنجة، وما يوجد من الروم في إفريقية إنما هم جند للفرنجة. ولما كان العرب لم يقاتلوا من الأمم النصرانية إلا الروم في الشام غلبوا لفظ الروم على غيرهم. وما يذكر في كتب فتح إفريقية من لفظ الروم إنما هو من قبيل التغليب. وكان البربر في إفريقية قبيل الفتح تحت حكم الفرنجة، وعلى دين النصرانية.

الفتح الرابع
غزوة معاوية بن حديج[1] الأولى

ما كانت إفريقية تستقر على حال، ولا تقيم على عهد إلا ريثما يرتحل عنها جيش المسلمين فتنقض عهدها، ويرتد من أسلم من أهلها، وتناصب العرب العداء وتعود إلى ما كانت عليه.

وقد اختلفت روايات المؤرخين في غزوات معاوية بن حديج، فنقل المالكي صاحب رياض النفوس عن أبي العرب «أن معاوية ابن حديج غزا إفريقية ثلاث غزوات: أما الأولى فسنة 34 في خلافة عثمان[2]. وأما الثانية فسنة أربعين. وأما الثالثة فسنة خمسين. وهو يوافق رواية ابن عبد الحكم في أنها ثلاث غزوات. ويحدد هذه الغزوة بأنها كانت قبل مقتل عثمان. وفي أن الثانية كانت سنة 740 وهذا غير صحيح لأن تعيينه كان من قبل معاوية، ومعاوية في هذه السنة كان مشغولاً بحرب عليّ، ولم يتولَّ الخلافة إلا بعد أن تنازل له عنها الحسن بن عليّ سنة 41، ويظهر أنها كانت سنة 45 كما ذكر ابن خلدون وقد اخترت هذا القول، والثالثة كانت سنة 50، وهذه ذكرها صاحب نزهة الأنظار وذكر بعض أعماله في القيروان، وفتح جلولاء. واتفقت رواية صاحب معالم الإيمان ومحمد بن يوسف الوراق على أنها

(1) قال في تاريخ الخميس للديار بكري: معاوية بن حديج ـ بحاء مهملة مضمومة، ودال مهملة مفتوحة ـ وجيم في آخره: وما جاء في ابن خلكان: خديج بخاء معجمة مفتوحة، ودال مهملة مكسورة، وجيم، فهو غلط وهو معاوية بن حديج بن جفنة بن قتيرة الكندي الخولاني المصبري، صحابي على قول الأكثرين، وذهبت عينه في حروبه مع البربر في إفريقية. مات بمصر وهو وال عليها من قبل معاوية بن أبي سفيان سنة 52.

(2) قال في طبقات علماء إفريقية: وهذه الغزوة لا يعرفها كثير من الناس.

ثلاثة، وأن الأولى كانت سنة 34 قبل مقتل عثمان. وذكر بعض المؤرخين واقعة جلولاء في غزوة سنة 34. وذكرها بعضهم في غزوة سنة 40. وبعضهم ذكرها في غزوة سنة 50 وكلهم متفقون على تفاصيل معركة جلولاء وما وقع فيها. وقال ابن خلدون: إن معاوية بن حديج أرسل إلى إفريقية سنة 45. وقال التيجاني في رحلته: كان ابن حديج والياً على إفريقية من قبل عمرو بن العاص.

هذا ما أمكنني جمعه فيما يتعلق بغزوات ابن حديج في إفريقية وقد اخترت الرأي القائل بالتعدد فذكرتها متعددة.

مرت على إفريقية نحو ست سنوات بعد رجوع ابن أبي سرح نقض الروم فيها عهودهم مع العرب، وناصبوهم العداء، وارتد من أسلم إلى نصرانيته. وقد شغل عنها العرب كل هذه المدة بإصلاح ما ظهر من بوادر فتنة عثمان. وبما لابسها من آثار سيئة نتيجة لانتقاد طريقة الحكم التي اتبعها عثمان وبالرغم من ظهور هذه البوادر فقد عني عثمان بأمر إفريقية، ووجه إليها أبا نعيم معاوية بن حديج سنة 34 لفتحها، ومعه جيش من العرب فيه كثير من الصحابة والتابعين من المهاجرين والأنصار.

ومر ابن حديج في طريقه ببرقة، وكان بها عقبة بن نافع فأخذه معه وتقول بعض المصادر إن عمرو بن العاص لما رجع إلى مصر سنة 23 ترك عقبة في برقة والياً على ما فتح من إفريقية، وقد مروا في طريقهم بطرابلس فلم تبد أي مقاومة فيما اطلعت عليه من كتب.

أما سرت فيظهر أنها لقربها من برقة تأثرت بها، فهي منذ أن فتحها عمرو لم تبد نشاطاً عدائياً لا ضد ابن أبي سرح في غزوتيه، ولا ضد ابن حديج، وأصبحت مسالمة كما سالمت برقة.

وأخبار هذه الغزوة مقتضبة، حتى قال في طبقات علماء إفريقية: إن هذه الغزوة لا يعرفها كثير من الناس. ولم نعثر لها على تفصيل أكثر.

الفتح الخامس
غزوة معاوية بن حديج الثانية

وكانت المدة بين غزوتي ابن حديج حوالي عشر سنوات شغل فيها المسلمون بفتنة عثمان وحروب عليّ ومعاوية، وانقطعت فيها بعوث المسلمين عن إفريقية ولم يفكروا في شأنها. . .

وقد انتهز الروم والبربر فرصة انشغال المسلمين بهذه الفتنة فنقضوا عهودهم، وارتد بعضهم، وثبت بعضهم على إسلامه، وحصلت ألفة بين من أسلم من البربر وبين من بقي في إفريقية من غزاة المسلمين وحافظوا على إسلامهم. . . ولأول مرة نسمع فيها أن جماعة من المسلمين استقروا في إفريقية، وهي بادرة تدل على اضمحلال شأن الروم، وهي كذلك أول خطوة في استقرار الإسلام في إفريقية، ومزاحمته للمسيحية في دورها ومناطق نفوذها.

وما كادت الخلافة تفضي إلى معاوية بتنازل الحسن بن عليّ له عنها في ربيع الأول سنة 41، وبمبايعة المسلمين إياه بالخلافة[1] في الخامس والعشرين من هذا الشهر، وما كادت أمور المسلمين في المدينة والحجاز تأخذ في الاستقرار حتى أخذ معاوية يفكر في فتح إفريقية، فاختار لها معاوية ابن حديج لسابقة خبرته بها، وأرسله إليها على رأس جيش من المسلمين

---

(1) معاوية بن أبي سفيان أول خلفاء دولة بني أمية. وهي أول دولة إسلامية قامت على وجه الأرض بعد عهد النبوة والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم. وتوفي معاوية في رجب سنة 60 ودفن بالشام. . وتولى هذه الخلافة من بني أمية أربعة عشر خليفة، آخرهم مروان بن محمد بن مروان الأول. ومدة ملكها في الشام اثنتان وتسعون سنة.

سنة 45[1] وليس بصحيح ما قيل إنه أرسله إليها سنة 40 لأنه في هذه السنة لم يتول خلافة المسلمين، وأيضاً فإنه كان مشغولاً بمحاربة عليّ.

سار ابن حديج إلى إفريقية، ومر في طريقه بطرابلس، فلم تبد أي مقاومة ويظهر أن قتل جرجير، كان له أثر سيء على نفوس الروم والبربر جعلهم لا يفكرون فيما وراء سبيطلة وما حولها. وزاد في سوء حالهم الفتنة التي نشبت بينهم وبين هرقل بسبب طردهم مندوبه «أوليمة» لهذا تغافلوا عن طرابلس ولم يحاولوا الرجوع إليها وهذا ما شجع أهل طرابلس على الاحتفاظ بعهدهم مع العرب، ولم يبدوا ضد ابن حديج أي مقاومة فانتهز ابن حديج مسالمتهم وولى عليهم من قبله رويفع بن ثابت، وبذلك أمن انتقاضهم، كما أمَّن طريق الرجعة فيما لو اضطر للرجوع. وسار في طريقه إلى أن وصل القيروان وكانت غير مسكونة فبنى فيها مساكن، وحفر آباراً كثيرة كانت تعرف بآبار حديج إلى منتصف المائة الثانية بعد الألف من الهجرة، وفتح بنزرت وغنم فيها غنائم كثيرة... وقد عزله معاوية بن أبي سفيان عن إفريقية، ورجع إلى مصر سنة 48 وولى بدله عقبة بن نافع.

ثم سار معاوية إلى سبيطلة، وسبقته أخباره، وبلغ قيصر الروم خبر هذا الغزو فأرسل نجدة إلى قرطاجنة على طريق البحر، والتقى المسلمون بالروم والبربر بقرب «ألجم» فهزموهم، واستعد الروم للقائه في جلولاء. ليكون دفاعهم عن سبيطلة في مواقع بعيدة عنها، وهناك جمعوا جيشاً لا يقل عن ثلاثين ألف مقاتل، وتواقع الفريقان خارج أسوار المدينة، ولم يلبثوا أن رجحت كفة العرب على الروم، فدخلوا المدينة منهزمين وتحصنوا وراء أسوارها، وحاول العرب اقتحامها عليهم فلم يقدروا. وجرح عامتهم واستشهد كثير منهم، فتركوها، ورجعوا عنها مرغمين.

---

(1) قدر بعض المؤرخين هذا الجيش بنحو عشرة آلاف. وكان من بينهم عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الملك بن مروان، وجماعة كثيرة من الصحابة والتابعين.

انهدام سور جلولا[1]:

كان انهدام سور جلولاء كرامة من الله أكرم بها أولئك النفر من العرب الذين باعوا أنفسهم في الله وأخلصوا دينهم لله، فبينما هم راجعون، وقبل أن يبتعدوا كثيرا انهدم سور جلولاء من تلقاء نفسه، وبدون سبب، بعد أن وقفوا أمامه أياماً لا يقدرون منه على شيء، وقد تنبه بعضهم إلى ما ثار منه من غبار، فلما تبينوا الأمر علموا أن السور انهدم، فرجعوا مسرعين ودخلوا المدينة عنوة، وفرَّ من الروم من نجا من القتل والأسر، وغنموا كل ما حوته المدينة، فكان كثيراً، وكثيراً جداً. وقسمت الغنيمة على المقاتلين فكان سهم الراجل 200 دينار، وسهم الفارس 600 دينار... وانتشرت خيل المسلمين في طول البلاد وعرضها، ورهب السكان جانبهم وقدموا لهم الطاعة، وأصبح الروم أشد ما يكونون جزعاً من هذه الضربات المتتالية التي أنزلها بهم العرب... ويقول صاحب المؤنس: «وفي هذه الغزوة فتح عبد الله بن الزبير مدينة سوسة وأبلى فيها بلاء حسناً».

رويفع بن ثابت الأنصاري:

هو رويفع بن ثابت، بن السكن، بن عدي، بن حارثة[2] الأنصاري، من بني مالك بن النجار، صحابي جليل، شهد فتح مصر وكان يسكنها... ولاه ابن حديج على طرابلس سنة 46. وغزا جربة من طرابلس وفتحها سنة 47، وأمر أصحابه بأن لا يأتوا السبايا إلا بعد الاستبراء وقال لهم: إن النبي ﷺ قال: «لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي ماءه زرع غيره». ونهاهم عن استعمال دواب الغنيمة وأمتعتها إلا بعد القسم ورجع من عامه، وتوفي ببرقة وهو أمير عليها سنة 53 زمن ولاية مسلمة بن مخلّد على مصر[3] وإفريقية من قبل معاوية بن أبي سفيان.

---

(1) جلولا بفتح الجيم وتشديد اللام اسم لمدينة كانت تبعد عن القيروان بأربعة وعشرين ميلاً تقريباً وهي الآن خراب. ويعرف مكانها بعين جلولا (خلاصة).

(2) وقيل خارجة.

(3) قال ابن كثير: وهو وال عليها من قبل مسلمة بن مخلد نائب مصر.

وكان قبر رويفع قد درس وانمحت معالمه، وعلى غير قصد عثر إنسان على حجر مكتوب عليه: «هذا قبر رويفع بن ثابت الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ»، فمنذ ذلك أصبح معروفاً في برقة لا يختلف فيه اثنان تلتمس عنده الرحمات بفضل صحبته للنبي ﷺ. وكان له جهاد في إفريقية وحضر فتح مصر.

سياسة الغزو:

لقد مر على العرب منذ أن غزوا إفريقية إلى آخر غزوات ابن حديج ست وعشرون سنة لم يمكنهم الاستقرار في إفريقية، وإنما كانوا يكتفون من الروم بعقد الأمان ودفع الجزية أو الغرامة الحربية ويرحلون عن البلاد، لأن أساليب حياتهم ما كانت تساعدهم على الإقامة في طرابلس أو في غيرها من البلاد الإفريقية. ذلك لأن سكان إفريقية كانوا كثيرين لا يحصون عدداً، وكانوا يدينون بغير دين العرب، وكانوا يعتبرون العرب غزاة فاتحين يجب عليهم أن يطردوهم عن بلادهم، والعرب يعلمون هذا منهم، لذلك ما كانوا يأمنون على أنفسهم من غدرهم، خصوصاً وأن نجدة العرب كانت تأتيهم من مصر والشام والمدينة وهي بعيدة عنهم.

كان الروم لا يفون بالعهود ولا يحترمون المواثيق، فكانوا كلما ارتحل العرب عنهم نقضوا عهودهم، ومنعوا ما كانوا يؤدونه وارتد من أسلم منهم.

والمسلمون ما غزوا إفريقية لأجل المال، أو لأجل التحكم في رقاب الناس، لأن الله فتح عليهم الشام ومصر والعراق قبل فتح إفريقية، وفي هذه الأقطار من أسباب رخاء العيش ومنابع الثروة ما فيه الكفاية وفوق الكفاية، ولكنهم غزوا إفريقية لنشر الإسلام وفضائله، وتخليص البشرية من مظالم الروم، ونشر العدالة والمساواة بين الناس، ولذلك كانوا يكررون الغزو على إفريقية كلما نقض الروم عهودهم لتحقيق هذه الأغراض السامية مهما كلفهم الأمر من صعاب وبذل أرواح... لهذا كان العرب يجاهدون، ومن أجله كانوا يعملون.

ولكن المستشرقين مثل كودل، وديل، وفورنل ممن كتبوا في تاريخ إفريقية لا يستسيغون أن يقال عن العرب إلا أنهم سلابون نهابون، ولقد أكثروا في كتبهم عن فتح إفريقية من هذه المثالب، ولنا فيما أجمعت عليه كتب التاريخ العربية ما يفند افتراءاتهم علينا. ولن نقول لهم أكثر مما قاله اللّه تعالى في أمثالهم: ﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ﴾.

سرية عقبة:

يؤخذ من كلام ابن الأثير أنه كانت لعقبة جولة صحراوية فيما بين سنة 41 وسنة 43، وصل فيها إلى غدامس، فبدأ بإخضاع لواتة في برقة، ثم أخضع هوارة، وهم سكان سرت وما وراءها إلى الجنوب وإلى جبل نفوسة، ووصل إلى غدامس سنة 42[1] وفتح ما حولها من الواحات[2]. ورجع إلى مصر سنة 43 فوجد عمرو بن العاص في مرض موته وتوفي عمرو في شوال سنة 43، وإذا صحت أخبار هذه السرية فإنها كانت في الفترة التي بين غزوتي ابن حديج.

---

(1) هذه رواية المؤنس.

(2) أقرب الواحات إلى غدامس هي درج، وسناون.

الفتح السادس
عقبة بن نافع

عقبة بن نافع الفهري، من بني فهر، بطن من بطون قريش. بطل من أبطال العرب، جاهد فوُفِّق، وحارب الكفار فأبلى، حضر فتح مصر، ودخل إفريقية فاتحاً عدة مرات، قائداً تارة، ومن أفراد المجاهدين تارة أخرى، ووليها لمعاوية، ولابنه يزيد. وهو الذي أسس مدينة القيروان، وبنى مسجدها الجامع وبه عرف، وبنى دار الإمارة قبل الجامع... وفي أيامه أخذت قواعد الإسلام ترسو في إفريقية، وتعاليمه تنتشر بين البربر، وخالطت بشاشته قلوبهم، فأخذوا يعتنقونه، وكان له منهم أنصار. ويقال إن له صحبة... وبسبب إخلاصه للإسلام وجهاده في سبيل الله أظهر الله على يديه الكرامات، كما وقع له في ماء الفرس ووادي القيروان، وكان مجاب الدعوة. ولد قبل الهجرة بسنة، واستشهد في إفريقية سنة 63. شكر الله له وأكرم مثواه.

تقدم أن عمرو بن العاص أرسل عقبة إلى زويلة سنة 22، ففتحها وكان موفقاً، وبعد رجوع عمرو من إفريقية عيَّنه والياً على ما فتح منها، وبقي في برقة. وشجاعة عقبة وكفايته في الحروب لا ينكرها عليه أحد. وفي المدة التي بقي فيها في برقة اكتسب خبرة بأحوال إفريقية وسكانها، وعلى الأخص البربر لاختلاطه بهم في برقة، فكانت هذه المميزات كفيلة بتوجيه نظر معاوية إلى اختياره لفتح إفريقية، فأرسله عقب ابن حديج سنة 49. وإذا علمنا أن ابن حديج رجع من غزوته الثانية في أوائل سنة 48هـ علمنا أن بين هاتين الغزوتين سنة أو ما يقاربها.

وقد ذكر ابن الحكم والبكري أن هذه الغزوة كانت سنة 46، وعنهما نقلت ما ورد من تفاصيل أعماله في فتح فزان وغيرها، وبناء القيروان. . . ويظهر أن هذا التاريخ فيه شيء من التحريف، فإن معاوية بن حديج كان في إفريقية سنة 46 ورجع منها في أوائل سنة 48 وهو معين عليها من قبل معاوية، ويبعد أن يعين معاوية عقبة قبل رجوع ابن حديج، فلا يبعد أن يكون الكاتب أراد أن يكتب 49 فكتب 46، وبين الرقمين شبه قريب جداً، فالظاهر أن غزوة عقبة هذه كانت سنة 49 كما ذكره بعض المؤرخين، وعليه فيكون دخوله إفريقية وبداية بناء القيروان سنة 50. وعلى كل من الروايتين فإن عقبة كان في القيروان سنة 50. وقول صاحب نزهة الأنظار إن ابن حديج غزا إفريقية سنة خمسين لا يتفق مع الحقيقة.

سار عقبة إلى إفريقية في جيش من المسلمين، وكان ابتداء مسيره من برقة لأنه كان مقيماً بها. . . وفي معجم البلدان أن عقبة أضاف من أسلم من البربر إلى الجيش الذي أرسله إليه معاوية، وسار حتى وصل إلى سرت فنزل بمكان يقال له مغمداس[1]، وهو مكان غربي مدينة سرت القديمة في منتصف الطريق بينها وبين قصور حسان. هكذا ذكر البكري في كتابه «المغرب»، وذكر أيضاً أن به صنماً، وإلى جوار الصنم قصر بناه الأعرابي عامل سرت للعبيديين. . . وذكر بعض الكتب أن هذا القصر كان يعرف بقصر العبادي. وهو غير معروف الآن. ويشبه أن يكون قصر «بوهادي» الموجودة الآن بقاياه بقرب سرت الجديدة.

وهذا ما أمكننا علمه عن تلك الآثار الدارسة التي يشبه أن يطبق على الحقيقة التي حال بيننا وبينها ألف وثلاثمائة وثلاث وعشرون سنة.

وقد بلغ عقبة أن بلاد ودان نقضت عهدها الذي عاهدت عليه بسر بن أبي أرطاة سنة 23، وارتد من أسلم منهم على يديه، فترك جيشه بمغمداس

(1) جاء ذكر مغمداس في تاريخ البكري، ونزهة الأنظار، وسير الشماخي، ورحلة العياشي. وقد اشتبه على كثير من المؤرخين فذكروه ـ غلطاً ـ باسم غدامس.

في أرض سرت وأناب عنه في رياسة الجيش زهير بن قيس البلوي وعمر بن علي القرشي وسار إليها في أربعمائة فارس، وأربعمائة جمل، على كل جمل قربتان لحمل الماء. ولما وصل إليها أبى أهلها إلا العصيان وعدم الطاعة، فحاربهم عقبة حتى أخضع البلاد بلداً بلداً، وقبض على ملكهم فقطع أذنه جزاءً له على نقض العهد، وقال له: إذا مسست أذنك تذكرت فلا تحارب العرب، وفرض عليه ثلاثمائة وستين رأساً من العبيد، وأغرمه ما كان فرضه عليه بسر بن أبي أرطأة سنة 23.

ولما استتب لعقبة الأمر في بلاد ودان سار إلى جرمة، وهي العاصمة إذ ذاك لبلاد فزان، وسميت جرمة باسم أمة الجرمنت، وهي أمة قديمة كانت تسكن فزان[1] فلما دنا منها نزل غير بعيد ودعا أهلها إلى الإسلام فأجابوا، وقدم ملكهم الطاعة، وفرض عليهم 360 رأساً من العبيد، واستمرّ عقبة في فتح بلاد وفزان حتى أتى على آخرها، ونشر فيها من تعاليم الإسلام ما اتسع له وقته، وهذه أول مرة دخل فيها العرب بلاد فزان فاتحين.

ولما انتهى من فتح بلاد فزان لم يقتصر عليها، فسأل أهلها هل من أحد وراءكم؟ فقالوا له وراءنا قصر جاوان، أو خاوار، وهو عاصمة بلاد كاوار، فسار إليه خمسة عشر يوماً، فلما وصله دعا أهله إلى الإسلام فأبوا، فطلب منهم الجزية فامتنعوا واعتصموا بحصنهم، فحاربهم، وأقام على حصارهم شهراً فلم يقدر على فتحه، فتركه وتقدم في الجنوب لفتح بقية بلاد كاوار، ففتحها حتى أتى على آخرها، وقبض على ملكهم وقطع إصبعه وقال له: إذا نظرت إلى إصبعك تذكرت فلا تحارب العرب، وفرض عليه ثلاثمائة وستين رأساً من العبيد... وكان في نيته أن يتقدم إلى الجنوب وراء بلاد كاوار، فسأل أهلها: هل وراءكم من أحد؟ فقالوا: لا نعلم أحداً، فرجع... وفي رجوعه مرَّ بقصر خاوار الذي كان استعصى عليه فتحه، فوجد أهله ما زالوا معتصمين به، فلم يتعرض له، وتجاوزه بنحو ثلاث

(1) انظر لبدة.

مراحل، حتى ظن أهله أنه لا يرجع إليهم، فاستأمنوا وفتحوا أبواب الحصن. . . ونزل عقبة في مكان سمي بعد ذلك ماء الفرس[1]، وكان قبل ذلك قفراً لا ماء فيه. . . وسبب هذه التسمية أن عقبة وأصحابه نفد ما عندهم من الماء وعطشوا هم وحيواناتهم حتى قاربوا الهلاك. ومن عادات المسلمين إذا اشتد بهم الكرب لأي نازلة من نوازل الدهر لجأوا إلى الله بالصلاة والدعاء، يستنزلون رحمته في تفريج ما نزل بهم، فصلى عقبة وأصحابه، ورفعوا أيديهم إلى السماء طالبين من الله أن يسقيهم ـ وكان عقبة مجاب الدعوة ـ وإذا بفرس عقبة تنبش الأرض برجلها حتى نبع الماء من محل النبش فكرعت فيه، فرآها عقبة تمص الماء، فنادى في أصحابه أن احفروا الأرض، فحفروا سبعين حسياً فنبع الماء منها كلها، فشربوا وسقوا حيواناتهم، وأكرمهم الله بسبب إخلاصهم وجهادهم في سبيل الله، ومن ذلك الوقت سمي هذا المكان ماء الفرس.

وقد استبشر عقبة بهذا الحادث، فاعتزم الرجوع إلى قصر جاوان فربما أكرمهم الله بفتحه، فلم يلبث بعد أن استراح قليلاً حتى رجع إليه هو وأصحابه، وقد أيقن ساكنوه أن عقبة تركهم وذهب إلى سبيله، فما شعروا حتى صبَّحهم على غرة، واقتحم عليهم الحصن، فقتل مقاتلهم، وغنم كل ما في الحصن، وقفل هو وأصحابه حتى وصل زويلة، وواصل سيره حتى وصل إلى معسكره بمغمداس بأرض سرت بعد أن غاب عنهم خمسة أشهر.

لم يلبث عقبة أن توجه إلى إفريقية، واتخذ له طريقاً غير الطريق الساحلي جنوبي جبل نفوسة، وأرسل خيلاً إلى غدامس ففتحها، ووصل سيره إلى إفريقية. . . وقد رأى من الخير للمسلمين أن يتخذ لهم مدينة يتخذون منها مركزاً يلتجئون إليه، ويعتصمون به من الروم والبربر. . . ولما وصل إلى مكان القيروان[2] وجد فيه أرضاً متسعة فيها كثير من أنواع الشجر

---

(1) جاءت قصة ماء الفرس في المؤنس وغيره.

(2) القيروان معرب كاروان الفارسية. وتكلمت به العرب قديماً. والنسبة إليه قيرواني، =

ملتف بعضه على بعض، تسكنها الحيوانات المفترسة والوحوش الضارية، وبقربها سبخة، فاختارها منزلاً له، ومكاناً لبناء المدينة التي اعتزم بناءها، وقد شكا إليه بعض الناس كثرة ما فيها من الوحوش والهوام، فماذا صنع عقبة لإزالة هذه الشكوى؟ جمع من في عسكره من الصحابة وكانوا ثمانية عشر[1]، ثم ذهبوا إلى رأس الوادي، ونادى عقبة بأعلى صوته: (يا أهل الوادي اظعنوا فإنا نازلون)، وكررها ثلاث مرات فلم تنقض ثلاثة أيام حتى خرج كل ما في الوادي من الوحوش، وكان الناس ينظرون إلى الذئاب والحيات تحمل صغارها خارجة لا تلوي على شيء استجابة لدعوة عقبة رضي الله عنه. وقد أكرمه الله باستجابة الدعوة جزاء لإخلاصه وقوة إيمانه... وجاء في رياض النفوس أن عقبة قال في ندائه: «أيتها السباع ارحلوا فإنا أصحاب رسول الله ﷺ». فنظر الناس ذلك اليوم إلى أمر عظيم: نظروا إلى السباع تخرج إليهم من الشعراء[2] تحمل أشبالها، والذئب يحمل أجراءه، والحية تحمل أولادها سمعاً وطاعة. ثم نادى عقبة في الناس: «كفوا عنهم حتى يرحلوا». وروي أنه دعا للقيروان بعد أن اختطها بقوله: «اللهم املأها علماً وفقهاً، واغمرها بالمطيعين والعابدين، واجعلها عزاً لدينك، وذلاً على من كفر بك، وأعز بها الإسلام، وامنعها من جبابرة الأرض» وروي عنه أنه اختار القيروان بعيداً من البحر خوفاً من أساطيل الروم، واختارها قريبة من السبخة لانتفاع إبل العرب بما تنبته من عشب صالح لرعي الإبل.

شرع عقبة في بناء مدينة القيروان. وقال صاحب الحلل السندسية: بنيت القيروان سنة 50، ويريد أنه شرع في بنائها. وبنى بها المسجد الجامع الذي ما زال معروفاً بمسجد عقبة وبنى الناس فيها مساكنهم. وتم بناؤها في

= وقيروي. ويطلق على القافلة وعلى الجيش ومناخ القافلة، وموضع اجتماع الناس في الحرب، ويظهر أنه أطلق على المكان لنزول الجيش فيه أو في القافلة.

(1) وفي طبقات علماء إفريقية كانوا (25).

(2) الأرض كثيرة الشجر.

مدة خمس سنوات: أي سنة 55.

القيروان أول مدينة بنيت في إفريقية، ومسجدها أول مسجد بني في إفريقية أيضاً. وقد أصبحت بعد ذلك مأوى للمسلمين ومقر قيادة جيوشهم في أكثر الحروب التي وقعت بعد بنائها.

وكان بناء القيروان من أكبر أسباب تثبيت أقدام المسلمين في إفريقية، لأنها أصبحت حصناً لهم ومأوى لحريمهم وأثقالهم. وأخذ البربر يفدون عليهم فيها، فكانت سبباً في اختلاطهم، وبسبب هذا الاختلاط وجد العرب سبيلاً إلى بث الدعوة الاسلامية، فأخذ البربر يتذوقونها.

وفي أثناء قيام عقبة ببناء مدينة القيروان كان يغزو الروم والبربر. ويرسل السرايا إلى طرابلس وجهات إفريقية لإخضاع من نقضوا العهد، وإرهاب من تحدثه نفسه بالعصيان.

لم يحدثنا أحد من المؤرخين عما فعل عقبة بطرابلس في هذه الغزوة. وقد تقدم أن ابن حديج عيَّن عليها في غزوته الثانية رويفعاً الأنصاري، وأنه عاد من سنته تلك، ويظهر أن طرابلس نقضت عهدها بعد أن غادرها رويفع، لأن عقبة كان يرسل إليها الحيل لغزوها، ولكن لم يذكر لنا أحد متى فتحها.

وعلى أثر هذه الغزوة المباركة، وببركة العرب المجاهدين أخذ الأمن يستقر كما أخذت نفوس البربر تطمئن إلى الإسلام وتأنس بتعاليمه، فأخذ ينتشر بينهم وأخذ أمر الروم في الاضمحلال، وضعف نفوذهم على البربر، واستوطن بعض العرب إفريقية، وكثر التجاء الروم إلى حصونهم الساحلية بعد أن ذاقوا مرارة ضربات العرب القاتلة.

وعزل العقبة عن إفريقية سنة 55 وتولاها بعده أبو المهاجر وسيأتي خبره، ولمناسبة ذكر غدامس وفزان في فتح عقبة أحببنا أن نورد تعريفاً موجزاً بهما.

غدامس:

بغين معجمة مضمومة، وبدال مهملة، أو ذال معجمة... واسمها البربري القديم «سيداموس». وهي واحة من واحات طرابلس الصحراوية. ذات شكل مستدير تقريباً، وتقع في الجنوب الغربي من مدينة طرابلس على بعد 500 ك م، على جهة المسامتة. أما على الطريق الذي يمر بالعزيزية، وبئر الغنم، وتيجى، ونالوت، ثم يذهب إلى سناون فتبعد عنها حوالي 658 ك م، وفيها بساتين وكثير من النخل[1]... ويحيط بالمدينة والبساتين سور طول دوره نحو ستة ك م، وقطر دائرته من الشرق إلى الغرب 1600 متر، ومن الشمال إلى الجنوب 1500 متر.

ويشرب سكانها، ويسقون مزروعاتهم من الآبار، ومن عين داخل السور قوية النبع، عذبة الماء، تصب في الدقيقة 2400 لتر من الماء، وفي مائها ملوحة بنحو 3٪ تقريباً.

وهي من أقوى مركز الحضارة، ولا يعرف زمن تأسيسها على التحديد. ويقال إنها معمورة من عصور ما قبل التاريخ. ووراء حدّها الغربي يقع الحد بين طرابلس وتونس. ويفهم من بعض التواريخ أن المسيحية دخلتها زمن استيلاء البيزنطيين على الشمال الإفريقي.

وفي سنة 19 ق.م. احتلها الروم، وبقيت تابعة لهم إلى الفتح الإسلامي وسكانها الآن خليط من الأصول العربية والبربرية، ويتكلمون العربية والبربرية ويعرف بعضهم اللغة السودانية بسبب كثرة أسفارهم للتجارة إلى السودان.

ودخلها المذهب الإباضي حينما دخل إفريقية في أوائل القرن الثاني للهجرة، ولم يلبث أن تقلص منها في القرن الرابع وخلفه مذهب مالك.

وتقع المدينة في الجنوب الغربي بداخل السور المحيط بها. وشوارعها

---

(1) يقال إن عدده يتراوح بين عشرين وخمسة وعشرين ألفاً.

ضيقة مظلمة منها ما هو مسقوف، ومنها ما هو مقبوّ على طراز المدن الصحراوية القديمة. وفي أيام الكاهنة البربرية كانت فيها دواميس وكهوف تحت الأرض اتخذتها سجوناً للمجرمين، وكانت في كثير من الأزمان مأوىً للمنشقين والخارجين عن طاعة السلطان.

وأكثر سكانها يعتمدون في معيشتهم على التجارة مع طرابلس وتونس، والسودان ومصر، وهم مهرة في التجارة، وقليل منهم يعيشون على فلاحة البساتين وما يغله نخلها الكثير من التمر...

قال في الروض المعطار: وتعظم فيها الكمأة (الترفاس[1]) حتى تتخذ منها اليرابيع والأرانب جحوراً.

وأكثر سكانها يتعبدون على مذهب الإمام مالك، وقليل منهم يتعبد على المذهب الإِباضي...

وقد فتحها عقبة مرتين، مرة حوالي سنة 42[2]، والمرة الثانية سنة 49، إذا صح أنها فتحت سنة 42.

ومنذ الفتح الإسلامي صارت تابعة لطرابلس. ولما احتل الفرنساويون الجزائر سنة 1830م حاولوا أن يأخذوها من الدولة العثمانية ويلحقوها بالجزائر ولكن فشلت محاولاتهم وبقيت تابعة لطرابلس.

وفي سنة 1842م عين الأتراك فيها مديراً من طرفهم. وفي سنة 1864م رقيت إلى قائمقامية، وعين فيها قائمقام.

فزان:

واحة من واحات طرابلس الجنوبية، يحدها من الشمال الجبال السود

---

(1) الترفاس كلمة متداولة في طرابلس تطلق على الكمأة.

(2) كان هذا الفتح في إحدى سراياه التي كان يغزو بها الأطراف وهو ببرقة.

«الهروج»، ومن الجنوب جبال التبو وحدود السودان، ومن الغرب الطريق الذي يصل بين غدامس وغات، ومن الشرق خط الطول في الدرجة 18... وطولها شرقاً وغرباً 900 ك م، وشمالاً وجنوباً 800 ك م، وارتفاعها على سطح البحر نحو 500 متر، وبها وديان يبلغ انخفاضها في بعض الأماكن نحو 150 متر، تحت سطح البحر ومساحتها أكثر من 300 ألف ك م مربع وقد ساق عليها الروم حملتين: واحدة سنة 19 ق.م. والثانية سنة 37م حتى وطدوا حكمهم فيها.

وقد ذكرها جرير في شعره فقال:

قَفرٌ تشابهُ آجالُ النعام به ... عيداً تلاقتْ به فزَّانُ والنوبُ

والآجال جمع إجل، وهو القطيع من بقر الوحش.

وفي زمن الفتح الإسلامي كان سكانها البربر وبعض السودانيين، أما الآن فسكانها خليط من أصول عربية وبربرية وسودانية، وفيها قليل من الأصل التركي.

وفي كثير من الأحيان كانت محل تنازع بين سكان الشمال وسكان الجنوب وكان الغالب من الطرفين هو الذي يتولى أمرها حتى في زمن العرب والترك، وحينما تضعف السلطة الطرابلسية تستقل بنفسها، وتحكمها أسرة من سكانها، أو أحد المغامرين الذين يسعون وراء الشهرة، ومن هؤلاء المغامرين أسرة بني خطاب التي ملكتها بين القرن العاشر، والثاني عشر الميلادي، ثم ملوك كاتم، وأولاد محمد من أصل مراكشي.

وأشهر بلادها: مرزق، وكانت عاصمتها أيام حكم الأتراك، وتقع إلى جنوبي سبهة بمسافة 150 ك م، وسبهة، ومركزها سبهة أو الجديد. وكانت عاصمة فزان قبل العهد التركي، وتقع على الوادي الشرقي في قلب فزان. ولما احتل الطليان فزان نقلوا إليها العاصمة من مرزق. وبراك، وهي في وادي الشاطىء شمالي سبهة بنحو 50 ك م. وجرما، وهي في الوادي

الشرقي، في الجنوب الغربي من سبهة على مسافة 170 ك م. وهي مقابلة لجرما القديمة التي كانت عاصمة لفزان زمن الروم وما قبلهم[1]. ولا تزال خرائبها موجودة وهي التي فتحها عقبة بن نافع سنة 49.

وجرما هذه كانت موطناً للجرمنتيين، وهم أمة قديمة كانت تسكن فزان[2] والقطرون، وسميت باسم وادي النطرون ـ مع قلب النون قافاً ـ والنطرون معدن يستخرج من هذا الوادي، ويسمى عند سكان فزان «الطرونة» وهو مادة متحجرة بيضاء تشبه الشبَّة ترسب في ماء يوجد في هذا الوادي، وتستعمل في الدباغ.

وأوباري: وهي في الوادي الغربي. وزويلة، وكان الروم يسمونها «شيلالا» وتقع على مسافة 140 ك م إلى الشرق من مرزق. وكانت عاصمة تلك المنطقة التي تسمى بها. وتسمى زويلة بني خطاب[3] الذين ملكوا فزان من أول القرن الرابع الهجري إلى سنة 568 بناها عبد الله بن خطاب الهواري وسكنها هو وبنو عمه سنة 306 وهي منسوبة إليه[4]، وكانت عاصمة ملكهم، ولذلك نسبت إليهم.. وبنو خطاب من البربر من قبيلة هوارة... وأديري، وتقع في وادي الشاطىء على مسافة 120 ك م إلى الغرب من براك وكان حاكم فزان يسمى السلطان، وهي تسمية قديمة يظهر أنها سرت إليهم من السودان، لأنهم يطلقون كلمة سلطان على رئيس القبيلة.

وليس ببلاد فزان أنهار جارية، وكل مزروعاتها ـ وهي قليلة ـ تسقى من الآبار بطريقة جر الدواب لآلات مخصوصة لإخراج الماء.. ومياهها الجوفية كثيرة وقليلة الغور، وهي تكفي لسقي أراضيها متى وجدت الأيدي

---

(1) انظر لبدة.

(2) ربما كانت منسوبة إلى جرمانة قبيلة بربرية من بني ماصلت، بطن من بطون لواتة، ودخلها شيء من التحريف.

(3) آخر ملوك بني خطاب هو محمد بن خطاب الذي قتله قراقش سنة 568، عذبه حتى مات.

(4) الروض المعطار.

العاملة... وتقل فيها الأمطار لأن منطقتها صحراوية.. وفيها من غابات النخيل شيء لا يحصى كثرة وفيها من أنواع التمر الجيدة ما لا يوجد في غيرها.

ونعود لوصل سلسلة الفتح، ومن الذي تولاه بعد عزل عقبة من إفريقية.

الفتح السابع
دينار أبو المهاجر

هو مولى لمسلمة بن مخلّد.. وكان معاوية بن أبي سفيان عين مسلمة والياً على مصر وإفريقية سنة 47، وهو أول من جمعت له الولاية عليهما، فولى مسلمة من قبله على إفريقية مولاه ديناراً أبا المهاجر سنة 55، وأوصاه أن يعزل عقبة في لين وحسن معاملة، ولكن أبا المهاجر لم يعمل بوصية مسلمة، وأساء إلى عقبة، وضيق عليه، حتى أصبح كالأسير عنده، وخرب ما أسسه في القيروان.

وحارب أبو المهاجر الروم والبربر، وأسلم على يديه كسيلة بن لَمَزْم الأوْرَبي البربري، من أكبر رؤساء البربر إذ ذاك... ولما بلغ معاوية ما فعله أبو المهاجر بعقبة، بعث في إشخاص عقبة إليه، ولما وصل عقبة إلى مصر ركب إليه مسلمة بن مخلد، وأقسم له معتذراً أنه أوصى أبا المهاجر به خيراً... وقد أشار بعض الناس على مسلمة أن يبقي عقبة على إفريقية فأبى... ويظهر من هذا أن مسلمة يريد إمارة إفريقية لنفسه، ولكن لا نعتقد أن معاملة أبي المهاجر لعقبة تلك المعاملة السيئة كانت بإيحاء من مسلمة لأننا نستبعد أن يقسم مسلمة حانثاً في اعتذاره لعقبة... وكل ما في الأمر أن أبا المهاجر أساء التصرف مخالفاً رغبة سيده في الإحسان إلى عقبة... ولما قدم عقبة على معاوية اعتذر له معاوية مما فعل أبو المهاجر في ولايته سنة 56هـ[1].

---

(1) قال في شذرات الذهب: في سنة 56 مات شيخ إفريقية وقاضيها، وأول من ولد بها من المسلمين عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الشيباني الإفريقي الزاهد الواعظ. روى عن أبي عبد الرحمن الحبلي وطبقته، وليس بقوي في الحديث.

الفتح الثامن
إمارة عقبة الثانية

كانت إمارة عقبة الثانية بدء دور جديد في فتح إفريقية، ومبعث نشاط في البربر ما كان ملحوظاً قبلها... والذي يتتبع الحوادث منذ بداية الفتح على يد عمرو إلى إمارة عقبة الثانية لا يجد للبربر أثراً ملحوظاً في الدفاع عن إفريقية. وكل ما لاقاه العرب من مقاومة كانت من الروم، ولا يخلو الأمر أن يكون مع الروم جماعة من الأفارقة والبربر يؤدون مهمة الجند، أو المحافظة على الأمن، في الحصون والمدن ولكن لا توجد تلك التجمعات الكبيرة، والجموع المحتشدة لرد غزو العرب مثل ما وقع أيام عقبة... وكل مقاومة الروم كانت في المدن الساحلية وما قاربها. وإذا نظرنا إلى الطرق التي كان العرب يسلكونها في غزوهم على إفريقية نجدها تمر في قلب بلاد البربر، وفي وسط منازلهم. فكانوا يمرون ببرقة وهي موطن لواتة. ومنها يمرون بسرت وما بعدها إلى طرابلس وهي مواطن هوارة، ويقع على يسار طريقهم إلى إفريقية جبل نفوسة، ولم يذكره أحد بعد فتح شروس، وهذه القبائل الثلاثة من أكبر وأقوى قبائل البربر، ومع ذلك لم يذكر المؤرخون لهم أي نشاط عدائي ضد العرب قبل إمارة عقبة الثانية... فوجود هذه الكثرة من قبائل البربر في طريق العرب إلى إفريقية، ولا يبدون مقاومة عنيفة في ردهم عن بلادهم دليل على أن البربر نظروا إلى فتح العرب نظرة لا تتفق مع رغبات الروم، نتيجة لما لاقوه منهم من سوء معاملة واستبداد فظيع. وسنرى للبربر بعد إمارة عقبة الثانية مواقف في مقاومة العرب حافلة بالشجاعة، بل والاستماتة في الدفاع عن إفريقية... وأقرب ما يعلل به موقف البربر من الروم أن البربر كانوا مستائين من معاملة الروم واستبدادهم بهم، فكانوا لا

يبدون نشاطاً في نصرتهم. وقد انتهزوا فرصة غزو العرب فخلوا بينهم وبين الروم تشفياً فيهم، وأملاً في أن تدول دولتهم التي استعبدتهم واستنزفت أموالهم، ثم يكون لهم مع العرب شأن آخر.

ولكن البربر بعدما رأوا ملاحم سبيطلة بين العرب والروم، وبعد أن قتل جرجير وهزمت جيوشه، وكذلك بعدما رأوه من نشاط عقبة في فتح الجنوب، وبناء القيروان وإرساله السرايا للغزو في جميع جهات إفريقية - بعد هذا كله تغير رأيهم في العرب وعلموا أنهم قوم لا تلين قناتهم، وأنهم عازمون على جعل إفريقية عربية إسلامية مهما كلفهم ذلك من تضحية، ومهما كان الثمن، وأخذوا يتجمعون ضد العرب، وأخذت مقاومتهم تشتد شيئاً فشيئاً، وظهرت شدتها في تلك الجيوش التي قادها كسيلة الأوربي ضد العرب، وفيما لاقاه عقبة من تلك الجموع الحاشدة.

ونعود إلى الكلام على إمارة عقبة الثانية:

بقي عقبة بعيداً عن إفريقية نحو عشر سنوات، وفي سنة 62، وبعد أن توفي معاوية بنحو سنتين ولاه يزيد بن معاوية على إفريقية، وعزل أبا المهاجر الذي كان أساء عزل عقبة وأهانه.

وقدم عقبة إفريقية، وكان في مقدمة جيشه زهير بن قيس البلويّ، وما زال أبو المهاجر فيها، فسلم الأمور إلى عقبة، وقام بها خير قيام، وقاتل الروم والبربر فكان موفقاً، واصطحب معه أبا المهاجر، وكان لا يمكنه من شيء حتى من القتال، ويقال إنه كبَّله بالحديد، وفي شعر أبي المهاجر الآتي ما يدل على ذلك.

ولما عزم عقبة على المسير من القيروان إلى المغرب لفتحه قال لبنيه: «يا بني إني بعت نفسي من الله، ولا أدري ما يقضي عليَّ في سفري، يا بني إني أوصيكم بثلاث خصال، فاحفظوها ولا تضيعوها: املأوا صدوركم من كتاب الله فإنه دليل على الله. وخذوا من كلام العرب ما تهتدي به ألسنتكم ويدلكم على مكارم الأخلاق، وأوصيكم ألا تداينوا، ولو بعتم العباء، فإن

الديْن ذل بالنهار وهمٌّ بالليل، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم، ولا تقبلوا العلم من المغرورين فيفرِّقوا بينكم وبين الله، ولا تأخذوا ديناً إلا من أهل الورع فإنه أسلم لكم، ومن احتاط سلم ونجا[1]».

وتوغل عقبة في بلاد المغرب إلى أن وصل إلى بحر الظلمات، وكان أبو المهاجر برفقته، وأدخل عقبة فرسه في البحر حتى وصل الماء إلى صدره، وقال: «اللهم إني أشهدك ألاّ مجاز، ولو وجدت مجازاً لاجتزت، اللهم إنك تعلم أني إنما أطلب السبب الذي طلبه وليك ذو القرنين ألا يعبد إلا الله، اللهم اشهد أني قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد من دونك[2]».

بعد أن وصل عقبة إلى البحر قفل راجعاً، وفي أثناء رجوعه حاصرته قبيلة المصامدة في جبال درن، فأنجدته زناتة في جموع هائلة، وخلصته من الحصار ومر بمدينة تعود في أرض الزاب، فدعا أهلها إلى الإسلام فلم يجيبوا فحاربهم وكان معه كسيلة بن لَمَزْم البرنسي من قبيلة أوْربة البربرية[3] ومن زعماء البربر المشهورين وكان قد أسلم، ولكنه ارتد ـ قالوا لمعاملة ساءته من عقبة ـ فأخبر البربر بقلة جيش عقبة[4] وانضم إليهم، وجمع جموعاً كثيرة لقتال عقبة.

---

(1) خلاصة تاريخ تونس.

(2) هذا الدعاء مجموع روايات متعددة.

(3) قال في سبائك الذهب: بنو أوربة: بفتح الهمزة والراء المهملة والباء الموحدة: بطن من البرانس من البربر، وهم بنو أوربة بن برنس، بن بربر، غلب عليهم اسم أبيهم فقيل لهم أوربة.

(4) قال العلاّمة حسن حسني في خلاصة تاريخ تونس: «ولما كان عقبة بوسط طريقه تقدمته جيوشه ولم يبق معه إلا نفر قليل من جملتهم كسيلة الزعيم البربري الذي كان أسيراً عند عقبة، فاغتنم كسيلة تلك الفرصة، وأعلم قومه بقلة المسلمين، فهجم البربر فجأة على عقبة وأصحابه، وكانوا نحو ثلاثمائة، فقاتلوا قتال الأبطال، وتكاثر عليهم العدو فاستشهدوا جميعاً في مصرع واحد سنة 64.

وفي أثناء ما كان راجعاً سرح كثيراً من الجيش ليلحقوا بالقيروان. وفي ذات يوم كان عقبة في قلة من أصحابه نحو 300 فتعرض لهم كسيلة في جموع هائلة من البربر وأحاطوا بهم من كل جانب. ولما رأى أبو المهاجر ذلك تمثل بقول الشاعر[1]:

كفى حزَنا أن تُطعنَ الخيلُ بالقنَا وأتركَ مشدوداً عليَّ وثاقيا
إذا قمتُ عنَّاني الحديدُ وأغلقت مصارعُ من دوني تصمُّ المناديا

ولما بلغ ذلك عقبة أطلق وثاقه وقال له الحق بالمسلمين وقم بأمرهم، وأنا أغتنم الشهادة، فلم يفعل أبو المهاجر، وقال: وأنا أيضاً أغتنم الشهادة، ولما أيقن هو وأصحابه أنه أحيط بهم، وألا مفر من الموت، استلوا سيوفهم وكسروا أغمادها، وقاتلوا حتى استشهدوا عن آخرهم رضي الله عنهم. وكان معهم أبو المهاجر. وما زالت قبورهم معروفة بمدينة تهود، يزورها المسلمون، ويتذكرون عندها تضحية أصحاب رسول الله ﷺ في سبيل دين الله... وكانت هذه الواقعة سنة 63[2].. واجتمع على كسيلة البربر وعظم شأنه، وكثرت جموعه، وانتشرت الردة بين البربر.

زهير بن قيس:

لم يكن يد للمسلمين من تولية رئيس عليهم بعد قتل عقبة، فوقع اختيارهم على زهير بن قيس البلويِّ. وعمر بن محمد القرشي، واستمر العرب في قتال البربر، وكان ابن الكاهنة من رؤسائهم البارزين فتغلبوا عليه، وقتلوه هو وأصحابه. واشتدت حميّة البربر، وتألبوا على العرب في جموع

(1) قيل إن هذا الشاعر هو أبو محجن الذي جاء يرسف في قيوده إلى النبي ﷺ في بيعة الشجرة ورده المسلمون إلى المشركين بمقتضى شروط كانت بين الفريقين.

(2) في خلاصة تاريخ تونس أن هذه الواقعة كانت سنة 64، وسيأتي أن كسيلة دخل القيروان في المحرم سنة 64. وإذاً فتكون الواقعة في أول المحرم، ودخول كسيلة القيروان في آخره.

كبيرة، فتراجع زهير وأصحابه إلى القيروان، وكان لمقتل عقبة أثر سيء على نفوس المسلمين، وظهر أثر ذلك على قوتهم المعنوية، فإنه لما زحف كسيلة في جيوشه الكثيرة على القيروان حاول زهير أن يستنهض همم المسلمين للقائه، فامتنعوا لكثرة ما كان معه من الجيوش، فارتحل زهير وكثير من الناس إلى برقة وبقي بعضهم بطرابلس، ودخل كسيلة القيروان في المحرم سنة 64.

وكانت القيروان قد مر على تأسيسها نحو أربع عشرة سنة، فكثر عمرانها وتم بناء مسجدها الجامع، وأصبحت مأوى للمسلمين من العرب والبربر على السواء. ولم ينكل كسيلة بسكانها لأسباب قد يكون من أهمها صلة القرابة التي ما تزال بين من أسلم من البربر وبين قبائلها الضاربة حول القيروان، وصلة الدين التي بينهم وبين العرب. وقد يكون من أسباب عدم التنكيل بهم عدم المقاومة فخاف كسيلة اضطراب الأحوال إذا امتدت يده إلى سكان القيروان بسوء، فأبقى عليها واكتفى بخروج زهير منها[1]. وبقي كسيلة في القيروان خمس سنوات واتفق هذا مع موت يزيد بن معاوية مع ما قارنه من فتنة الضحاك بن قيس مع المروانية ففشت الردة في زناتة والبرانس.

سار زهير إلى أن وصل برقة فنزل بها سنة 64. وتولى عبد الملك بن مروان الخلافة سنة 65 وقد استفحل أمر كسيلة في إفريقية، فطلب الناس إلى عبد الملك أن ينظر في أمر إفريقية، فقال: «ما أرى [أولى] بطلب دم عقبة من الروم والبربر من زهير لدينه وورعه». وهذه شهادة من عبد الملك بمكانة زهير، واحترامه. وكان قد مر على زهير في برقة نحو خمس سنوات. وقد أمده عبد الملك بالجيوش والأموال وهو في برقة، وأمره بالسير إلى إفريقية لمحاربة البربر وحماية المسلمين فيها.

---

(1) في معالم الإيمان: جاء كسيلة بجموعه إلى القيروان ففر كثير من الناس، وبقي فيها العجزة والمثقلون من أصحاب التجارة فأرسلوا إلى كسيلة يطلبون الأمان فأمَّنهم.

ولاية زهير بن قيس

جاء في كتاب المؤنس «أن زهير بن قيس البلويّ قدم إلى إفريقية والياً عليها من قبل عبد الملك بن مروان سنة 69، وقد أمده بالأموال والرجال والخيل، وحشد له وجوه العرب». وذكر في خلاصة تاريخ تونس أن زهيراً كان عاملاً على برقة لعبد الملك بن مروان.

سار زهير في الطريق الساحلي. وإذا استثنينا غزوة عقبة التي مر فيها بمغمداس، وسلك فيها الطريق الذي يمر جنوبي جبل نفوسة قاصداً إلى غدامس، ومنها ذهب إلى إفريقية نجد كل الغزوات في فتح إفريقية سلكت الطريق الساحلي. ولا ندري هل ترك زهير نائباً عنه في برقة أولاً، ولم يذكر أحد ماذا فعل في طرابلس.

ولما قارب القيروان سمع به كسيلة، فرحل عن القيروان خوفاً أن يثور بها المسلمون، الموجودون فيها انتصاراً لزهير، وقال لمن معه: «إن هزمناهم إلى أطرابلس كان المغرب لنا الدهر، وإن هزمونا كانت الجبال والصحراء قريبة منا نتحصن بها».

ودخل زهير القيروان بدون حرب، ولم يكتف باحتلال المدينة بل اقتفى أثر كسيلة خارج القيروان. وفي اليوم الرابع من خروج كسيلة من القيروان صبحه زهير بجيش المسلمين، وبعد أن صلى الصبح اشتبكوا في حرب طاحنة حتى يئس الناس من الحياة، وقتل كسيلة بممس، وقتل من البربر خلق كثير، وأمعن العرب في مطاردتهم وقتلهم، وحالوا بينهم وبين الجبال حتى لا يتحصنوا بها، كما قدَّر كسيلة حينما اقترح على من معه الرحيل من القيروان وكان البرانس ـ قوم كسيلة ـ طعمة لهذه المعركة

الدامية.. وبعد معارك زهير مع البربر وقتل كسيلة كثر نزوحهم من إفريقية والتجأت جمهرتهم إلى المغرب.

ورأى زهير أن مهمته قد انتهت، خصوصاً وأنه أخذ بثأر عقبة بقتل كسيلة، وكان شديد الورع كثير العبادة، فخاف أن تتأثر نفسه بنشوة النصر فتطمح إلى الحكم، فرجع إلى المشرق، وترك القيروان آمنة يسكنها كثير من العرب.. وبسبب هذه المعركة ذل البربر، واضمحل شأنهم، ولزموا القلاع والحصون ورهبوا جانب العرب.

ولم نطلع على الأسباب التي دعت زهيراً لترك القيروان ورجوعه إلى المشرق وما زالت الحال في حاجة إلى توطيد حكم العرب - إلا أنه لشدة ورعه خاف أن تتأثر نفسه بنشوة النصر فتطمح إلى الحكم.

قلنا آنفاً: لا ندري هل ترك زهير نائباً عنه في برقة أو في طرابلس، وقد وجد الروم فرصة لقطع الطريق عن زهير عند رجوعه إلى الشرق، فجهزوا جيشاً في صقلية واحتلوا به برقة، وأساءوا معاملة المسلمين فيها وصاروا يترقبون رجوع زهير، ويتربصون به، ولو ترك زهير من يلي أمر برقة لما تمكن الروم من احتلالها، ولاتخذ لكل ما يحدث من حركاتهم ما يحبطها، ولكنه لم يفعل، فكانت فرصة انتهزها الروم للغدر به وبالمسلمين في برقة. وهكذا كان.

يقول صاحب المؤنس إن زهيراً لما وصل إلى درنة عرج على طريق البحر في نفر قليل من أصحابه، فرأى بعض المسلمين في أسر النصارى يحاولون إدخالهم في مراكبهم، فاستغاثوا به فحاول إنقاذهم، ولكن جموع الروم تغلبت عليه هو وأصحابه، وقاتلوا حتى استشهدوا عن آخرهم، وكان ذلك سنة 71. ووافقه على هذه الرواية صاحبا نزهة الأنظار والحلل السندسية. وسيأتي سبب آخر لاستشهادهم.

وقصة زهير هذه أشبه بقصة عقبة التي قتل فيها، فهو بانحيازه إلى طريق الساحل في نفر قليل من أصحابه فعل كما فعل عقبة حينما أمر الجيش

بالذهاب إلى القيروان وبقي في نفر قليل. وقد ذهب زهير ضحية هذا التدبير، كما ذهب عقبة ضحية تدبير مثله.

وفي مثله يقول الشاعر:

فتى مات بين الضرب والطعن ميتةً   تقوم مقام النصر إن فاته النصرُ
وما ماتَ حتى ماتَ مضْربُ سيفه   من الضَّرب واعتلت عليه القنا السمْر

الفتح التاسع
حسان بن النعمان

بعد أن استشهد عقبة، ورجع زهير إلى المشرق انتشرت الردة في إفريقية وبين البربر كعادتهم في كل مرة بعد أن يرجع العرب إلى الشرق، وتمردوا على العرب، ونقضوا عهودهم ونزعت نفوسهم إلى الثورة، قال بعض المؤرخين إن فتح حسان هو الفتح الحقيقي.

وكان حسان بن النعمان آن ذاك والياً على مصر من قبل عبد الملك ابن مروان، فأضاف إليه ولاية المغرب ابتداء من أجدابية، ويشمل إفريقية كلها، وكان ذلك سنة 77[1] وأمره بالخروج إلى إفريقية لفتحها، وأطلق يده في أموال مصر يعطي منها من شاء كيف شاء، في جيش قوامه أربعون ألف مجاهد على رواية ابن عذارى وغيره ويقول ابن الأثير إنه أكبر جيش دخل إفريقية فيما تقدمه من الغزوات. ولما وصل طرابلس نزل بها، واجتمع عليه من كان خرج من إفريقية...

ويقول ابن عبد الحكم: وأرسل مقدمة جيشه إلى إفريقية برياسة هلال ابن ثروان اللواتي وزهير بن قيس البلويّ فغزت بعض الأطراف، وأصابت

---

(1) هذا التاريخ ذكره صاحب المؤنس، وصاحب لب التاريخ وفي خلاصة تاريخ تونس وفي البيان المغرب أنه كان سنة 78. وذكر صاحب الخلاصة أنه عيِّن سنة 78، ودخل إفريقية سنة 79. وذكر ابن عبد الحكم أنه كان سنة 73. وفي الحلل السندسية سنة 79. وفي نزهة الأنظار سنة 69، ودامت ولايته إلى سنة 88. ونجد بين بعض هذه التواريخ تضارباً كبيراً، وبالرغم على ما بينها من اختلاف نجدها مجمعة على دخول حسان إفريقية، ونجد بينها شبه إجماع على تفاصيل ما حدث له فيها.

غنائم.. وهنا نلاحظ أن زهيراً كان في مقدمة جيش حسان، وهذا يخالف ما تقدم من أنه استشهد في رجوعه إلى المشرق بعد قتل كسيلة، ويؤيد قصة استشهاده الآتية.

ويظهر أن طرابلس بقيت على عهدها مع العرب من أيام عقبة فمر بها حسان آمناً مطمئناً. ويؤيد هذا أن أحداً من المؤرخين لم يذكر أن حساناً فتحها في هذه الغزوة، وأيضاً فقد قدمنا أن صلتها ببرقة أصبحت أقوى من صلتها بحكم جرجير في إفريقية. وأيضاً فإنه لما هزمته الكاهنة نزل في أراضيها الشرقية.

وإذا نظرنا إلى أن هلال بن ثروان هو أول بربري مسلم تسند إليه رياسة جماعة من العرب الفاتحين دلنا هذا على أن البربر أصبحوا يطمئنون للعرب الفاتحين وللدِّين الجديد.

وصل حسان إلى القيروان ودخلها بدون أن يعترض سبيله أحد[1]، وهذا يدل على أن الروم لم يدخلوها بعد أن غادرها زهير، ويؤكد أنها بقيت على ولائها ويرجح أن طرابلس بقيت أيضاً على مثل هذا الولاء.

ولما استقر حسان سأل أهل القيروان عن أعظم الملوك في إفريقية، فدلوه على حاكم قرطاجنة، وكانت أكبر مدينة في الشمال الإفريقي، وبها خلق كثير من الروم والبربر، وكانت في منعة من كثرة الجند والحصون القوية، وقربها من البحر فغزاها حسان، وقاتل أهلُها دونها قتال المستميت. وطال حصارها. وهدم العرب قناتها التي كانت تأتيها بالماء من جبل زغوان

(1) يقول صاحب معارك الإسلام الكبرى: «رسم حسان خطة خاطفة للقضاء على الروم بالاتجاه بقواته مباشرة إلى عاصمتهم قرطاجنة، وكانت على درجة كبيرة من المناعة، فضرب حولها الحصار، ثم اقتحمها بقواته، وترك بها حامية صغيرة وانصرف عائداً إلى القيروان، وفي طريقه إلى العاصمة الإسلامية (القيروان) جاءته الأنباء بأن سكان قرطاجنة تمكنوا من احتلال المدينة بمعاونة البربر وطردوا حاميتها، وأسرعوا إلى تحصينها فعاد بقواته مسرعاً حيث حاصرها مرة أخرى وافتتحها عنوة، ثم أمر بتخريبها وهدمها».
ويؤخذ من هذا أن حساناً قصدها رأساً وأنها فتحت مرتين.

فقطع عنها الماء. ولم يزل بها العرب حتى فتحوها عنوة، وخربوا بعض أبراجها حتى لا يحتمي بها الروم والبربر مرة ثانية. وقتل فيها خلق كثير. وفرّ بعض أهلها في السفن البحرية إلى صقلية والأندلس. ولجأ بعض البربر إلى برقة، ورجع حسان بجيشه إلى القيروان. وانتهوا من فتح قرطاجنة سنة 78.

وهذه أول غزوة عربية على قرطاجنة، لأن العرب كانوا يتحاشونها لمناعتها وقربها من البحر. وكانت تعتز بما حولها من المدن، حتى إذا ما تداعت الواحدة تلوى الأخرى انفسح الطريق بينها وبين العرب، ووجد حسان القوة الكافية لمهاجمتها ووفق في فتحها.

ثم سأل حسان: هل بقي أحد من البربر له شوكة؟ فقالوا له: امرأة ساحرة بجبال أوراس تسمى الكاهنة، فإن قتلتها دان لك المغرب كله.

الكاهنة

امرأة بربرية ذات حول وسلطان على البربر، احترفت السحر والكهانة ومن هذا الطريق اكتسبت سلطانها.. اسمها داهيا بنت ماتيا[1] الزناتية. أو بنت ينفاق، أو بنت تابتة. وقال ابن خلدون: اسمها دهيا. وهي من قبيلة جراوة، من زناتة القبيلة البربرية المشهورة. ويقال إن جراوة تهودت قبل الإسلام.

وكانت الكاهنة بارعة في علم الكهانة، تستوحي الشياطين علم ما غاب عنها. وكانت قوية الإرادة، شديدة البطش، استطاعت بقوتها أن تملي إرادتها على البربر وتحكمهم. وقد أضفت على نفسها ـ من طريق الكهانة ـ صفة البركة والولاية، فكان العامة يعتقدون فيها ذلك. وقد أمكنها أن تهيمن على عقولهم من هذا الطريق، طريق الدجل والشعوذة، واستعملت سلطانها إلى

(1) في خلاصة تاريخ تونس: دهيا بنت تابتت.

أبعد حد في تمكين هذه الحقيقة من عقولهم، وبذلك سهل عليها أن تسودهم وتسيطر عليهم... وقد شمل نفوذها أكثر إفريقية، وكان الروم يهابونها، واستغلوها ضد العرب إلى أبعد حدود الاستغلال، ويطيعها البربر طاعة عمياء... وهي تقيم بجبال أوراس[1].

وقد رأى حسان أنه لا بد له من القضاء على هذه الكاهنة حتى يمكنه فتح إفريقية ونشر تعاليم الإسلام فيها، فجمع جيشه وغزاها بجبال أوراس، والتحم الفريقان في معارك كانت دامية، وكانت من أشدها معركة وادي سكتاتة، فقد نزل فيها البلاء بالمسلمين، وهزم حسان وجيشه، وقتل من العرب خلق كثير، وأسر منهم ثمانون رجلاً. ومن شدة ما نزل بهم سمي ذلك اليوم يوم البلاء، وسمي الوادي وادي البلاء... وأفلت حسان مع من بقي من جيشه، والتجأ إلى جهة طرابلس. وطاردته الكاهنة حتى حدود قابس الشرقية ثم رجعت ولم تدخل القيروان...

وأرسل حسان بخبر هزيمته إلى عبد الملك وقال له: «إن أمم المغرب ليس لها غاية، ولا يقف أحد منها على نهاية، كلما بادت أمة خلفتها أمم، وهم من الحفل والكثرة كسائمة النعم[2]». فأرسل إليه عبد الملك أن ينتظر حيث أدركه كتابه، فأدركه في أراضي سرت من الناحية الغربية، فأقام بها خمس سنوات ينتظر المدد، وبنى بها قصرين ما زالت آثارهما تعرف بقصور حسان وأتاه المدد سنة 84.

وبعد هزيمة حسان استرد الروم قرطاجنة، وأنزلوا فيها حامية كبيرة بقيادة البطريق يوحنا سنة 78 وقد تقاسم النفوذ مع الكاهنة، فاهتم هو بإعادة سيطرة الروم على الساحل، وترك ما وراء الساحل من الجنوب للكاهنة وخلا الجو للكاهنة في إفريقية، وعاد نفوذها عليها ما عدا القيروان، وأحسنت إلى من أسرتهم من العرب، وأطلقت سراحهم.

---

(1) الأوراس: سلسلة جبال في الجنوب الشرقي من قسنطينة بالجزائر.

(2) البيان المغرب.

وقد علمت ـ من طريق الكهانة ـ أن العرب سيتغلبون عليها ويزيلون ملكها، فأبقت لديها من الأسرى خالد بن يزيد العبسي ليكون لها واسطة عند العرب إذا ما أحدق بها الخطر، وكان وسيم الوجه حسن الطلعة، وقد أرادت أن يكون لها محرماً لتتمكن من التحدث إليه كابن لها، وهي له كأم، ولم يكن أمامها ما يحقق هذه الرغبة إلا طريق الرضاع، فقالت له: أريد أن أرضعك لتكون أخاً لولديّ، فقال لها: كيف يكون ذلك وقد ذهب منك الرضاع؟ فقالت له: إننا جماعة البربر لنا رضاع نتوارث به إذا عملناه، ثم عمدت إلى سويق من دقيق الشعير فلتَّتْه بزيت ـ وهو ما يسميه المغاربة بسيسة ـ ثم جعلته على ثدييها، ثم أمرت ولديها أن يأكلا مع خالد من ذلك الدقيق الملتوت بالزيت، فقالت لهم: «أنتم إخوة من الرضاع».

خراب إفريقية:

رأت الكاهنة ـ في تفكيرها الخاطىء أن العرب إنما يأتون إلى إفريقية طمعاً في ثروتها وخيراتها، فأشارت على قومها بأن العرب إنما يأتون إلى إفريقية طمعاً في أشجارها وثمارها، ويقصدون المدن طمعاً فيما فيها من الذهب والفضة، ونحن إنما نريد من إفريقية المزارع والمراعي والحيوانات، فإذا ما قطعنا أشجارها وخربنا مدنها وقراها انقطع العرب عن غزوها، فالرأي عندي تخريب المدن والحصون وقطع الأشجار حتى تنقطع أطماع العرب[1] ـ وكانت إفريقية بساتين مزروعة، ومروجاً خضراء، وقرى متصلة، ومدناً منظمة من طرابلس إلى طنجة ـ فأرسلت عمالاً إلى كل ناحية يقطعون الشجر، ويحرقون الغابات والأحراش، ويهدمون القرى والمدن، حتى أتت على كل ما فيها من عمران، وتركتها خراباً يباباً من طرابلس إلى طنجة، وانعدم العمران الإفريقي كله. فاضطر كثير من البربر والروم إلى الجلاء عن إفريقية إلى الأندلس وجزائر البحر الأبيض... وقد ضربت الكاهنة بهذه السياسة النسائية الخرقاء الرقم القياسي في الجهل بمعرفة مقاصد العرب

(1) خلاصة تاريخ تونس.

وتقدير العواقب، فكان عملها هذا أقوى معول استعمل في هدم ملكها وزوال سلطانها. واستاء الروم والبربر مما فعلت، وفترت عزائمهم في الدفاع عن إفريقية، لأنهم إنما كانوا يدافعون عن أملاكهم وموارد رزقهم، وحيث إن الكاهنة أتت على ما فيها من موارد الثروة وجمال العمران وتركتهم ضحية للفقر والجوع فليس من سبب يدعوهم إلى بذل أرواحهم من أجل أرض أصبحت خراباً بلقعاً. وذهب كثير منهم إلى حسان يشكون إليه فعل الكاهنة ويستنجدون به عليها فأكرم وفادتهم، وانتهزها فرصة للانتصار بهم على الكاهنة، فأجاب طلبهم.

وكانت الكاهنة تهدف بعملها هذا إلى صرف أنظار العرب عن إفريقية وهماً منها أنهم إنما يترددون عليها للسلب والنهب. وفاتها إنما كانوا يغزون إفريقية لنشر تعاليم الإسلام، وإنقاذ البربر من ظلمات الوثنية وما كانوا فيه من شرك، ولذلك فإن عملها جاء بضد ما قصدت إليه، وكان سبباً في فشل سياستها الخرقاء[1].

واتصل حسان بخالد سراً يستفسر منه عن أمر الكاهنة والبربر، فكتب إليه في ظهر كتابه: «إن البربر متفرقون لا نظام لهم ولا رأي عندهم، وإنما ابتلينا بأمر أراد الله عز وجل أن يكرم به من مضى، فاطْو المراحل، وجدّ في السير، فإن الأمر لله، ولن يسلمك إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[2].

وجاء المدد من عبد الملك إلى حسان سنة 84 بأربعين ألف مقاتل.

---

(1) إن ما قامت به الكاهنة من أعمال التخريب في إفريقية هو أساس خرابها. وقد زاد في خرابها تلك الحروب الطاحنة المتوالية فما كانت تنتهي من حرب حتى تنشب أخرى، فلم تتح لأهلها فرصة يستردون فيها ما فقدت من منابع الثروة ووسائل العمران. وقد أسس فيها حسان مبادىء عمران، وأحدث فيها الأغالبة من وسائله كثيراً، ولكنها لم تعد إلى ما كانت عليه.

(2) ذكر هذا صاحب الحلل السندسية. ويقال إن خالداً أرسل الجواب في رغيف من خبز الملة، فأخبرت قومها بأن زوال ملكهم في شيء يأكلونه. وأرسل جواباً آخر في قربوس السرج، فأخبرتهم بأن زوال ملكهم في خشبة.

ورأى حسان الفرصة سانحة لإعادة الكرة على الكاهنة لتذمر البربر من أعمالها ولوصول المدد فجمع جيشه وسار إلى إفريقية، ولقيه الروم والبربر مستغيثين به مما فعلت الكاهنة، فاستبشر خيراً وتقدم لملاقاتها، والتقى بجيشها بقصر ألجم[1] - وكانت متحصنة فيه - ونشبت بينهما حرب قاسية ظن أنها الفناء، وظهر الضعف على جيوش الكاهنة... وكانت أخبرت ولديها ويزيد بن خالد العبسي أنها مقتولة لا محالة، وكأنها ترى رأسها يركض به فارس إلى جهة المشرق. فقال لها خالد وابناها: إذا كان الأمر كذلك فاتركي البلد لحسان وارجعي بنا، فقالت: كيف أفر وأنا ملكة والملوك لا تفر، فأقلد قومي عاراً إلى آخر الدهر؟ فقالوا لها: ألا تخافين على قومك؟، فقالت: إذا أنا مت فلا أبقى الله منهم أحداً. ولما أحاطت بها جيوش العرب وعلمت أنها مقتولة لا محالة طلبت من خالد بن يزيد أن يطلب الأمان لابْنيها من حسان، وقالت له: «إنما تبنيتك لمثل هذا اليوم»، وأمرت ولديها وخالداً أن يذهبوا بها إلى حسان، فذهبوا إليه ليلاً، وأخذ لهما خالد الأمان، وقال لحسان: لقد علمت من طريق الكهانة أنها مقتولة... ولما احتدم القتال نزلت إلى المعركة بنفسها ثائرة ناشرة شعرها، وقاتلت حتى انهزمت فتبعها حسان حتى قتلها بمكان ما زال يعرف ببئر الكاهنة بقرب جبال أوراس، وهو موطن جراوة قبيلة الكاهنة.. وقيل قتلها بطبرقة. ويقال إن حساناً قطع رأسها وأرسله إلى عبد الملك سنة 84[2].. وبعد قتلها أخلد البربر إلى الطاعة

(1) قصر أو حصن ألجم، هو من أشهر حصون إفريقية وأمنعها، يبلغ علوه مائة ذراع، ودوره ميل حوصرت فيه الكاهنة. وجاء في رحلة محمد بك فريد أنه ما بين صفاقس وسوسة، وهو بقايا تياترو روماني قديم ضخم البناء، ويتكون من ست طبقات كلها من الحجر. وتوجد بجواره قرية عربية تسمى الجُم، واسمها الروماني توسدروس مدينة صغيرة بعمل المهدية في منتصف الطريق بين سوسة وصفاقس، اشتهرت بأنها ملعب لمبارزة الحيوان: طوله 150 متراً وعرضه 125، وارتفاعه 36 متراً، وهو من أكبر المراسح الموجودة في العالم، وما زال هذا البناء قائماً يقصده السياح من جميع الآفاق.

(2) يقال إنها كانت ضخمة الجسم جدّاً، حتى إنها لما قتلت قال من رآها: إن الأترجة يمكن أن تتدحرج بين كتفيها وعجيزتها لكثرة اللحم حول فقار ظهرها.

واطمأنت نفوس أكثرهم إلى الإسلام.

وطلب البربر الصلح من حسان، فاشترط عليهم أن يقدموا له اثني عشر ألفاً من المحاربين يكونون في صفوف الجهاد، فرضوا، بذلك، وولى عليهم ابني الكاهنة، كل واحد على 6000، وأرسلهم إلى المغرب للجهاد يقاتلون الروم ومن لم يسلم من البربر. وكان مقتل الكاهنة في رمضان سنة 84[1]، وحسن إسلام كثير من البربر ودانوا بالطاعة. وبموت الكاهنة وجلاء الروم عن قرطاجنة دانت إفريقية بأسرها للعرب، وانتهى الصراع الدامي الذي استمر أكثر من ستين سنة بين العرب من ناحية، والروم والبربر من ناحية أخرى.

وبعد قتل الكاهنة توجه حسان بجيشه إلى قرطاجنة للقضاء على الروم، وبعد معركة عنيفة سقطت في يد العرب، وهزم البطريق يوحنا فجمع من بقي من جنوده في أسطول وعاد بهم إلى القسطنطينية. وكان هذا آخر عهد الروم بإفريقية وودَّعوها الوداع الأخير.

وتفرغ حسان لتنظيم الإدارة الإفريقية فدوَّن الدواوين، وجعل اللغة العربية في دواوين الحكومة هي الرسمية، ووزع الأراضي على فقراء البربر بعد أن كانت ملكاً للحكومة البيزنطية، فازدادوا رغبة في الإسلام. وفرض الخراج على الأراضي، وجدد بناء جامع القيروان. وبإصلاحات حسان انتعشت إفريقية وكثر عمرانها ولا شك أن هذا الإصلاح شمل طرابلس لأنها كانت تابعة للقيروان إذ ذاك.

ويمكن القول بأن أعمال حسان في إفريقية كانت بداية لنهاية فتحها، لأن ما وضعه حسان من نظم مبدئية، وإشراك البربر في الفتح، وفي رياسة الأجناد، وما لمسوه من مساواتهم بالعرب في الحقوق ـ كل هذا كان سبباً

(1) قال في البيان المغرب: إن غزوات حسان وقتله الكاهنة لم تضبط تواريخها، وإن عزل حسان بن النعمان، وتولية موسى بن نصير كانا من عبد العزيز، وبدون إذن أخيه عبد الملك.

في اطمئنان نفوسهم نحو العرب، وميلهم لاعتناق الإسلام، وقوي أملهم في الاستقرار فأخذوا يعملون - باعتناقهم الإسلام وانحيازهم إلى صفوف العرب - لقتال الروم ومن انضم إليهم من الأفارقة والبربر للتعجيل بقطع دابر الفتنة واستتباب الراحة.

وحكمت الكاهنة البربر خمساً وثلاثين سنة، وعاشت مائة وسبعاً وعشرين سنة وبعد قتلها تشتت شمل البربر، ولم تبق لهم رياسة تجمعهم مما سهل انضمامهم إلى حسان وغيره من رؤساء العرب الفاتحين... وكان وجودها ووجود كسيلة أكبر عقبة في تقدم الفتح الإسلامي. وبعد موتهما أخذ الإسلام في الانتشار، وقواعده في الرسوخ... وأخذ البربر يشاركون في وضع الخطط في إفريقية، وصاروا يقتسمون الفيء مع المجاهدين، وحسنت طاعتهم.

ورجع حسان إلى القيروان وأقام بها، واستقامت له الأمور، وهو أول من دوَّن الدواوين، ووضع الخراج على الروم، وعلى من بقي من البربر معهم على دين النصرانية، وجدد جامع القيروان في رمضان سنة 84 ما عدا المحراب.

ورجع حسان إلى المشرق ومعه ما غنمه من إفريقية، وكان شيئاً كثيراً. ويقال إنه كان معه من سبي البربر خمسة وثلاثون ألفاً... وولَّى على الصدقات حنش بن عبد الله الصنعاني، واستخلف على إفريقية رجلاً من جنده يقال له صالح.

ولما مر ببرقة ولَّى على خراجها إبراهيم بن النصراني، واستمر في طريقه إلى أن وصل مصر، فتلقاه عبد العزيز بن مروان، وأخذ كثيراً مما معه من الغنائم التي كان يريد تسليمها إلى الخليفة عبد الملك بن مروان في دمشق.. وكان حسان أدرك هذه النتيجة من عبد العزيز فأخفى كثيراً من الذهب والجواهر في قرب الماء، ولولا هذه الحيلة لما أفلت من عبد العزيز إلا بما عزفت عنه نفسه.

وسار حسان إلى دمشق حيث الخليفة عبد الملك، وترك زهير بن قيس في مصر مع عبد العزيز بن مروان. وسر عبد الملك بغنائم حسان وكثرتها، وكان من بين الغنائم وصائف بربريات كثيرات ذات جمال بارع وحسن رائع. وقد ازداد فرحه حينما أفرغ بين يديه ما كان معه في القرب من جواهر وذهب.

ومن المؤرخين من يروي أن حسان وصل إلى دمشق بعد وفاة عبد الملك وتولي الوليد الخلافة. ويقول صاحب هذه الرواية إنه لما رأى الوليد كثرة ما معه من الغنائم عرض عليه أن يرده إلى عمله في إفريقية فأبى، وقال: «لا ألي لبني أمية»، لما رآه من تعسف عبد العزيز معه في مصر.

مقتل زهير بن قيس

هذه رواية ابن عبد الحكم في سبب قتل زهير وأصحابه تخالف الرواية الأولى:

بعد أن غادر حسان برقة لم تلبث الأمور فيها أن اضطربت، ونقض الروم عهدهم وثاروا على من فيها من المسلمين والعرب واحتلوها، وفر إبراهيم بن النصراني وترك برقة وأهل ذمتها في أيدي الروم فاستبدوا بحكمها، وبلغ خبرها عبد العزيز بن مروان بمصر، فندب لها زهير بن قيس، فجمع نحو سبعين مقاتلاً، ولكن عبد العزيز لم يمهله حتى يجمع عدداً كبيراً من المقاتلين وألح عليه في الخروج، فخرج زهير مغاضباً له وقال له: «أنا خارج لا ردني الله إليك» فلما بلغ درنة لقيه الروم في جموعهم الكثيرة، ولم يكن مع زهير إلا أصحابه السبعون، فقاتلوهم قتالاً شديداً حتى استشهدوا عن آخرهم[1]. وما زالت قبورهم مشهورة بدرنة، وتعرف بقبور الصحابة تقصد للزيارات، وتلتمس عندها الرحمات. . . هذا ملخص رواية ابن عبد الحكم. . . وبينها وبين الرواية التي تقدمت خلاف؛ فإن في هذه الرواية كان زهير عاملاً لعبد العزيز، أما في الأولى فكان عاملاً لعبد الملك.

ويمكن القول بأن زهيراً لم يقتل حينما كان راجعاً من غزو إفريقية في المرة الأولى، بل مر ببرقة وذهب إلى دمشق، لأنه يستبعد أن يمثل الدور الذي وقع لعقبة وهو أن يبقى في نفر قليل من أصحابه ويدخل ديار العدو، ويترك بقية الجيش تسير في طريق آخر ليفاجئه العدو مثل ما فاجأ عقبة،

---

(1) ذكر بعض المؤرخين أن قتلهم كان سنة 76 وهو يختلف مع ما قبله.

وكان حاضراً مع عقبة، ووقع الحادث على مرآى منه. . ويبعد كذلك أن يقتل زهير وأصحابه ولا تقوم بقية الجيش بأي عمل لإنقاذه، أو للأخذ بثأره. . وبعد أن تجاوز حسان برقة إلى مصر احتل الروم برقة، وابتدأت الرواية الثانية.

ومما يرجح صحة الرواية الثانية أن زهيراً خرج مغاضباً لعبد العزيز، وكان معه نفر قليل، ومن المعقول تغلب الروم عليهم، ولم يكن في الرواية الأولى ما يشبه حديث زهير مع عبد العزيز حتى نقول إنه اشتبه الأمر على الراوي، فنسب ما في إحدى الروايتين للأخرى، بخلاف وجوده ببرقة فقد كان في المرة الأولى والثانية، وهذا هو محل الاشتباه بين الروايتين فاشتبه الأمر على بعض الرواة، فبعضهم نسب قتله لوجوده في المرة الأولى، وبعضهم نسبه لوجوده في المرة الثانية. . . وقرائن الأحوال تدل على صحة الرواية الثانية. ويؤكد صحتها وجود زهير مع حسان في إفريقية، وأن حسان لما رجع إلى الشرق كان معه زهير وتركه في مصر مع عبد العزيز، ولا يوجد مثل هذا في الرواية الأولى حتى يكون موضع اشتباه.

عطية بن يربوع

لم يذهب دم زهير هدراً. فإنه بعد قتله انتدب لقتال الروم في برقة عطية بن يربوع المذحجي، واستغاث ببعض المسلمين الذين كانوا منتشرين في بادية برقة وحوالي درنة، فاجتمع حوله نحو 700 رجل، وزحف بهم على الروم فقاتلهم حتى هزمهم، ولم ينج منهم إلا من فر بالسفن في البحر. وبلغ ذلك عبد العزيز بن مروان بمصر، فأرسل عبده طارقاً في جماعة من أشراف مصر ليتولى أمور المسلمين بدرنة ويصلي بهم[1]، ولكن الناس استاءوا من أن يحكمهم ويصلي بهم عبد، ووصل خبر ذلك إلى عبد العزيز، فأرسل إلى طارق يعتقه، وأقام بدرنة. وقصة محاربة عطية بن يربوع للروم انتقاماً لزهير مما يرجح الرواية الثانية.

تقدم أن حسان بن النعمان قال للوليد: لا ألي لبني أمية. وعلى رواية من يقول إن حسان وجد عبد الملك في دمشق، فإنه يقول أيضاً إذ عبد الملك أقر حسان على إمارة المغرب وأمره بالرجوع إليه، ولما وصل حسان إلى مصر طلب من عبد العزيز أن يخلع طارقاً عن ولاية درنة فأبى، فقال له حسان: إذاً أرجع إلى عبد الملك فقال له: ارجع، وكان عبد العزيز يريد أن يولي على المغرب موسى بن نصير. ورجع حسان إلى الشام لمقابلة عبد الملك، ولكن عبد الملك ما لبث أن توفي.

---

(1) كانت عادة المسلمين في صدر الإسلام أن يصلي بهم الحاكم. وكانت الإمامة من وظائفه.

الفتح العاشر
موسى بن نصير[1]

كان عبد العزيز بن مروان يمانع في رجوع حسان إلى إفريقية، ويريد أن يولي عليها موسى بن نصير لصداقة بينهما، فولاه عليها، وقدمها سنة 88[2] وكان بها صالح الذي استخلفه حسان فعزله.

وكانت فتوحات حسان قد مهدت لموسى بن نصير، وأخذت الأحوال تستقر، ووجد موسى القيروان هادئة، ونهض لقتال الروم ومن يناصرهم من البربر والأفارقة، واستمرت فتوحاته إلى الأندلس، وأرسل إلى عبد العزيز بن مروان بمصر غنائم كانت كثرتها محل إعجاب الناس وتقديرهم لشجاعة موسى بن نصير، وأعجب به عبد العزيز أيما إعجاب.

ورجع موسى إلى المشرق سنة 94 أو سنة 95 بطلب من الوليد. وقد نكبه الوليد نكبة ما زالت يضرب بها المثل في عدم الوفاء للمخلصين، أدت به إلى الفقر المدقع بعد تلك الغنائم التي يضرب المثل بكثرتها.

---

(1) هو أبو عبد الرحمن اللخمي، ولد سنة 19 للهجرة. وهو من كبار التابعين. وكان كريماً وشجاعاً مع معرفة بأمور الحرب، قيل إنه لم يهزم له جيش قط. وتوفي وهو في طريقه إلى الحج مع سليمان بن عبد الملك سنة 96 أو 97.

(2) ذكر هذا التاريخ صاحب «لب التاريخ». وذكر غيره أنه كان سنة 78 أو 79. وهذا لا يصح، لأن حساناً كان في هذا التاريخ موجوداً في إفريقية. وقال في نزهة الأنظار إنه كان سنة 79، ونقل فيها عن جذوة المقتبس أنه كان سنة 97 وهذا غير صحيح لأن موسى توفي سنة 96 أو 97. وهذا تضارب كبير، وتفاوت كثير بين هذه التواريخ، والذي يرجع إلى تاريخ وجود حسان في إفريقية يظهر له ترجيح مجيء موسى إليها سنة 88. وجاء في خلاصة تاريخ تونس للعلامة حسن حسني أنه كان سنة 85.

وموسى بن نصير أول من عني بتعليم البربر القرآن وعلوم الدين. فقد قال ابن خلدون: «ارتد البربر في إفريقية عن الإسلام اثنتا عشرة مرة، ولم يثبتوا على الإسلام إلا في عهد موسى بن نصير». وفي زمنه أخذت الأحوال تستقر في طرابلس[1].

ولاية بكر بن عيسى القيسي على طرابلس

كانت طرابلس قد شملها الهدوء الذي شمل القيروان. وجاء موسى وهي على الحال التي تركها عليها حسان. ولم نعلم اسم من عيَّنه حسان عاملاً عليها وقبل أن يغادر موسى إفريقية ولى على طرابلس بكر بن عيسى القيسي، واستخلف على إفريقية ابنه عبد الله، وعلى الأندلس ابنه عبد العزيز... وكان معه في غزوته على الأندلس المنيذر الصحابي. ورجع المنيذر من الأندلس إلى طرابلس، وتوفي بها، وقبره مشهور لا يختلف فيه اثنان.

والمنيذر ـ بصيغة التصغير ـ يماني، من مذحج أو من كندة. ويقال له المنيذر الإفريقي لطول بقائه فيها[2]. وقد صحب النبي ﷺ. وروى عنه رشدين بن سعد، وحي بنُ عبد الله من طريق عبد الرحمن الحبلي.

محمد بن يزيد القرشي

ولاه سليمان بن عبد الملك على إفريقية والمغرب سنة 97. ومما أوصاه به سليمان: «اتق الله وحده لا شريك له، وقم فيما وليتك بالحق والعدل، وقد وليتك إفريقية والمغرب كله»، ودامت ولايته سنتين وأشهراً. ولم نطلع على من ولاه على طرابلس.

(1) البستاني في دائرة المعارف.
(2) ذكر ابن السكن والبغوي أنه سكن إفريقية.

عبد الله بن كريز

ولاه سليمان بن عبد الملك على إفريقية، وعلى رأس المائة دانت له من برقة إلى السوس، وعزله عبد العزيز بن مروان، وولى بعده محمد بن يزيد الأنصاري.

إسماعيل بن عبيد الله ابن أبي المهاجر

ولاه عمر بن عبد العزيز على إفريقية في المحرم سنة 100، فكان خير أمير، قال ابن خلدون: وأسلم جميع البربر في أيامه. وأرسل معه عشرة من فقهاء التابعين وعلمائهم يفقهون الناس في أمور الدين، ويبينون لهم الحلال والحرام. وهم:

1 - عبد الله بن يزيد المعافري (أبو عبد الرحمن الحبلي) وهو رئيس البعثة، انتفع منه أهل إفريقية، وبث فيهم علماً كثيراً، وهو الذي بنى جامع الرباط، وتوفي بالقيروان سنة 100، ودفن بباب تونس، وهو باب من أبواب سور مدينة القيروان قبالة مدينة تونس.

2 - سعيد بن مسعود التجيبي (أبو مسعود) صاح بأمير إفريقية عقب صلاة الجمعة في مظلمة، فقال له: إنا بالله لا بك، فقضى حاجته.

3 - إسماعيل بن عبيد الأنصاري، مولى الأنصار، ويعرف بتاجر الله، كان كثير الصدقة والعبادة، محسناً غاية الإحسان، وسمي تاجر الله لأنه جعل ثلث كسبه لله تعالى يصرفه في وجوه الخير. وكان يتجر في المولَّدات، فسمع بكاء في القافلة، فقال: ما هذا؟، فقيل له: المولَّدات اللائي وجهتهن يبكين مع آبائهن وأمهاتهن وإخوتهن، فبكى وقال: «إن دنيا بلغت بي إلى أن أفرق بين الأحبة إنها لدنيا سوء، أشهدكم أن من كان لها أب، أو أم، أو أخت، فهي حرة لوجه الله عز وجل» فأنزل من المحامل سبعين مولدة فاعتقهن كلهن . وهو الذي

بنى جامعاً وسوقاً بالقيروان، نسبا إليه. وله قصص كثيرة في عمل المعروف، والإحسان إلى الفقراء، تظهر ما لهذا الرجل من القدر العظيم. توفي مجاهداً في فتح صقلية سنة 107.

4 - عبد الرحمن بن رافع (أبو الجهم) التنوخي، من فضلاء المؤمنين وهو أول من ولي قضاء القيروان من قبل موسى بن نصير، توفي بالقيروان سنة 113.

5 - موهب بن حي المعافري، كان من أهل الفضل والعلم أقام بالقيروان وتوفي بها.

6 - حيان بن أبي جبلة القرشي، مولى بني عبد الدار، كان من أهل الفضل والصلاح. سكن القيروان وانتفع به أهلها. توفي سنة 125.

7 - بكر بن سوادة الجذامي (أبو ثمامة). كان من أهل الفضل. سكن القيروان وتوفي بها سنة 128.

8 - جعثل بن عاهان بن عمير البتور (أبو سعيد) ولي قضاء الجند بإفريقية لهشام بن عبد الملك. توفي أول خلافة هشام قريباً من سنة 115.

9 - إسماعيل بن عبيد الله الأعور بن أبي المهاجر القرشي المخزومي، (أبو عبد الحميد) كان من أهل الدين والزهد. سكن القيروان، وسار في المسلمين بالحق والعدل، وعلّمهم السنن. أسلم على يديه خلق كثير من البربر. توفي بالقيروان سنة 132.

10 - طلق بن جابان، ويقال له طلق بن جعنان الفارسي.

هؤلاء هم الفقهاء العشرة من خيرة فقهاء التابعين أرسلهم عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية ليفقهوا الناس في دينهم، فكانوا عند ظنه بهم، وكانوا للناس قدوة صالحة.

ولما ثار الخوارج على حنظلة بن صفوان بطنجة جمع هؤلاء العشرة فكتبوا له رسالة ليقتدي بها المسلمون ويعتقدوا ما فيها وهذا نصها:

«بسم الله الرحمن الرحيم: من حنظلة بن صفوان إلى جميع أهل طنجة أما بعد. فإن أهل العلم بالله وبكتابه وسنة نبيه محمد ﷺ قالوا: إنه يرجع جميع ما أنزل الله عز وجل إلى عشر آيات: آمرة، وزاجرة، ومبشرة، ومنذرة، ومخبرة، ومحكمة، ومشتبهة، وحلال، وحرام، وأمثال: فآمرة بالمعروف، وزاجرة عن المنكر، ومبشرة بالجنة، ومنذرة بالنار، ومخبرة بخبر الأولين والآخرين، ومحكمة يعمل بها، ومتشابهة يؤمن بها، وحلال أمر أن يؤتى، وحرام أمر أن يجتنب، وأمثال واعظة: فمن يطع الآمرة، وتزجره الزاجرة، فقد استبشر بالمبشرة، وأنذرته المنذرة. ومن يحلِّل الحلال ويحرِّم الحرام، ويردّ العلم فيما اختلف فيه الناس إلى الله، مع طاعة واضحة، ونية صالحة، فقد أفلح وأنجح، وحيي حياة الدنيا والآخرة... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وما زال ابن أبي المهاجر يدعو البربر إلى الإسلام حتى أسلم منهم خلق كثير وانتشرت بينهم تعاليم الإسلام، وأذعنوا لحكمه، ورسخت فيهم كلمته، وتناسوا الردة. وجاء في المؤنس: وعلى رأس المائة الأولى دانت إفريقية للعرب من برقة إلى السوس، ولم تقم بعدها للنصارى والبربر قائمة، فمنهم من دخل الإسلام ومنهم من بقي على النصرانية فضربت عليه الجزية، وانحاز بعض النصارى إلى عدة قرى كانوا متجمعين فيها.

يزيد بن أبي مسلم

ولاه يزيد بن عبد الملك على إفريقية سنة 201، وهو مولى للحجاج ابن يوسف وكان ظالماً مثله، وقد ضاق البربر بظلمه وسئموا حكمه، فقتلوه بعد شهرين من ولايته، وولوا عليهم محمد بن يزيد ـ وهي ولايته الثانية ـ وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك معتذرين من قتل يزيد بن أبي مسلم فقبل عذرهم وأقرَّ ما فعلوه.

وقد اقترن قتل يزيد بظهور دعوة الخوارج في إفريقية، وقد وصلت إليهم من العرب القادمين من العراق، فلقنوها البربر، فوجدت في نفوسهم أرضاً خصبة، فنمت فيها وأخذت في الانتشار.

الخوارج

ولمناسبة ذكر الخوارج، وما تركوه في إفريقية من أثر سيء يحسن أن نقول عنهم كلمة نحاول فيها تحديد زمن دخولهم إفريقية، أو ما يقرب من التحديد، كما نحاول ذكر بعض فرقهم المخالفة لتعاليم الإسلام الصحيحة ورغبات العرب.

لما اشتد الخلاف بين سيدنا علي ومعاوية، وانحاز أكثر الصحابة إلى علي، وانحاز بعضهم إلى معاوية، وحصلت بينهم حروب كان من أشدها هولاً واقعة صِفِّين، فكان من آثارها أن دعا بعض الناس إلى التحكيم بين الفريقين المتحاربين. ولما رضي سيدنا علي بالتحكيم انشقت عليه جماعة من أتباعه - وكانوا ممن وافق على التحكيم - ونقضوا بيعته، ولم ينضموا إلى معاوية، وقالوا كلمتهم المشؤومة: «لا حكم إلا لله» فسموا الخوارج.. وقد قال لهم سيدنا علي: إن هذه كلمة حق أريد بها باطل. وبذل سيدنا علي جهده في إقناعهم، فأصروا على العناد، وأبوا إلا الخروج على عليّ ومعاوية فأصبحوا قسماً ثالثاً لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. وقاتلوا سيدنا عليًّا وحزبه قتالاً مريراً كانوا أثبت فيه للموت من الجبال للرياح.

ومنذ أن خرجوا على سيدنا عليّ انفتح باب الفتنة في المسلمين فلم يسدّ بعد، ولن يسد ما دام لهم أنصار على وجه الأرض.

ولم يقتصروا في نشر مذاهبهم الهدامة على الشرق فقط، بل تسللت رسلهم إلى المغرب، وبثوا فيه ضلالاتهم، ووجدت دعوتهم الخبيثة من البربر آذاناً صاغية فتمكنت من نفوسهم، وتفرقوا فيها أحزاباً وشيعاً تسمت كل منها باسم رئيسها. فمنهم النكَّار، ويقال لهم النكارية[1]، والصفرية[2]

(1) قيل إنهم هم الذين أنكروا على عبد الوهاب بن رستم وخرجوا عليه.

(2) ينسبون إلى ابن صفار أحد زعماء الخوارج.. وقيل إنهم اصفرت وجوههم من كثرة العبادة فسموا صفرية.

والأزارقة[1]، وغيرهم، واختلفت أهواؤهم فيما يدعون إليه، وأعان على نشر ضلالاتهم بين البربر الجهل الذي كان مخيماً على عقولهم، وكان همّ أصحاب هذه النحل محاربة مبادىء الإسلام، وانتزاع الدولة من العرب بأي ثمن كان. ورفعوا راية العصيان في وجه الحكومة الأموية. وانتشرت بدعة الخوارج في كافة المغرب، ويقول صاحب خلاصة تاريخ تونس: وانتشرت في الأندلس لأنها كانت إذ ذاك تابعة لإفريقية.. وقد ساعد على انتشارها ما طرأ على الدولة الأموية من ضعف بسبب ظهور الدعوة العباسية[2].. وقد كان لظهور دعوة الخوارج في إفريقية أسوأ الأثر على الإمارات العربية في إفريقية، ولم يستقم أمرها إلى أن استقر أمر الدولة العباسية، فاهتموا بإفريقية اهتماماً خاصاً.

ونحن إذ نعرض في هذه الكلمة إلى الخوارج فلا نعني الإباضية؛ فإن لنا فيهم كلمة خاصة.. وقد دخل مذهبهم إفريقية بعد أن انتشرت فيها مذاهب الخوارج.

وقد تسربت بدعة الخوارج إلى إفريقية في زمن غير معين. ويظهر أنه كان في أواخر المائة الأولى من الهجرة، وأوائل المائة الثانية منها، جاء بها جماعة الأفاقين من المشرق. وكانت قبيلة مضغرة ـ من البربر البتر ـ أول من اعتنق المذهب الخارجي، وانتشر فيها. وكان لرئيسها ميسرة المضغري نشاط في الدعوة إليه. وكان ميسرة يعرف بالحقير. ويفهم من كلام ابن خلدون في الخوارج في الجزء السادس: أن ميسرة المضغري هو أول من ناصر نحلة الخوارج ودعا إليها، وجمع الناس على تأييدها وقد تلقاها من الأفاقين القادمين من المشرق.

ولما ولي عبد الله بن الحبحاب على إفريقية سنة 114 استعمل عمر بن

(1) أصحاب نافع بن أزرق الحنفي، وهم يتبرأون من سائر المسلمين، ويكفِّرونهم، ويستبيحون قتل الأطفال لأنهم كفار عندهم.

(2) خلاصة تاريخ تونس.

عبد الله المرادي على طنجة والمغرب الأقصى، فنقم البربر عليه سيرته فيهم فقتلوه سنة 125. وولى ميسرة بدله على طنجة عبد الأعلى بن جريج الإفريقي، وهو رومي الأصل، ومولى للعرب وأصل خارجية البربر، وتقدم إلى السوس فقتل، وانتشرت الفتنة، واضطرب حبل الأمن في المغرب، فأرسل عبيد الله بن الحبحاب إليه جيشاً بقيادة خالد بن أبي حبيب الفهري، فلقيه ميسرة في جموع كثيرة من البرابرة فهزمه وقتل خالد، وازدادت فتنة الخوارج بالمغرب وقويت شوكتهم. وكان من أكبر قواد ميسرة المشهورين طريف أبو صبيح البرغوطي[1] وكان قائماً بدعوة الصفرية.

المذهب الإباضي[2]

الإباضية جماعة من المسلمين يتعبدون على مذهب عبد الله بن إباض.

---

(1) سيأتي في تعليقنا على برغواطة أن صالح بن طريف ادعى فيهم النبوة في أيام هشام بن عبد الملك سنة 125 وهو من أصل يهودي فانظره هناك.

(2) بمناسبة ذكر المذهب الإباضي نذكر نبذة عن العزابة منقولة عن طبقات الإباضية. العزابة واحدهم عزابي. هذه اللفظة استعملت لقباً لكل من لازم الطريق وطلب العلم وسير أهل الخير وحافظ عليها وعمل بها فإن حصّل جميع هذه الصفات سمي عزابياً، وإن حافظ على السير والعمل بها فقط سمي به، وإن حصّل العلم دون السير والعمل بها والمحافظة عليها لم يسم بهذا الاسم...

وهذا الاسم مشتق من العزوب عن الشيء وهو البعد عنه، فاستعير لمن بعد عن الأمور الدنيوية الشاغلة عن الآخرة...

وأول ما استعمل هذا اللقب في أيام الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر من أهل النصف الأول من المائة الخامسة كما ذكره المؤلف لما أسس الحلقة ورتب قوانينها.

والحلقة اسم للجماعة تجتمع على الشيخ يعلمهم العلم، ويلقنهم السيَر، ويبصرهم في الدين بحسب ما يفتح الله على كل واحد منهم...

التلميذ اسم الواحد المبتدي عند الدخول في الطريق سواء كان طالب فنون أو مقتصراً على الصلاحية فقط. وأصل هذه اللفظة فارسي.

الختمة اجتماعهم لذكر الله والدعاء عند طلوع الشمس وعند غروبها بشيخ أو بغير شيخ، (قلت: ونظام العزابة يشبه نظام الطرق في البلاد الشرقية).

وإباض - بكسر الهمزة، كما في أنساب السمعاني - قرية بعرض اليمامة، كانت عندها وقعة خالد بن الوليد مع مسيلمة الكذاب نسب إليها عبد الله بن يزيد الفزاري الكوفي. وقيل إباض اسم والده، وهو من بني مرة ابن عبيد من بني تميم، وهو صاحب المذهب، وإليه ينسب الإباضية[1].

وهذا المذهب معدود من مذاهب المسلمين التي تعتمد في أصولها على الكتاب والسنة، ويتفق في كثير من أصوله وفروعه مع مذاهب أهل السنة، ولا يختلف معها إلا في مسائل قليلة. وما من مذهب من مذاهب أهل السنة إلا وهو يخالف غيره في بعض المسائل. وقد قال ابن حزم في كتابه «الفصل في الملل والنِّحل»: إن أصحاب عبد الله بن يزيد الإباضي الفزاري الكوفي أقرب إلى أهل السنة من بقية الفرق الأخرى.

وهذا المذهب منتشر في مسقط وعُمان من بلاد العرب بالمشرق، وفي الزنجبار من بلاد السودان، وفي إفريقية، في طرابلس وتيهرت بالجزائر.

وأول دخول هذا المذهب إلى إفريقية في أوائل المائة الثانية من الهجرة سنة 120 وما بعدها تقريباً.

ويؤخذ من كتاب السير للشماخي أن أول من أدخله إلى إفريقية سلمة ابن سعيد قام من المشرق إلى إفريقية في أوائل المائة الثانية لنشره والدعوة إليه. وكان شديد التعصب له. وذكر الشماخي في كتاب السير أنه كان يقول: «وددت أن يظهر هذا الأمر - يعني مذهب الإباضية - يوماً واحداً، فما أبالي أن تضرب عنقي».

وقد اجتمع به في إفريقية عاصم السدراتي[2]، وإسماعيل بن درار الغدامسي، وداود القبلي النفزاوي، وعبد الرحمن بن رستم، وأخذوا عنه

---

(1) ظهر عبد الله بن يزيد الإباضي أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في أوائل القرن الثاني من الهجرة.

(2) توفي بالقيروان أيام أن كان أبو الخطاب يحاصرها.

مذهب الإباضية، ولما رأى رغبتهم في دراسة هذا المذهب رغَّبهم في السفر إلى البصرة لتلقي المذهب على أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة البصري مولى بني تميم[1]، وكان إذ ذاك من علماء الإباضية المبرزين في المذهب، فرحلوا إليه أربعتهم، وانضم إليهم بالبصرة عبد الأعلى بن السمح: أبو الخطاب الحِمْيري اليمني، فأصبحوا خمسة، ومكثوا عند أبي عبيدة خمسة أعوام يأخذون عنه المذهب الإباضي حتى أصبحوا من أعلامه، ثم رجعوا خمستهم إلى إفريقية في زمن غير معين، ويظهر أنه فيما بين الخمسة والعشرين إلى الأربعين من القرن الثاني الهجري.

وعبد الرحمن بن رستم[2] بن مهران من مُسْلِمَة القادسية وهو من الفرس حج مع أبيه وأمه، فمات أبوه بالحجاز، وتزوجت أمه برجل من القيروان، فذهب معها إلى القيروان. وأول ما تلقى مذهب الإباضية على مسلمة بن سعيد.

وهؤلاء الخمسة يسميهم الإباضية حملة العلم، وهم عندهم في محل التعظيم والإجلال، ومن أئمتهم المشهورين.

وبعد رجوع هؤلاء الخمسة إلى إفريقية زاد انتشار مذهب الإباضية وكثر أنصاره كما نذكره في حروب أبي الخطاب.

وقد انحصر أتباع هذا المذهب في إفريقية في البربر. وكان أكثر أتباعه من هوارة، ولمَاية، ونفزاوة، ومغيلة، ومغراوة، وبني يفرن من زناتة.

وقد توارثوه خلفاً عن سلف، وما زالوا يدينون به إلى الآن، وقلَّ أن تجد في طرابلس بربرياً على مذهب مالك، كما يندر أن تجد فيها عربياً على مذهب الإباضية.

وأصحاب هذا المذهب في طرابلس سكان جبل نفوسة من البربر، وسكان زوارة.

---

(1) توفي في ولاية أبي جعفر.

(2) بويع له بإمامة الإباضية سنة 160 أو 162 بتاهرت.

ويعد بعض المؤرخين مذهب الإباضية نحلة من نحل الخوارج. ولكن الإباضية ـ وفي مقدمتهم علماؤهم ـ لا يعترفون بنسبتهم إلى الخوارج، ويعدون هذا من غلطات التاريخ التي لم يتحرَّ فيها المؤلفون الحقيقة. وقد اجتمعت بالأستاذ إبراهيم أطفيش في مصر، وهو من أكبر علمائهم بل ومن أئمتهم في عصرنا، فأكد أن نسبتهم إلى الخوارج غير صحيحة، وأنهم ليسوا منهم في شيء. وقد تقدم قول ابن حزم أنهم أقرب الفرق إلى أهل السنة.

ومن مذهبهم تحريم دماء مخالفيهم وأموالهم، ويرون حلَّ مناكحتهم والتوارث معهم.

وما زلنا نشاهد في النفوس شيئاً من الحزازات بين المالكيين والإباضيين في طرابلس بسبب اختلاف المذاهب. ومن الأسف أن توجد الحزازات في النفوس بسبب اختلاف المذاهب وكلها إسلامية. وقد نشأ عن هذا شيء من التنابذ، والتنابز بالألقاب، والطعن في العقائد، بل صار وسيلة إلى الحرب التي حرمتها جميع الأديان والمذاهب.

ويجب أن نفهم أن جميع مذاهب المسلمين تصدر عن أصل واحد هو كتاب الله وسنة رسول الله اللذين جاء بهما محمد ﷺ الذي أجمعت جميع الفرق الإسلامية على تكريمه وتعظيمه.

ويكفي لأن نكون كتلة واحدة، وإخواناً متحابين متحدين أننا نعبد الله على تعاليم هذا النبي الكريم.

وقديماً كان الاختلاف في الرأي حتى في فهم كتاب الله وسنة رسول الله. وكلما استنار العقل البشري أمكنه أن يدرك حقائق الأشياء على وضعها الصحيح. إذاً فمن الواجب أن يحترم كل منا رأي أخيه. وقد شاهدنا في مصر ـ وفيها مسلمون ومسيحيون ـ أنهم كانوا يقولون ـ حينما أرادوا الاتحاد ضد الإنجليز ـ الدين لله والوطن للجميع. وهذا مع اختلافهم في الدين، فما بالنا لا نقول ذلك ونحن مختلفون في المذهب فقط.

يجب على الطرابلسيين ـ من العرب والبربر، وقد جمع بينهم الإسلام،

ووحدت بينهم مصالح الوطن، وأحكم صلتهم الجوار والنسب ـ أن يعيشوا إخواناً متحابين في الله، متحدين في العمل لخير وطنهم، عاملين على النهوض به، وتخليصه من سيطرة الغاصب، ولكل في مذهبه ما يصحح به دينه، ويوصله إلى الله الذي وجدت المذاهب لمعرفته وفهم شرائعه.

بشر بن صفوان

ولاه يزيد بن عبد الملك على إفريقية سنة 103. وقد نكل بآل موسى ابن نصير تنكيلاً فظيعاً، واستصفى أموالهم لنفسه، ثم رجع إلى يزيد فوجده توفي سنة 105 وتولى هشام بن عبد الملك، فرده إلى إفريقية، وغزا صقلية، ورجع إلى القيروان فمات بها سنة 109، وكانت ولايته سبع سنين.

عبيدة بن عبد الرحمن

ولاه هشام بن عبد الملك على إفريقية في المحرم أو في صفر سنة 110 مكان بشر، وكان محل إقامته القيروان.

يزيد بن مسلم الكندي

كان عاملاً على طرابلس من قبل عبيدة بن عبد الرحمن، وكان المستنير بن الحبحاب الحرشي قد كلف بغزو صقلية من طرف عبيدة، فتثاقل عن غزوها حتى جاء الشتاء وصعب ركوب البحر، ثم جهز نفسه وغزاها، وبينما هو في طريقه إليها هاج به البحر، وأغرق كل ما معه من السفن بما فيها ومن فيها، ورمى بالسفينة التي كان بها على طرابلس، فأمسكه يزيد حتى جاءه كتاب عبيدة يأمره بالقبض عليه وإرساله إليه موثقاً، فنفذ يزيد أمر عبيدة وأرسل إليه ابن الحبحاب كما أمر، فأوجعه ضرباً، وطاف به القيروان، على حمار تشهيراً به لتقصيره في غزو صقلية، وتأخيره إلى وقت الشتاء حتى كان ذلك سبباً في غرق الجيش وخسارة المسلمين، وعزل هشام عبيدة سنة 114 ودامت ولايته أربع سنين وستة أشهر.

عبيد الله بن الحبحاب[1]

ولاه هشام بن عبد الملك على إفريقية في ربيع الآخر سنة 116، وقيل سنة 114 ويقال إنه هو الذي بنى جامع تونس. وقد ظهر لهشام ـ في عدة مناسبات ـ عجزه عن القيام بأمور المسلمين، وبإخضاع من بقي من البربر مناوئاً للعرب، فعزله في جمادى الأولى سنة 123.

يشعر المتتبع لأحداث إفريقية بأنه منذ أن تولى يزيد بن مسلم 102 إلى أن تولى كلثوم بن عياض سنة 123 قد قل النشاط الحربي في إفريقية، وأهمل أمر الفتح ومحاولة إخضاع من لم يخضع من البربر. ولولا ما كان من أمر عبيدة لابن الحبحاب بغزو صقلية وفشله فيه لقلنا إنه لم يكن هناك نشاط. ويظهر أن هشاماً أدرك هذا، خصوصاً لما ظهر له عجز عبيد الله بن الحبحاب، فتدارك الأمر، وولى على إفريقية كلثوم بن عياض ليجدد النشاط في إخضاع من بقي مناوئاً للعرب.

كلثوم بن عياض

وبلغت أخبار الخوارج في إفريقية هشام بن عبد الملك، فولى عليها كلثوم بن عياض القشيري في جمادى الآخرة سنة 123 وأرسله إليها في جيش قوامه اثنا عشر ألفاً، وخرج معه جماعة من الشام وكتب معه إلى والي كل بلد أن يخرج معه لقتال البربر، فخرج معه أهل مصر، وأهل برقة، وأهل طرابلس، وزحف إلى البربر سنة 123 فلقيه ميسرة ـ من رؤساء الخوارج الصفرية ـ بقرب طنجة، في جموع من البربر كثيرة، واستماتوا في قتاله حتى قتلوه وهزموا جيشه.

وقويت شوكة الخوارج، واقتطعوا المغرب عن طاعة الخلفاء في المشرق.

---

(1) وقيل اسمه عبيد الله بن عبد الرحمن.

ويقول صاحب شذرات الذهب: هزمهم أبو يوسف الأزدي رأس الصفرية الخوارج، ولعل ميسرة هو أبو يوسف أو أحد قواده، واتبعت الخوارج من انكسر من المسلمين فثبت لهم بلخ القشيري ابن عم كلثوم وانتصر عليهم، وقتل أبا يوسف الأزدي رئيس الخوارج.

صفوان بن أبي مالك

لما وصل كلثوم إلى طرابلس، وكان الحاكم عليها صفوان بن أبي مالك، أعد صفوان جيشاً وخرج معه إلى إفريقية، فوصلوا القيروان في رمضان من هذه السنة. وكان الجيش يقدر بنحو ثلاثين ألفاً: عشرة من بني أُمية، وعشرون من مختلف العرب. وخرج كلثوم لقتال البربر، واستخلف على القيروان عبد الرحمن بن عقبة الغفاري، وعلى الحرب مسلمة بن سوادة الجذامي القرشي.

وما زال بعض الرؤساء من البربر يتربصون بالعرب ويتحينون الفرص للوثوب عليهم، ومن هؤلاء الرؤساء عكاشة[1] بن أيوب الفزاري، وهو من قبيلة هوارة من البرابرة الصفرية، وكان يقيم بنواحي قابس، فجمع هوارة وسار بها على مسلمة بن سوادة منتهزاً غياب عياض بن كلثوم عن القيروان، وأرسل عكاشة أخاه إلى صبراتة فحصر أهلها في المسجد، وجعل عليها حبيب بن ميمون.. وبلغ خبر ما حل بأهل صبراتة إلى صفوان حاكم طرابلس، فخرج لنجدتهم، وحاول أخو عكاشة أن يدافع عن صبراتة، ولكنه ما لبث أن غلب على أمره ونجا برأسه منهزماً بعد أن قتل أكثر أصحابه من زناتة وهوارة وغيرهم، ولحق بأخيه عكاشة في قابس.. وكتب كلثوم بن عياض إلى صفوان بطرابلس يستنجده على عكاشة، فأنجده بأهل طرابلس.. ولكن جيوش البربر تكاثرت على كلثوم فقتل قبل أن يصل إليه صفوان في نجدته، ولما بلغ صفوان قابس بلغه قتل كلثوم وأصحابه فرجع إلى طرابلس،

(1) جاء في بعض الكتب بتشديد الكاف.

وتفرق جيش كلثوم، فرجع أهل إفريقية ومصر إلى إفريقية، وذهب أهل الشام إلى الأندلس وكان من بينهم عبد الرحمن بن حبيب الآتي ذكره، وكان ذلك سنة 124 أو 125.

لم ييأس العرب من النصر برجوع صفوان إلى طرابلس وقتل حنظلة بالرغم على مكانتهما المرموقة بينهم. وانفسح المجال أمام البربر، فتحصن سعيد بن بحرة وأصحابه بقابس وتنحى عنها عكاشة بنحو عشرين ك م. . وأعاد العرب جمع صفوفهم، فخرج عبد الرحمن بن عقبة الغفاري في أهل القيروان لقتال عكاشة فلقيه بين القيروان وقابس، فانهزم عكاشة وقتل عامة أصحابه، ثم جمع جموعه وأعاد الكرة على عبد الرحمن، فهزم عكاشة، وأعاد الكرة ثالثة فهزم، وفي الرابعة استعان بعبد الواحد بن يزيد الهواري الصفري فخرج إليهم عبد الرحمن، فقتل عبد الرحمن وأصحابه، وكان ذلك سنة 124 وتقدم عكاشة وعبد الواحد في جموعهما إلى القيروان.

حنظلة بن صفوان الكلبي

بعد قتل عبد الرحمن بن عقبة كان عكاشة وعبد الواحد يهددون القيروان بجموعهما، وأسند هشام بن عبد الملك[1] ولاية إفريقية والمغرب إلى حنظلة بن صفوان في صفر سنة 124، فأخذ في الاستعداد للدفاع عن القيروان.

وعكاشة بن أيوب الفزاري وعبد الواحد بن يزيد من برابرة هوارة. ومن المتمذهبين بمذهب الخوارج الصفرية الذين يستحلون أموال أهل السنة، ويستبيحون نساءهم وقتلهم، وكان معهما من البربر جموع عظيمة قدرت بثلاثمائة ألف. ولما وصلوا القيروان خرج إليهم حنظلة فهزموه، وتقدموا لحصار القيروان، فأعاد حنظلة جمع شمله وتأهب لقتالهم، وأخرج كل ما في خزائنه من السلاح والعتاد، ودعا الله بطلب النصر، وأمَّن المسلمون على

(1) توفي هشام في ربيع الآخر سنة 125. ومدة خلافته 19 سنة وسبعة أشهر، وعشرة أيام.

دعائه، وخرج للقائهم خارج القيروان والتحم الجيشان بمكان يقال له «القرن» قرب القيروان، وكانت حرباً في أبشع صور الحروب القاسية، فهبت ريح النصر على العرب وهزم البربر، وقتل عبد الواحد، وجيء برأسه وبعكاشة أسيراً إلى حنظلة، فقتله حنظلة صبراً. وقتل في هذه المعركة ما يزيد على مائة وسبعين ألفاً، وكان هذا سنة 124 وتسمى واقعة القرن.

وسمع الليث بن سعد بخبر هذه المعركة فقال: «ما غزوة كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر أحب إليَّ من غزوة القرن».

معاوية بن صفوان

كان عامل حنظلة على طرابلس، فكتب إليه حنظلة يستنجده، فأنجده بأهل طرابلس ولما وصل إلى قابس بلغه خبر هزيمة عكاشة وعبد الواحد، فأمره حنظلة أن يتقدم بجيشه إلى حرب البربر بنفزاوة فذهب إليهم وقاتلهم حتى قتل، فبعث حنظلة زيد بن عمرو الكلبي إلى جيش معاوية ورجع به إلى طرابلس.

عبد الرحمن بن حبيب

هو عبد الرحمن بن حبيب بن عبيدة بن عقبة بن نافع. كان من أنصار كلثوم، ومن المنهزمين في معاركه مع عكاشة إلى الأندلس سنة 123. وقتل والده حبيب مع كلثوم. وهو أول متغلب على إفريقية، واستقل بها أيام حكمه عن بني أمية وخلع طاعة أبي جعفر المنصور.

ورجع من الأندلس إلى تونس في جمادى الأولى سنة 127، ودعا أهلها إلى نفسه فأجابوه وحاول حنظلة أن يدخله تحت طاعته فأبى وقتل رسل حنظلة.

واعتزم عبد الرحمن أن يحتل القيروان ويضمها إلى تونس، فأرسل إلى حنظلة يطلب إليه التخلي عنها، وأنه مصر على حربه إن لم يفعل.. وكان

حنظلة تقيّاً ورعاً، فلم يسعه ـ أمام إصرار عبد الرحمن على الحرب ـ إلا أن يتنازل له عن القيروان، حقناً لدماء المسلمين. وكان ذلك في جمادى الأولى سنة 129. ودخل عبد الرحمن القيروان، وتغلب على إفريقية كلها واستقل بها. وكتب إليه مروان بن محمد بولايتها. وفي سنة 131 جدَّد سور طرابلس من جهة البر. . وانتقل الناس إليها من كل مكان.

وفي هذه السنة قتل مروان بن محمد، وانقرضت دولة بني أمية من المشرق، بعد أن ملكت إحدى وتسعين سنة وتسعة أشهر، وخمسة أيام، وتولى الملك فيها أربعة عشر ملكاً. . وظهرت على أعقابها دولة بني العباس. والله يرث الأرض ومن عليها.

الدولة العباسية

وفي سنة 134 تولى الخلافة أبو العباس عبد الله السفاح. وهو أول حاكم في الدولة العباسية فأقر عبد الرحمن بن حبيب على إمارة إفريقية.

إلياس بن حبيب

عين عبد الرحمن أخاه إلياس عاملاً على طرابلس، وما زال العرب إذ ذاك يخافون ثورة البربر وتدبير مكائدهم. وكان رئيسهم في طرابلس عبد الله ابن مسعود التجيبي رئيس الإباضية، فقبض عليه إلياس وضرب عنقه. . ويظهر أن هذا العمل من إلياس لم يقع موقع الرضا من أخيه عبد الرحمن.

حميد بن عبد الله العكي

وأراد عبد الرحمن أن يسترضي الإباضية، فأقال أخاه إلياس وعين بدله حميد بن عبد الله العكي، ولكن هذا لم يرض الإباضية ولم يهدىء من ثورة نفوسهم وأخذوا يتلمسون أسباب الثورة للانتقام من إلياس أخي عبد الرحمن.

عبد الجبار بن قيس

وما زال الإباضية في غضبهم حتى نزعوا إلى الفتنة، وتقدم إلى قيادتهم أحد رؤسائهم وهو عبد الجبار بن قيس المرادي، فالتفوا حوله، وأعلنوا الثورة على العكي، فخرج لمحاربتهم وأناب عنه في القيام بشؤون المدينة بكر بن عيسى. فحاصروا العكي في بعض القرى فطلب منهم الأمان فأمَّنوه، وأخذوا من أصحابه نصير بن راشد مولى الأنصار، فقتلوه في عبد الله بن مسعود التجيبي، وخرج إليهم بكر بن عيسى يدعوهم إلى الصلح فأبوا، وقتلوه، واستمروا في ثورتهم إلى أن استولى عبد الجبار على كل البلاد ما عدا المدينة داخل السور.

يزيد بن صفوان المعافري

لا ندري ما فعل الله بالعكي بعد أن أمَّنه الإباضية في إحدى قرى طرابلس. غير أنه لما لم يمكنه التغلب على الإباضية كتب عبد الرحمن بن حبيب بولاية طرابلس إلى يزيد بن صفوان المعافري، وأرسل مجاهد بن مسلم الهواري إلى هوارة يستألفهم ويغريهم بعبد الجبار، فأقام فيهم شهراً يحاول إغراءهم بعبد الجبار والانتقاض عليه، ولكن هوارة لم تصغ إلى قوله، وطردته فرجع خائباً ولحق بيزيد بن صفوان في طرابلس.

ولم ير عبد الرحمن بن حبيب - وهو في القيروان - بداً من مواجهة القوة بالقوة، فأرسل إلى طرابلس محمد بن مفروق في خيل، وكتب إلى يزيد بالخروج معه فخرجوا لقتال عبد الجبار، فلقيهم هو والحارث بن تليد في أرض هوارة[1]، فقتل يزيد ومحمد بن مفروق، وانهزم مجاهد بن مسلم، ثم اجتمع له جمع كبير، فزحف بهم إلى عبد الجبار والحارث بن تليد،

---

(1) كانت هوارة تسكن السواحل من صرمان تقريباً إلى قرب سرت، وتمتد شرقي جبل نفوسة وجنوبيه.

فهزم مجاهد ثانية، واستولى عبد الجبار والحارث على طرابلس كلها، وطاردت خيل عبد الجبار مجاهد بن مسلم وعمرو بن عثمان، فلجأ عمرو إلى سرت، فأدركته خيل الحارث وقتلوا بعض أصحابه، ونجا هو على فرسه جريحاً، واستولى الحارث على عسكره.

واستفحل أمر عبد الجبار والحارث، ثم اختلفا، فاقتتلا، فقتلا سنة 131 ونكب الإباضية بموتهما نكبة كبيرة.

إسماعيل بن زيان النفوسي

وبعد قتل عبد الجبار والحارث ولّى البربر عليهم إسماعيل بن زيان النفوسي فعظم شأنه، وسار بجيشه إلى قابس، وكان بها شعيب بن عثمان ابن عم عبد الرحمن وكان قد استعد للقاء إسماعيل بن زيان. وخرج عبد الرحمن بن حبيب من القيروان للقاء إسماعيل. وقد كان جيش شعيب، وجيش عبد الرحمن يمثلان كماشة وقع البربر بين فكيها، وقد التقت خيل إسماعيل بخيل شعيب قريباً من قابس، فقتل إسماعيل وأصحابه، وأسر من البربر خلق كثير، وتشتت جمعهم، وأغذّ عبد الرحمن السير إلى طرابلس ومعه الأسرى وكتب إلى عمرو بن عثمان في سرت فقدم عليه. وولى عبد الرحمن على طرابلس عمرو بن سويد المرادي.

وقد سفر الجو بين إلياس وأخيه عبد الرحمن. وصدرت أعمال من عبد الرحمن أوغرت صدر إلياس، وذلك أن عبد الرحمن كان يرسل أخاه إلياس لقتال البربر وإخضاعهم، وكلما حصل انتصار على يديه نسبه عبد الرحمن لابنه حبيب. ومن أجل ذلك صار يتربص به الدوائر.. وقد مرض عبد الرحمن وكان قد كلف إلياس بمهمة، فجاء إلياس ليعوده ويودعه. وقد وجد في وجوده عنده وهو مريض فرصة لقتله، وبينما هو يهم بالانصراف لاحت له منه غرة، فطعنه بسكين بين كتفيه نفذت إلى قلبه، ثم احتزّ رأسه، وتملك أبواب القصر، واحتل القيروان وتولى السلطة.. وكان قتل عبد الرحمن سنة 137. وولايته عشر سنين وسبعة أشهر.

كان إلياس يظن أنه بقتل أخيه عبد الرحمن يتم له الأمر ويستولي على زمام الحكم في القيروان، ولكن النتيجة جاءت بعكس ما قصد إليه، فإن حبيب بن عبد الرحمن ما لبث بعد قتل أبيه أن ثار بعمه مطالباً بدم والده، وحصلت بينهما حروب بقرب القيروان، فطلب حبيب عمه للمبارزة، وقال له: لا داعي لهذا التطاحن بين المسلمين. فلنخرج للمبارزة فأينا قتل صاحبه تم الأمر للثاني واستراح الناس من القتال، فتبارزا، وبعد تطاحن شديد طعن حبيب عمه طعنة أودت بحياته واحتز رأسه، ودخل القيروان ظافراً، ورأس عمه ورؤوس كثير من أنصاره محمولة على الرماح. وكان ذلك سنة 138. ومدة ولاية إلياس بعد قتله أخاه نحو ثمانية عشر شهراً.

ثورة ورفجومة

ورفجومة هذه قبيلة كبيرة من قبائل البربر المشهورة، وهي على مذهب الصفرية إحدى فرق الخوارج الذين يستحلون من أهل السنة ما حرم الله ورسوله.

وما كاد حبيب بن عبد الرحمن يستقر به الحكم في القيروان حتى ثارت به ورفجومة برياسة عاصم الورفجومي، فأرسل عاصم عبد الملك بن أبي الجعدي لقتال حبيب، ولم يصمد حبيب لقتال ورفجومة، فلم يلبث أن قتل في المحرم سنة 140.

وبعد قتل حبيب تغلبت ورفجومة على إفريقية، واحتلت القيروان، وعسفت بأهلها، وأذاقتهم أنواع العذاب، وربطوا دوابهم في المسجد، وقتلوا كل من وجدوه من قريش. واشتد البلاء على أهل القيروان فهجروها فراراً من الظلم، وأرسلوا إلى أبي جعفر المنصور يستنجدون به.

ولم تكن ورفجومة تعبر بهذه القسوة الشاذة عن آراء جميع قبائل البربر وخصوصاً الإباضية منهم، فسرعان ما أنكرت عليها هوارة وزناتة من برابر طرابلس، ونهضوا لقتالها بزعامة عبد الأعلى بن السمح، وسيأتي خبر ذلك.

أبو الخطاب

هو عبد الأعلى، أبو الخطاب بن عبد الرحمن بن السمح [بن عبيد بن حرملة][1] المعافري اليمني، من رجالات العرب المشهورين، وكان إباضي المذهب، ومن أجل ذلك التف حوله البربر الإباضية الذين جمعتهم به نحلة المذهب، وانضووا تحت رايته، وكان من أكبر أصحابهم وأشدهم تمسكاً بمذهبه.. وكان من أشد خصوم سياسة العرب في إفريقية، وقاتلهم انتصاراً لبني مذهبه. وقد أخلص للبربر إخلاصاً جعله منهم في محل التقدير والإعجاب واختاروه إماماً لهم سنة 140.

وأبو الخطاب من حملة العلم الخمسة الذين أخذوا المذهب الإباضي عن أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة بالبصرة، ثم جاء إلى إفريقية مع الأربعة الآخرين.

ولما وصلوا بلدة صياد المجاورة لزنزور اجتمع عليهم كثير من البربر، وكانت بلدة صياد إذ ذاك وما جاورها من مواطن البربر، وكان مذهب الإباضية قد انتشر بينهم بواسطة سلمة بن سعيد وأعوانه. واجتمعت كلمة البربر على أبي الخطاب وانتخبوه إماماً لهم وأصبح عنده جيش عظيم، واتفقت كلمتهم على فتح طرابلس.

ويقول الشماخي في كتاب السير: «فلما بايعوا أبا الخطاب قَبِلَ ذلك ودخل مدينة طرابلس سنة 140 ومعه جماعة المسلمين[2] على حين غفلة من أهلها، وأدخلوا الرجال في الجوالق، فلما توسطوا المدينة أشهروا السلاح وقالوا: «لا حكم إلا لله»[3].

---

(1) الزيادة من كتاب الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ.

(2) يعني جماعة الإباضية.

(3) هذه الكلمة هي التي اتخذها الخوارج ذريعة على سيدنا عليّ وأصبحت شعاراً لهم، ولا ندري كيف يقولها الإباضية وهم ينكرون أنهم من الخوارج.

وقبض أبو الخطاب على عمرو بن سويد المرادي[1] عامل طرابلس من قبل أبي جعفر المنصور وعزله عن الحكم، وخيره بين البقاء في الأمان، وبين الخروج من المدينة فاختار الخروج وسافر إلى المشرق، واستقر أبو الخطاب في طرابلس».

وبعد أن استتب الأمر لأبي الخطاب عين عمر بن يَمكتن عاملاً على سرت... وكان البربر يتوقعون هجوم ابن الأشعث عليهم، من الشرق، فمر أعرابي بابن يَمكتن في سرت، فقال له: نخشى أن يباغتنا محمد بن الأشعث من الشرق. فقال له العربي: «لا يأتيكم ابن الأشعث بغفلة، وهو في جند أمير المؤمنين برجال مشمرين، وخيل مضمرات، وسيوف مهندات، بل يأتيكم جهاراً نهاراً». وقتل ابن يمكتن مع أبي الخطاب[2].

ويقول غير الشماخي إن أبا الخطاب احتل طرابلس في صفر سنة 141 وولى عليها رجلاً من أصحابه يقال له عبد الله رحيمة.

وبعد أن رتب من أمورها ما كانت الحاجة تدعو إليه سار في جيش كبير إلى القيروان لقتال ورفجومة، فخرجت لقتاله خارج القيروان[3] بزعامة عبد الملك الورفجومي. وبينما هم في حرب طاحنة مع أبي الخطاب ثار بهم سكان القيروان، فكانت هذه الثورة سبباً في انهزامهم أمام أبي الخطاب، وقتل رئيسهم عبد الملك، وركبهم أبو الخطاب وقومه بالسيوف، وأسرفوا في قتلهم، واستولى على القيروان سنة 141. وفي هذه السنة بويع بالإمامة.

---

(1) لم يعين الشماخي اسم عامل المنصور. وقد قلت إنه عمرو بن سويد على سبيل التقريب لأنه هو الذي عينه عبد الرحمن بن حبيب عاملاً عليها قبل موته، ولا يبعد أن يكون أبو جعفر أقره بعد وفاة عبد الرحمن.

(2) ملخص من كتاب السير للشماخي.

(3) يظهر أن المكان الذي وقعت فيه هذه الحرب هو رقادة. وسميت رقادة قال البكري: لأن عبد الأعلى بن السمح المعافري «أبا الخطاب» قتل فيها ورفجومة قتلاً ذريعاً، فسميت بذلك؛ لرقاد جثتهم فيها بعضها على بعض. وهي - أي رقادة - من القيروان على أربعة أميال اهـ.

ولاية أبي الخطاب

وباستيلاء أبي الخطاب على القيروان أصبح والياً على إفريقية. وهو أول وال على إفريقية من الإباضية. وقد بلغه أن أبا جعفر المنصور أرسل جيشاً من مصر لإخضاع إفريقية، فاستخلف على القيروان عبد الرحمن بن رستم الفارسي[1] وعاد إلى طرابلس للاستعداد للقاء جيش أبي جعفر. وأصبحت طرابلس والقيروان تحت حكم أبي الخطاب.

أراد أبو جعفر المنصور أن يرجع إفريقية إلى العباسيين ويدخلها تحت نفوذهم بعد أن نبذ عبد الرحمن بن حبيب طاعتهم واستبد بها. وقد جاءت هذه الفكرة أيام أن كان أبو الخطاب صاحب الدولة والصولة في طرابلس، وكان يأتمر بأمره من البربر مئات الألوف مما يجعل غزو إفريقية مهمة شاقة، ولكنه اعتزم الأمر وتوكل على الله.

والذي يمعن النظر في حروب أبي الخطاب مع جيوش أبي جعفر المنصور لا يشك في أنها حروب سياسية قصد منها توسيع النفوذ، والاحتفاظ بالسلطة على أكبر عدد ممكن من الناس، وعلى أوسع رقعة من الأرض، فجيوش أبي جعفر تريد أن ترجع للعرب ما فقدوا من إفريقية، وتحتفظ لهم بسلطتهم عليها. وجيوش أبي الخطاب ترى أن إفريقية بلادهم، وهم أولى بحكمها، خصوصاً وقد أصبحوا مسلمين يتعبدون على مذهب عبد الله بن إباض الذي يعتقدون أنه لا ينقص عن أي مذهب من مذاهب المسلمين.

---

(1) هو من أبناء رستم أمير فارس في حرب القادسية وكان من موالي العرب. وهو من رؤساء الخوارج وقدم إلى إفريقية مع طلائع الفتح، وأخذ بمذهب الإباضية. اهـ من ابن خلدون (انظر ص 106). اختط تاهرت سنة 144.

عمر أبو الأحوص العجلي

كنيته أبو الأحوص. وهو أول من وقع اختيار أبي جعفر عليه لقيادة الجيش الذي أعده لغزو إفريقية، وإنقاذها من ثوار البربر.. ويظهر أن أبا جعفر لم يكن على علم بكثرة البربر، وما أصبح لهم من القوة زمن أبي الخطاب لأنه لم يرسل الجيش الكافي لإخضاع البربر، وكانت النتيجة أن هزم أبو الأحوص.

وسار أبو الأحوص إلى إفريقية. وقد بلغت أخباره أبا الخطاب فاستعد للقائه، ولم ينتظره حتى يدخل عليه طرابلس، بل سار إليه حتى لقيه في سرت، في مكان يقال له مغمداس على شاطىء البحر بقرب سرت وقد التقى الجيشان في معركة انجلت عن هزيمة أبي الأحوص، ورجع هو وأصحابه إلى مصر مفلولي الجناح، واستولى أبو الخطاب على عسكره، ورجع بغنائم كثيرة إلى طرابلس. وكان ذلك سنة 142.

وجاء في طبقات الإباضية أن رجلاً - عربياً - سأل رجلاً من البربر: «ما تفسير تاورغة» يريد التعريض بهزيمة أبي الخطاب وأصحابه وقتلهم، ففطن البربري لما أراده العربي، فقال: «تفسيرها مغمداس، فيه أربعة أكداس، في كل كدس أربعة آلاف» يشير إلى هزيمة أبي الأحوص في مغمداس.

وجاءت كلمة «مغْمداس» في طبقات الإباضية بلفظ «مَغْدامَس» مشكولة بالقلم بفتح الميمين وسكون الغين والمقصود منها المكان الواقع بقرب سرت، وهو غلط، وصحتها مَغمَداس.

محمد بن الأشعث

كانت الهزيمة التي أصابت جيش أبي جعفر في إفريقية حافزاً له على الاهتمام بأمر إفريقية وإعادة الكرة عليها في جيش أكثر واستعداد أقوى. ومهما بلغت كثرة جيش يذهب من مصر لغزو إفريقية، فلا يمكن أن تصل واحداً من عشرين من جيش البربر الذي يمكنهم أن يعدوه لمقابلة هذا

الجيش. ولكن النصر بيد الله، والله مع الصابرين.

وابن الأشعث هذا، هو محمد بن الأشعث بن عقبة الخزاعي، كان والياً على مصر حينما رجع أبو الأحوص مهزوماً من إفريقية، وقد وقع اختيار أبي جعفر المنصور عليه لغزو إفريقية، فجهز له جيشاً من أربعين ألف مقاتل، وزوده بما يلزم له من العتاد، وأسند إليه إمارة إفريقية، فكان أول أمير عليها من قبل العباسيين. وسار إليها سنة 144[1]. وكان معه الأغلب، ابن سالم بن عقال بن خفاجة بن سوادة التميمي. وهو جد الأغالبة الذين أسسوا دولة بني الأغلب في إفريقية. وسيأتي ذكرها.

واتصلت أخبار ابن الأشعث بأبي الخطاب في طرابلس، فخرج للقائه في نحو مائتي ألف مقاتل من البربر، وعسكر في ورداسة بالقرب من تاورغة وتقع في الجنوب الغربي من تاورغة وتسمى الآن قداس. وعلم بذلك ابن الأشعث فاستعد للقائه. والتقى الفريقان قرب تاورغة، وكشرت الحرب عن أنيابها، فكانت في أبشع صور الفظاعة والقسوة. وذكر الشماخي في كتاب السِّير[2] أنه استشهد من البربر في هذه المعركة نحو اثني عشر ألفاً ودارت الدائرة على البربر فهزموا، وقتل أبو الخطاب وأصحابه في صفر سنة 144، وأرسل رأسه إلى أبي جعفر ببغداد، وتقدم أبو هريرة الزناتي وجمع فلول البربر، وأعاد بهم الكرة على ابن الأشعث، فهزمه ابن الأشعث في ربيع الأول سنة 144، وتتبع البربر في الجبال حتى كسر شوكتهم وشتت شملهم، وتم له الاستيلاء على طرابلس. وبموت أبي الخطاب انتهت إمارة الإباضية على إفريقية، وكانت مدة ولايته سنتين.

وقد تحريت كثيراً لتحديد المكان الذي وقعت فيه المعركة ممن لهم خبرة بجهات تاورغة وما عساه يقارب الحقيقة، فظهر لي أن هذه المعركة

---

(1) وقيل سنة 143.

(2) كتاب السِّير في علماء الإباضية للشيخ أحمد بن سعيد بن عبد الواحد الشماخي. توفي سنة 928 وقبره معروف تحت قصبة ابن مادى بجبل يفزن.

كانت قريبة من قصر قداس غربي تاورغة، وهو قصر قديم بين سوفجّين وزمزم على طريق سرت ويمر به وادٍ ما زال يعرف بوادي قداس. وما زال بعض الناس من الطاعنين في السن يحكي قصة معارك هائلة وقعت في تلك الناحية من زمن بعيد.. وما زالوا يشاهدون بقايا عظام وجماجم آدمية توجد قريباً من تلك الناحية، مما يستأنس به لصحة هذا التقدير. وقد اتضح لي أن ورداسة التي يقال إنها وقعت فيها هذه المعركة، هي المعروفة الآن بقدّاس. وفي سنة 1340 كشفت السيول عن بئْر رومانية بقرب قصر قداس كثيرة الماء كانت مغطاة بالتراب، ويظن أن آباراً أخرى ما زالت مردومة. وهذه البئْر وأمثالها هي التي كانت تمد قصر قداس وما حوله بالماء مما جعله مركزاً يصح أن تستند إليه تلك الجيوش المتقاتلة في إمدادها بالماء، وإلا لما أمكن أن تنزل على غير ماء في صحراء قاحلة.

ويشهد لوقوعها في ورداسة بيت شعر قيل في هذه المعركة وهو:

قد لَقي البربر يوماً شاسا ... وساقها الحَيْنُ إلى وَرداسا

وذكر تاورغة إنما جاء للتقريب لشهرتها، لا للتحديد، لأن جيشين يتألفان من مائتين وأربعين ألف مقاتل يلتحمان في معركة لا شك أنهما يحتاجان إلى عشرات الكيلومترات ليتسع مجال الكر والفر لهذا العدد الهائل، ولذلك فلا يبعد أن تشغل المعركة ما بين تاورغة وقداس.

المخارق بن غفار الطائي

وتقدم ابن الأشعث إلى طرابلس فاستولى عليها، وولى عليها المخارق بن غفار الطائي، وسار إلى القيروان لطرد ابن رستم منها. وقد بلغ ابن رستم خبر انتصار ابن الأشعث على البربر وقتل أبي الخطاب فهرب من القيروان ونزل في مكان مدينة تيهرت[1]، وبقي هناك. ودخل ابن الأشعث القيروان غرة جمادى الأولى سنة 144.

---

(1) شرع في بنائها سنة 161 على أنقاض مدينة قديمة.

وفي سنة 145 أمر ابن الأشعث ببناء سور القيروان، وأتمه سنة 146. وأرسل إلى زويلة وودان جيشاً واستولى عليهما، وكانتا مسكونتين بالإباضية، فحاولوا الدفاع عنهما، وكان رئيسهم عبد الله بن حيان الإباضي، وكان يقيم بزويلة، فقتل وقتل معه أناس كثيرون، وبذلك دانت إفريقية لابن الأشعث، واستتب له الأمر فيها.

وفي سنة 147 ثار عليه موسى بن عجلان ـ وهو أحد جنوده ـ فأخرجه من القيروان ورجع إلى المشرق. وكانت مدة ولايته ثلاث سنوات وعشرة أشهر.

عيسى بن موسى الخراساني

لما تغلب الجند على ابن الأشعث وأخرجوه من القيروان ولّوا عليهم عيسى بن موسى الخراساني في ربيع الآخر سنة 148، وتولى أمور الناس من غير عهد من المنصور، ولا انتخاب من العامة، وقد استند الجند في ذلك على القوة والإرهاب ولم يقر المنصور هذا العمل، فعزل عيسى بعد ثلاثة أشهر من ولايته، وولى بعده الأغلب بن سالم. وفي أيام موسى كان العامل على طرابلس المخارق بن غفار.

الأغلب بن سالم التميمي

كنيته أبو عقال. وكان رجلاً شهماً، صائب الرأي، محبّاً للمشورة. قدم إفريقية مع محمد بن الأشعث الخزاعي. ولما رجع ابن الأشعث إلى المشرق أرسل إليه المنصور عهد الولاية على إفريقية في جمادى الآخرة سنة 148.. وكان المخارق عاملاً على طرابلس فأبقاه الأغلب على عملها... ومرت سنة 149 ولم يحصل فيها من الأحداث ما يستحق الذكر.

ومنذ أن انتشرت مذاهب الخوارج في إفريقية سنة 100 كان البربر أول من اعتنق هذه المذاهب، ووجد دعاتها منهم قلوباً صاغية للمتطرف منها

وغير المتطرف. وشحنوها ضغينة ضد العرب بدعوى أنهم غرباء عن إفريقية، وتأثر البربر بعامل العنصرية وعامل المذهبية، وأصبح لكل من هذين العاملين أثره السيء على نفوس البربر في كراهة العرب؛ لأن البربري يشعر بأنه من غير جنس العرب، وله مذهب غير مذاهب العرب، ولذلك فقد كثر الاصطدام بينهم. وكانت سلطة الحكم هي محل التنازع وملتقى الخلافات.

ومنذ أن ابتدأت أقدام العرب تثبت في إفريقية، وأخذ الإسلام في الانتشار كانت أكثر النحل ثورة بالعرب هم البربر المتأثرين بمذاهب الخوارج وكان الإباضية أقرب طوائف البربر إلى العرب، وأقل نزاعاً معهم، ولذلك نجد أكثر الثوار على أمراء إفريقية العرب من الصفرية وغيرهم من النحل المتطرفة.

وكان الخوارج ينتهزون أدنى الأسباب للثورة على العرب. وكان أبو قرة الصفري في طليعة الناقمين على العرب، فما كادت تمضي على حكم الأغلب بن سالم سنتان حتى ثار عليه أبو قرة سنة 150 في ناحية الزاب. والتفت حوله جموع من البربر لا تحصى، فخرج الأغلب لقتالهم، ففر أبو قرة وتشتتت جموعه، وأراد الأغلب أن يطارده، ولكن رؤساء الجند أبوا عليه ذلك، واكتفوا بما حصل. ولما أصر الأغلب على رأيه خالفوا عليه، وأخذوا يتسللون إلى القيروان وساءت الحال بين الأغلب وجنده، وسنحت الفرصة لبعض خصومه للوثوب عليه، وكان الحسن بن حرب الكندي حاكم قابس يتربص بالأغلب، فانتهز فرصة تذمر الجند فاستمالهم وثار على الأغلب وسار إليه في جموع عظيمة. فجمع الأغلب ـ وكان بالقيروان ـ أهل بيته وخاصته وأعلمهم أنه سيلقى الحسن وحده إن لم يعنه أحد. فلما بلغ الحسن القيروان لقيه الأغلب فيمن معه، وشدّوا على الميمنة فكشفوها، ثم انصرف الأغلب وهو يقول:

لم يبقَ إلاَّ القلبُ أو أموتُ — إن تحم لي الحربُ فقد حَميت

وإن تـوليتُ فـلا بَـقيتُ

ثم حمل الأغلب على القلب، فلم يئن حدّه حتى قتل بسهم أصابه، وذلك في شعبان سنة 150. ومدة حكمه سنة وثمانية أشهر.

المخارق بن غفار الطائي

وبعد موت الأغلب اجتمعت كلمة أصحابه على حاكم طرابلس المخارق بن غفار فولوه عليهم، وحملوا على الحسن حاكم قابس ففر إلى تونس، وقام المخارق بأمر إفريقية ما عدا تونس.

آل المهلّب

آل المهلب بيت عربي عريق في المجد، له المكانة الأولى في أيام العرب ووقائعهم، ورثوا الكرم والشجاعة كابراً عن كابر. وكانت لهم المكانة الممتازة أيام الدولتين: الأموية والعباسية، وكانوا من خير الولاة في إفريقية، رفعوا من ذكر العرب وأقدارهم، وكان لهم المقام الأول في حرب الخوارج في إفريقية والشرق. وكان للمهلب بن أبي صفرة القدح المعلى في قتالهم وتشتيت جموعهم.

وأول ولاتهم في إفريقية عمرو بن حفص، وآخرهم محمد بن مقاتل العكّي.

عمر بن حفص بن قبيصة الأزدي

لقبه (هَزارمرْد)[1] وهو أول وال من آل المهلب على إفريقية، ولاه عليها أبو جعفر المنصور سنة 151. وكان مركز ولايته القيروان فقدمها في صفر من هذه السنة واستقامت له الأمور في إفريقية ثلاث سنين وأشهراً، ثم سار إلى الزاب ونزل طبنة فبنى سورها، واستخلف على القيروان قريبه حبيب ابن حبيب، فثار عليه البربر وقتلوه.

(1) معنى هزار مرد بالفارسية ألف رجل. وهو من ولد قبيصة بن أبي صفرة أخي الملهب، وكان شجاعاً وكنيته أبو جعفر.

الجنيد بن بشار الأسدي

وولى عمر على طرابلس الجنيد بن بشار (أو سيَّار) الأسدي. وفي سنة 153 ثار عليه برابر طرابلس بزعامة يعقوب بن لبيب بن يزيد بن يَطوفت الملزوزي الإباضي المغيلي، وكنيته أبو حاتم، فأمد عمر الجنيد بن بشار بالجيوش لمحاربة يعقوب ولكن كثرة البربر تغلبت على الجنيد وأصحابه فانهزموا إلى قابس، ودخل أبو حاتم طرابلس في رجب سنة 154 وأقام بها أشهراً. وكثرت الثورات في إفريقية، وانتقضت على عمر من كل جانب.

ورأى البربر في انتقاض إفريقية فرصة لانتزاع الحكم من العرب فاجتمع أمراء قبائلهم من كل مكان، وذهبوا إلى عمر في طبنّة، وأحاطوا بها في اثني عشر معسكراً لا يقل ما فيها من المحاربين عن خمسة وسبعين ألفاً، ومن أشهر هؤلاء الأمراء أبو قرة المغيلي الخارجي الصفري أمير تلمسان، وكان معه أربعون ألفاً وعبد الرحمن بن رستم الإباضي في خمسة عشر ألفاً جاء بهم معه من مكان تاهرت. وأبو حاتم فيمن معه من برابر طرابلس. وعاصم السدراتي وكان معه عدة آلاف من الإباضية، والمسور الزناتي في عشرة آلاف من الإباضية، وأمم من البربر من زناتة وصنهاجة وهوارة لا تحصى..

ثورة يعقوب بن لبيب[1]

وقال ابن حداش: ثار يعقوب بن لبيب الملزوزي - أبو حاتم - سنة 150 وغلب على إفريقية كلها، وفتح القيروان، وبلغت عساكره من الخيل خمسة وسبعين ألف فارس، ومن الرجال 315 ألفاً... كل هذه الجموع الحاشدة وجيش عمر لا يتجاوز 15500.

---

(1) هو يعقوب بن لبيب الملزوزي الهواري وكنيته أبو حاتم. ويقال إنه بقي مستولياً على طرابلس أربع سنين.

وعلم عمر ألا سبيل إلى التغلب على هذه الأمم المجتمعة من طريق الحرب، فسلك مع رؤساء البربر طريق الوعود، والرشوة، والهدايا. وأول من قبل هداياه أخو أبي قرة، ووعده بأن يعمل على صرف أخيه، وتفريق الصفرية عنه، وقد فعل، ونجحت الحيلة، وتفرق الصفرية عن أبي قرة، وهاجم عُمرُ ابنَ رستم فانهزم أمامه ورجع إلى تاهرت، وقتل من أصحابه نحو ثلاثة آلاف. ورجع عمر إلى القيروان، وما زالت جيوش البربر حولها كثيرة، وقد أدخل عمر إلى القيروان كل ما يحتاج إليه من المؤن والعتاد الحربي.

وأقبل أبو حاتم في مائة وثلاثين ألفاً وحاصر القيروان، وكان عمر يخرج كل يوم لقتالهم. وكان البربر من الكثرة بحيث كلما فنيت أمة جاءت أخرى.. وطال الحصار على عمر ومن معه في القيروان، وفني ما عندهم من المتاع حتى أكلوا الدواب والسنانير، وقلَّ جند عمر من طول الحرب وكثرة الموتى، فاضطرب أمره وضاق بالحياة ذرعاً. وأشيع أن يزيد بن حاتم بعثه المنصور لنجدة عمر فكبر على عمر أن يقال يزيد أخرج عمر من الحصار، فقال عمر: «إنما هي رقدة وأبعث إلى الحساب»، وخرج إلى العدو فما زال يقاتل حتى قتل في نصف ذي الحجة سنة 154[1] واستولى أبو حاتم على القيروان، بعد حصار دام نحو سنة، وبايعه الإباضية والبربر بالولاية على إفريقية. وكان ما وقع بين عمر وبين البربر من الوقائع ثلاثمائة وخمساً وسبعين واقعة في مدة لا تتجاوز سنة على رواية الطبري، ولا تتجاوز سنتين على رواية الرقيق[2]. عليه وعلى آل المهلب جميعاً رحمة الله. واستولى الإباضية على أكثر إفريقية.

---

(1) هذه الرواية منقولة عن الرقيق بواسطة. وقال الطبري سنة 153.

(2) الرقيق القيرواني: هو إبراهيم بن القاسم الرقيق القيرواني، مؤرخ أديب من أهل القيروان. رحل إلى مصر سنة 388هـ يحمل هدية من باديس بن زيري إلى الحاكم، وعاد إلى وطنه فتوفي فيه على الأرجح.

وصفه ابن رشيق صاحب العمدة بأنه شاعر سهل الكلام محكمه، لطيف الطبع، غلب عليه اسم الكتابة وعلم التاريخ وتأليف الأخبار، وهو بذلك أحذق الناس اهـ. =

وقد استاء المنصور لقتل عمر، فأرسل يزيد بن حاتم إلى إفريقية للأخذ بثأر عمر من أبي حاتم، في جيش، قال في شذرات الذهب: إنه مكون من خمسين ألف فارس، وبلغنا أنه أنفق عليه ثلاثة وستين ألف ألف.

يزيد بن حاتم

هو يزيد بن حاتم، بن قبيصة، بن المهلَّب، وكنيته أبو خالد، كان شجاعاً مقداماً، ذا نجدة ومروءة. وكان شبيهاً بجده المهلَّب بن أبي صفرة في الكرم والشجاعة، وكان من خواص المنصور ووجوه ولاته. قال صاحب النجوم الزاهرة: وفي سنة 149 ضم أبو جعفر المنصور برقة إلى يزيد بن حاتم زيادة على عمل مصر. وهو أول من ضم له برقة على مصر (أهـ).

ولاه المنصور إفريقية سنة 155. وكان أبو حاتم الإباضي إذ ذاك مستولياً على طرابلس والقيروان. ويقال إنه كان مستولياً على إفريقية كلها.

وبلغته أخبار يزيد بن حاتم، فخرج إلى طرابلس للقائه، فغدر به أهل القيروان فرجع لقتالهم فقاتلهم، ووكل عليهم جرير بن مسعود المديوني ورجع إلى طرابلس ينتظر ورود يزيد بن حاتم.

ولما وصل يزيد بن حاتم إلى طرابلس انضم إليه جماعات من البربر لقتال أبي حاتم الملزوزي الإباضي. وكان مع أبي حاتم جيوش كثيرة، فالتقى بها يزيد واحتدم القتال بين الفريقين، وانجلت المعركة عن هزيمة أبي حاتم فالتجأ إلى جبل نفوسة في فلول من جيشه، فطارده يزيد إلى أن أدركه في جَندوبة، فقتله في ثلاثين ألفاً من أصحابه[1] وتفرقت جموع البربر

= ونعته ياقوت بالكاتب، وأورد أسماء كتبه، ولعل خيرها «تاريخ إفريقية والمغرب» و«كتاب النساء» و«نظم السلوك في مسامرة الملوك».
معجم الأدباء ج1 ص287.

(1) يظهر من سياق الكلام أن يزيد بن حاتم قدم إفريقية أوائل سنة 155، وقتل أبو حاتم الملزوزي في أوائل هذه السنة.

واستولى يزيد على طرابلس.

كان أبو حاتم من أئمة الإباضية المشهورين ومن كبار رجالهم وشجعانهم. وبمناسبة قتله قال بعض الناس:

«إن مكان المعركة يستضيء نوراً كل ليلة، وقد اشتهر عندنا ـ من غير أن أراه ـ أن النور ينزل على قبره ـ يعني قبر أبي حاتم ـ وقيل: لم يزل ينزل حتى دفن إلى جنبه أعرابي فكفَّ» اهـ.

ومثل هذه الخرافة لا يصح أن تُسوَّد بها صحائف الكتب فإن أي إنسان لا يصدق أن النور الذي كان ينزل على قبر أبي حاتم انقطع لما دفن الأعرابي إلى جانبه.

ويجب على الطرابلسيين من العرب والبربر أن يتجنبوا كل ما من شأنه الطعن والتحقير، وما يوجب الفرقة وتغيير النفوس، فقد جرَّت هذه الأوصاف على الوطن أكبر الويلات وأشد النكبات، ونحن في زمن أحوج ما نكون فيه لجمع الشمل واتحاد الكلمة.

وكان يزيد هذا شجاعاً مشهوراً بالكرم، أغرى كرمه به الشعراء، ودلهم عليه، فتباروا في مدحه، ونالوا من عطائه.

وممن مدحه من الشعراء ربيعة بن ثابت الرَّقي، قصده ذات مرة، فشغل عنه بعض الوقت، فانصرف مغاضباً وقال:

أراني ـ ولا كفران لله ـ راجعاً ... بخفيْ حنين من عطاء ابن حاتم

فبلغ يزيد ذلك، فرده وملأ له خفيه ذهباً، فأخذ يمدحه ويفضله على يزيد بن أسد السلمي. ومن شعره في مدحه:

حلفت يميناً غير ذي مثنوية ... يمين امرىء آلى وليس بآثم

لشتّان ما بين اليزيدين في النّدا ... يزيد سليم والأغرّ بن حاتم

فهمّ الفتى الأزدي إتلافُ ماله ... وهمّ الفتى القيْسيّ جمعُ الدراهم

فلا يحسب التمتام أني هجوته ولكنني فضَّلت أهل المكارم

ويزيد هذا هو القائل في نفسه:

لا يألف الدرهم المضروبُ خرقتنا إلا لماماً يسيراً ثم ينطلقُ
يمرُّ مرًّا عليها وهي تلفِظُه إنِّي امرُؤٌ لم يحالفْ صرتي الورِقُ

وكان يضرب به المثل في الكرم وعظم الهمة.

وفي سنة 157 انتقضت عليه ورفجومة، وولوا عليهم رجلاً اسمه أبو زرجومة فأرسل إليهم يزيد جيشاً فهزموه، فأرسل إليهم ابنه المهلب في جيش، وأمده بالعلاء بن سعيد بن مروان المهلبي، فأوقع بهم وقتلهم أبرح قتل.

وفي سنة 161 انتقضت نفزاوة، ودعوا إلى مذهب الإباضية فهزمهم. وركدت ريح الخوارج من البربر، وتداعت بدعتهم إلى الاضمحلال.

وكان يزيد بمكان من التقوى وخوف الله. وكان عادلاً في أحكامه حازماً فيها. وكان يقول: «والله ما هبت شيئاً قط هيبتي من رجل ظلمته، أنا أعلم أن لا ناصر له إلا الله، فيقول: الله حسبك، الله بيني وبينك».

توفي بالقيروان في 18 من شهر رمضان سنة 170[1]. ومدة ولايته خمس عشرة سنة وثلاثة أشهر. ودفن بباب سلم بتونس.

سعيد بن شداد

وبعد أن قضى يزيد على أبي حاتم وجيشه ولى على طرابلس سعيد بن شداد وسار إلى القيروان فدخلها بدون حرب يوم الاثنين لعشر يقين من جمادى الآخرة سنة 155، وأقر الأمن، واطمأن الناس، وباشروا أعمالهم، وأرجع إلى البلاد بعض ما فقدته من النشاط التجاري والصناعي، ورتب

(1) اقتصرنا على سنة 170 كما جاء في وفيات الأعيان.

أسواقها، وجعل لكل صناعة سوقاً خاصة بها.

وفي سنة 156 ثار عليه بناحية طرابلس أبو يحيى الهواري (بن قرياس)[1] فتصدّى له عبد الله بن السمط الكندي ـ قائد جند طرابلس من قبل يزيد بن حاتم ـ فالتقى به على شاطىء البحر، وأسفرت المعركة عن هزيمة ابن قرياس، وقتل عامة أصحابه، وتم الأمر في إفريقية ليزيد بن حاتم المهلبي وضبط أمورها.

داود بن يزيد

وقبل أن يموت يزيد استخلف ابنه داود على إفريقية حتى يأتي التقليد من بغداد لمن يختاره الخليفة بولاية إفريقية. ولم يمهل البربر داود فثاروا به، ولكنه انتصر عليهم وقتل كثيراً منهم، واحتفظ بولاية إفريقية، حتى صدرت أوامر هارون الرشيد بولاية روح بن حاتم، وهو عم داود، بعد تسعة أشهر ونصف من ولايته.

رَوْح بن حاتم[2]

هو أخو يزيد بن حاتم، وكنيته أبو خالد، وقيل أبو حاتم. ولاه الرشيد على إفريقية في جمادى الآخرة سنة 171. ودخل إفريقية في هذه السنة.

---

(1) ذكره ابن خلدون باسم يحيي بن فوناس.

(2) ابن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي، كان من أجود العرب، وولي لخمسة من الخلفاء: السفاح، والمنصور، والمهدي، والهادي، والرشيد. قيل إنه لم يتفق مثل هذا إلا لأبي موسى الأشعري، فإنه ولي لرسول الله ﷺ، ولأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ، رضي الله عنهم.

وقبل أن يتولى إفريقية كان والياً على السند. وكان الناس يتعجبون من بعد ما بين ابني حاتم: يزيد في إفريقية وروْح في السند، فاتفق أن الرشيد عزل روحاً عن السند، فلحق بأخيه يزيد بإفريقية. وبعد وفاة أخيه يزيد تولى إفريقية ومات بها ودفن مع أخيه يزيد بباب سلم بتونس في قبر واحد.

وفي هذه السنة رغب عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت في موادعته فوادعه. قال ابن خلدون: واستكان البربر للغلب، وفرضت عليهم الضرائب، واستقر الإسلام.

وتوفي رَوح ليلة الأحد لسبع بقين من رمضان سنة 174. ومدة ولايته ثلاث سنوات وثلاثة أشهر. ودفن مع أخيه يزيد في قبر واحد.

علي بن زياد العبسي[1]

وفي أيام ولاية روح - وكان مقرها القيروان - كان يوجد بتونس العلامة الفقيه الأستاذ علي بن زياد العبسي الطرابلسي، سمع من مالك، والثوري، والليث بن سعد، وابن لهيعة، ولم يكن بإفريقية مثله.. أخذ عنه البهلول بن راشد، والإمام سحنون، وشجرة بن عيسى، وأسد بن الفرات. وكان يقول: إني لأدعو الله عز وجل لعليّ بن زياد مع والدي لأنه أول من تعلمت العلم عليه.. ولم يكن سحنون يقدم عليه أحداً من أهل إفريقية... وهو أول من أدخل موطأ مالك لإفريقية وفسر لهم قول مالك ولم يكونوا يعرفونه، وهو معلم سحنون.. وسأل سحنون شرحبيل قاضي طرابلس عن أصل عليّ بن زياد فقال: كشفنا عن أصله فإذا هو من العجم، وكان أوله من طرابلس، ثم سكن مدينة تونس.. وكان البهلول يفزع إلى علي بن زياد في مشكلات العلم. قال سحنون: ما بلغ البهلول شسع علي بن زياد، ويقول: ما أنتجت إفريقية مثل علي بن زياد. وكان أهل العلم بالقيروان إذا اختلفوا في مسألة كتبوا بها إلى علي بن زياد ليخبرهم من هو على الصواب.

أرسل إليه أمير إفريقية ورسول الخليفة يستشيرانه فيمن يلي القضاء فامتنع عن الذهاب إليهما، فحضرا إليه في منزله، فلما قيل له إنهما بالباب حوَّل وجهه إلى الحائط، فدخلا عليه وسأله الوالي بلسان رسول الخليفة عمن يلي القضاء في إفريقية، فحوَّل وجهه إلى القبلة وقال: ورب هذه القبلة

---

(1) ملخص من رياض النفوس للمالكي، ولم يذكر تاريخ ولادته.

ما أعرف بها أحداً يستوجب القضاء، قوموا عني.

وبعث روح بن حاتم ـ وكان بالقيروان ـ في طلبه ليوليه القضاء فامتنع ورجع من فوره إلى تونس...

أراد يوماً أن يصلي بجامع القيروان فأتى إلى سارية، فأراد أن يكبِّر فارتعدت فرائصه خوفاً من الله، ثم تحامل على نفسه وكبر فتغير لونه.

وله مواقف محمودة في العلم والزهد والخوف من الله.

توفي سنة 183 عليه رحمة الله.

نصر بن حبيب المهلبي

بويع له في العشر الأخير من رمضان بعد وفاة روح. ومدة ولايته سنتان وثلاثة أشهر.

الفضل بن روح بن حاتم

ولاه الرشيد إفريقية في المحرم سنة 177.

يحيى بن موسى

وولى الفضل من قبله يحيى بن موسى عاملاً على طرابلس. وفي جمادى الآخرة سنة 178 ثار الجند على الفضل، وقدموا عبد الله بن عبد ربه ابن الجارود، وتزعَّم الثورة من غير إذن الرشيد، وأبقى يحيى بن موسى عاملاً على طرابلس.

وانتشرت الثورة في إفريقية كلها، وقتل الفضل في شعبان سنة 178، ودامت ولايته سنة وخمسة أشهر، وهو آخر أمير من آل المهلّب في إفريقية ودامت ولايتهم فيها سبعاً وعشرين سنة من سنة 151 إلى سنة 178.

عبد الله بن الجارود

وبعد أن قتل الفضل تولى ابن الجارود الأمر من بعده، وكانت له مع البربر وقائع هائلة، وتغلب على جزء كبير من إفريقية. وأعطاه الرشيد الأمان فاستجاب للطاعة، واتخذ القيروان محلاً لحكمه وكتب إلى عامل طرابلس يحيى بن موسى: أن أقدم إلى القيروان فإني مسلِّم إليك أمرها، فخرج يحيى بمن معه، فلما بلغ قابس تلقاه بها عامة الجند من القيروان، ومعهم النضر ابن حفص وعمرو بن معاوية. وخرج ابن الجارود من القيروان واستخلف عليها المقرح بن عبد الملك ليحافظ على الأمن حتى يصل يحيى بن موسى. وكانت مدة ابن الجارود سبعة أشهر.

وكان رجل يسمى العلاء بن سعيد أراد أن يزاحم يحيى بن موسى على القيروان فانتهز فرصة تخلي ابن الجارود عنها ودخلها قبل أن يصل إليها يحيى وقتل جماعة من أصحاب ابن الجارود... وجاء يحيى بمن معه، وطلب إلى العلاء أن يتخلى عن القيروان، وأن يفرق أصحابه إن كان في الطاعة، فأجاب العلاء الطلب، وصرف أصحابه إلى مواضعهم وسلّم البلد إلى يحيى ورجع إلى طرابلس.

ولما تخلى ابن الجارود عن القيروان ذهب إلى طرابلس، وفي نيته أن يذهب إلى المشرق، فوصل إلى طرابلس قبل العلاء بن سعيد، فلقي بها يقطين بن موسى فخرج معه إلى المشرق، فالتقوا في الطريق بهرثمة بن أعين قادماً إلى إفريقية والياً عليها من قبل الرشيد.

كان العلاء كتب إلى هرثمة أنه هو الذي أخرج ابن الجارود من القيروان يريد بذلك الوقيعة بابن الجارود لأنه قتل الفضل واستبد بإفريقية بدون إذن الرشيد، وقد صدَّق هرثمة قوله وكافأه بجائزة سنية... ولما التقى هرثمة بابن الجارود، وأخبره ابن الجارود بالحقيقة، وهي أنه هو الذي سلم القيروان ليحيى بن موسى، وأن العلاء خرج من القيروان بناء على تهديد يحيى - لما علم هذا قدم يحيى على العلاء، وأرسل ابن الجارود إلى الرشيد ليعتذر له مما فعل ويقدم له الطاعة.

هرثمة بن أعيُن الهاشمي[1]

لما شق ابن الجارود عصا الطاعة في إفريقية وقتل الفضل، لم يكتف منه الرشيد بالاعتذار فيما بعد، بل فكر فيمن يخلفه فوقع اختياره على هرثمة ابن أعين، فولاه على إفريقية سنة 179[2]، وقدم إليها يوم الخميس الثالث من ربيع الأول من هذه السنة.

سفيان بن أبي المهاجر

وولى هرثمة على طرابلس سفيان بن أبي المهاجر، وفي أيامه أمر هرثمة ببناء سور طرابلس من جهة البحر. وبنى القصر الكبير ليرابط به الجند والمدافعون عن البلاد لرد الأعداء عن الثغر. وكان الذي يشرف على عملية البناء زكريا أبو قادم، وهو أحد خواصّ هرثمة.

وفي أيام هرثمة استراح الناس، وأمنوا وانصرفوا إلى أعمالهم... ولكن البربر لم تهدأ ثائرتهم بعد، وكل ما نزل بهم من الهزائم والقتل في حروب أبي الخطاب وأبي حاتم وغيرها لم يثن من عزمهم، ولم ينسهم الأخذ بالثأر من العرب كلما سنحت لهم الفرصة. فخرج من بينهم أحد رجالاتهم، وهو عياض بن وهب الهواري، ودعا إلى الثورة على هرثمة، فسرعان ما لبوا نداءه ونشبت الحرب بينهم وبين هرثمة. وحاول هرثمة أن يقضي على الفتنة فاستعصت عليه، وكثرت الخلافات وأفلت زمام الأمر من يده، فلم يسعه إلا أن يستأذن الرشيد في الاستقالة فأذن له، ورجع إلى المشرق في رمضان سنة 181. وسجنه المأمون لاتهامه بممالأته لإبراهيم بن المهدي. ومات في السجن سنة 200 ولا ندري ماذا حصل لعياض الثائر على هرثمة.

---

(1) ضبطه في خلاصة تاريخ تونس بضم الياء.

(2) وقيل في ربيع الأول سنة 180.

محمد بن مقاتل بن حكيم العُكي[1]

وبعد أن قبل الرشيد استقالة هرثمة أسند إمارة إفريقية إلى محمد بن مقاتل بن حكيم العكي سنة 181[2]. وهو أخو الرشيد من الرضاعة. وكان سيء الخلق ضعيف الإرادة.

تمام بن تميم التميمي

وانتهز تمام ضعف إرادة محمد بن مقاتل فثار عليه سنة 183 بتونس، ودخل عليه القيروان لخمس بقين من رمضان من هذه السنة، فانتزعها منه، واستسلم له، وطلب الأمان على حياته فأمَّنه، واشترط عليه أن يخرج إلى طرابلس فخرج إليها، وكانت ولاية العكي سنتين وعشرة أشهر.

وكان إبراهيم بن الأغلب والياً على الزَّاب من قبل هارون الرشيد، فقدم لقتال تمام في القيروان، ففر تمام إلى تونس، وكان هذا بعد أن استسلم له ابن مقاتل. ودخل الأغلب المسجد فخطب في الناس ـ وكان لسناً فصيحاً ـ فحثهم على التمسك بالعكي، وأفهمهم أنه هو الأمير من قبل الخليفة واستقدمه من طرابلس وسلم له إمارة القيروان.. والتقى تمام مع إبراهيم بن الأغلب في حروب كثيرة. وفي المحرم سنة 184.

وذكر ابن أبي زرع في تاريخه «الأنيس المطرب» سبباً آخر لعزله، وهو أن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب المؤسس الأول لدولة الأدارسة بالمغرب كان له مولى يقال له راشد، هو الذي أشرف على تربيته، وهرب به من المشرق إلى المغرب خوفاً على حياته، وكان شجاعاً مقداماً، وذا رأي صائب.

ولما أرسل الرشيد سليمان بن جرير إلى المغرب ليقتل إدريس أخذ

---

(1) ضبطه ابن أبي زرع في تاريخه «الأنيس المطرب» بضم العين.

(2) يقال إنه قدم إفريقية في رمضان من هذه السنة.

يحتال عليه حتى قتله بالسم سنة 177[1]، وبقي راشد يدير مملكة الأدارسة ويتولى تربية إدريس الثاني فكان لا بد من التخلص من راشد، فأوعز الرشيد إلى إبراهيم ابن الأغلب بقتله وأخذ يحتال له حتى قتله حوالي سنة 188.

وأراد محمد بن مقاتل العكي أن يتزلف إلى الرشيد بهذا العمل، فأرسل إليه يخبره بأنه هو الذي دبر قتل راشد. ولكن الرشيد تحقق أن الذي دبر قتل راشد هو إبراهيم بن الأغلب، فعزل العُكيَّ عن إفريقية وولى بدله ابن الأغلب. وفي هذا الحادث يقول ابن الأغلب فيما كتب به إلى الرشيد:

ألم ترني بالكيد أرديت راشداً وإني بأخرى لابن إدريس راصد

تناوله عزمي على بعد داره بمحتومة قد هيأتها المكايد

فتاه أخو عك بمقتل راشد وقد كنت فيه شاهداً وهو راقد

قال البخاري: قد خفي على الناس حديث إدريس بن إدريس لبعده عنهم، ونسبوه إلى مولاه راشد، وقالوا إنه احتال في ذلك لبقاء الملك له، ولم يعقب إدريس بن عبد الله، وليس الأمر كذلك، فإن داود بن القاسم الجعفري وهو أحد كبار العلماء ومن له معرفة بالنسب حكى أنه كان حاضر قصة إدريس. قال: وكنت معه في المغرب فما رأيت أشجع منه ولا أحسن وجهاً. وقال الإمام علي بن موسى الرضا: إن إدريس بن إدريس بن عبد الله، كان نجيب أهل البيت وشجاعهم. قال أبو هاشم داود بن القاسم بن إسحاق بن عبد الله بن جعفر الطيار أنشدني إدريس بن إدريس لنفسه قال:

لو مال صبري بصبر الناس كلهم لكَلَّ في روعتي أو ضل في جزعي

وكان إدريس بن إدريس لما مات أبوه حملا، وأمه (أم ولد) بربرية ولما مات إدريس بن إدريس هذا ابن المحض وضعت المغاربة التاج على بطن جاريته أم إدريس، فولدت بعد أربعة أشهر، وليس لإدريس بن المحض

---

(1) وقيل سنة 175 ويقال إنه وضع له السم في «دلاعة» والدلاعة كلمة بربرية اسم للبطيخة الخضراء.

عقب إلا منه، وأعقب من ثمانية رجال، وقيل إنه أعقب من غير هؤلاء أيضاً، ولكل منهم ممالك ببلاد المغرب هم ملوك إلى الآن. وأسماء أولاده القاسم، وعيسى، وعمر، وداود، ويحيى، وعبيد الله، وحمزة.

وإلى هنا انتهى دور من أدوار الحكم في إفريقية كان ولاتها فيه خاضعين لأوامر الخلفاء في دمشق وبغداد من الأمويين والعباسيين. ودخلت في دور فيه كثير من الحرية في العمل والاستقلال بالرأي، مع بقاء شيء من الارتباط بالخلافة العباسية ببغداد لا يعدو تلك التقاليد الدبلوماسية التي تشعر بالمودة والارتباط الأدبي.. هذا الدور هو قيام دولة الأغالبة.

وقبل أن ندخل في الكلام على دولة الأغالبة يحسن أنه نذكر شيئاً من نظام الحكم في إفريقية الذي كانت عليه في عهد الخلفاء الراشدين، وخلفاء بني أمية والعباسيين.

كانت مهمة العرب في إفريقية ـ في عهد الخلفاء الراشدين ـ مهمة الفاتح وكانت عسكرية بحتة، ولهم من السلطان ما لقواد الجيوش، ولم تكن لهم فيها إدارات ودواوين لأن الأمور فيها إذ ذاك لم تستقر ولم يتخذها العرب دار مقام.

وجاء دور الأمويين والعباسيين، وكثر فيه تردد العرب على إفريقية فاتحين، فاتسعت فيه فتوحاتهم.. فكان عصر الفتح وتهدئة الثورات ونشر السلام، وتعاليم الإسلام، وتفهيم الناس فضائله، وما ترمي إليه دعوته من خير للبشرية وسعادتها.

واقتضت ظروف الاستقرار أن يوضع نظام حكومي يتناسب مع الوضع القائم إذ ذاك، فكان كما يأتي:

يعيِّن الخليفة الوالي (الأمير) ومحل إقامته دار الإمارة بالقيروان التي بناها عقبة بن نافع بجوار الجامع الأعظم.. والوالي يعين العمال على المقاطعات، ومحل إقامتهم عواصم المقاطعات.. فعامل طرابلس يقيم بمدينة طرابلس لأنها عاصمة القطر، وهكذا في غيرها من المقاطعات.

ويعيِّن الوالي (الأمير) رئيساً على ديوان الخراج ويسمى (رئيس ديوان الخراج) وهو يساوي وزير المالية.. ويعين رئيساً على البريد، ويسمى (صاحب البريد) وهو يساوي مدير مصلحة البريد.. ويعين رئيساً على ديوان الجند، ويسمى (رئيس ديوان الجند) وهو يساوي وزير الحربية، ويلحق به قائد الأسطول، ويسمى (مقدم العمارة) وهو يساوي وزير البحرية.. وينشىء ديوان الرسائل، ويشمل كل ما يتعلق بالرسائل والمكاتبات.. ويعين قاضياً. والقاضي يختار نواباً عنه في الجهات البعيدة وهو مرجعهم في كل ما يتعلق بهم.

وما كاد هذا العصر ينقضي حتى اطمأنت نفوس البربر إلى الإسلام، وتذوقوا آداب القرآن، واهتدوا بهديه، وألفوا عادات العرب، وتسموا بأسمائهم، واقتبسوا الكثير من طبائعهم، واقتنع الكثير منهم بما ترمي إليه سياسة الإسلام من الأخوة والمحبة، فأصهروا في العرب، وأصهر العرب فيهم. وأصبحوا هم والعرب إخواناً، لا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى. وانتشرت في إفريقية بل وفي المغرب أيضاً ـ آداب العرب وصناعاتهم، فوجد فيها البربر غذاء روحيًّا وماديًّا. وتمكن بعض الأمراء مثل حسان بن النعمان من إدخال بعض النظم على الإدارات بقدر الضرورة.

وقد دامت مدة ولاة الأمويين والعباسيين في إفريقية 134 سنة، أي من سنة 50 إلى سنة 184. وعددهم ستة وعشرون أميراً، أولهم عقبة بن نافع، وآخرهم محمد بن مقاتل العُكِّي.

دولة الأغالبة

دولة عربية إسلامية، قامت في شماليّ إفريقية سنة 184. وكان نظام الحكم فيها فرديًّا وراثيًّا، منحصراً في بني الأغلب.

وأهم الوظائف فيها هي:

1 - صاحب الخراج... وأول من أنشأ هذه الوظيفة هو حسان بن النعمان أيام كان والياً عليها من قبل عبد الملك بن مروان سنة 77، ثم توسع فيها الأغالبة بما يتفق مع ثروة البلاد أيام حكمهم، وهي من أكبر الوظائف خطراً في الدولة، لأنها تتعلق بثروة البلاد.

2 - صاحب البريد... وهو بمثابة وزير المواصلات، وسمي صاحب البريد دون أن يضاف إلى شيء آخر، لأن للبريد أهمية كبرى في الدولة لأنه يتعلق بنقل أخبار الدولة... وكان للبريد محطات فيها خيل وبغال. وكلما وصل عامل البريد محطة غيّر دابته التي كان يركبها، بعد أن أجهدها في السير للوصول إلى المحطة التي بعدها في أقصر وقت ممكن. ويضاف إلى صاحب البريد رئاسة البوليس السري.

3 - قائد الجيش... وهو يقوم مقام وزير الحربية.

4 - مقدم العمارة... وهو بمثابة وزير البحرية.

وكان لدولة الأغالبة أسطول عظيم. وكانت له الغلبة في البحر الأبيض المتوسط على أسطول روما... وقد فتح صقلية، وفالورية، وسردانيا، ومالطا. وكان مؤلفاً من عدة أنواع من السفن لأغراض مختلفة. وإليه يرجع الفضل في حراسة السواحل.

5 ـ العامل، ووظيفته إدارية، ينظر إلى المصلحة الوطنية من حيث الإدارة والتنظيم.

6 ـ الحاجب، هو مدير التشريفات، وله نفوذ كبير في القصر.

7 ـ القضاء، كان متمشياً مع أحكام الكتاب والسنة، والقياس، والاجتهاد فيما لم يرد فيه نص. وكان لا يتولاّه إلا من توفرت فيه قوة الإدراك والتبحر في العلم بعد استشارة أهل الحل والعقد في البلاد.

وكان القضاء مستقلاً عن الإدارة الأميرية، ولا يتدخل الأمير في شؤون القاضي وهو حر في أحكامه. ويعين القاضي نواباً عنه في الأماكن البعيدة من محل عمله داخل المملكة.

8 ـ الجند: ينقسم الجند إلى ثلاثة أقسام: الحرس الأميري وهو المخصص لحراسة الأمير، وليس له عمل غير ذلك. والجيش: وهو مركب من عدة عناصر: من العرب، والبربر، وغيرهم، وكلهم مأجورون «مرتزقة» لا غاية لهم من عملهم إلا الحصول على الأجر، وما يقع في أيديهم من الغنائم... أما المحافظة على الوطن وكيان الدولة فهما من الأمور التي لا تخطر لهم على بال... وقد كان هذا الجند المأجور من أقوى أسباب سقوط دولة الأغالبة.

أما سلاح الجند، فكان القوس، والرمح، والسيف، والكبش، والمنجنيق.

هذه هي أهم الوظائف التي كانت تعتمد عليها دولة الأغالبة في تسيير دفة الحكم وإقرار الأمن.

إبراهيم بن الأغلب

هو إبراهيم بن أبي العرب الأغلب، بن سالم أبي عقال، بن خفاجة التميمي، وهو أول من أسس دولة الأغالبة... وكان ماضي العزم، قوي الإرادة، صائب الرأي، وشجاعاً مقداماً، وعالماً وخطيباً. سمع من الليث بن

سعد، ووهب له جلاجل أم ولده... شاع ذكره بين الناس، واتجهت إليه أنظارهم.. وقد وقع عليه اختيار هارون الرشيد فولاه على الزاب... والزاب يطلق على عدة بلدان بجوار بسكرة، وكل منها يكوّن قرى متجاورة، كل منها يسمى الزاب منها زاب بسكرة، وزاب طولقة، وزاب الدوسن، وبسكرة قاعدة هذه البلدان كلها. فاضطلع بالأمر، وأحسن السيرة، ورضيته الكافة، واستقل بالولاية غير منازع وتوارثها بنوه خلفاً عن سلف كما سنذكره.

تقدم أن العكي كان ضعيف الإرادة، وتبين للرشيد عجزه عن إدارة الحكم. ونتيجة لهذا العجز طمع فيه بعض الثوار فثاروا به. وقد رفع الأهالي رغبتهم إلى الرشيد في تعيين إبراهيم بن الأغلب بدله. فاستجاب الرشيد لهذه الرغبة فعزله وولى بدله إبراهيم بن الأغلب.

وقد اشترط إبراهيم لنفسه شروطاً أقره عليها الرشيد ونفذها له، وهي ثلاثة:

أولاً: أن يستقل بإدارة شؤون إفريقية الداخلية عن الخليفة.

ثانياً: أن يتولى إمارة إفريقية ذريته من بعده (بطريق الوارثة).

ثالثاً: ألا يدفع الإعانة التي كانت تدفعها إفريقية لمصر، وقدرها مائة ألف دينار، واشترط على نفسه أن يدفع للخليفة خراجاً سنوياً قدره أربعون ألف دينار، فوافقه الرشيد على ما طلب، وولاه أميراً على إفريقية في جمادى الآخرة سنة 184 وهو أول أمير من بني الأغلب على إفريقية، وأول من جعل إمارة إفريقية وراثية في ذريته في العهد الإسلامي.

ومن قوله ـ وكان قد خلف زوجه بمصر ـ:

ما سرت ميلاً ولا جاوزت مرحلة إلاّ وذكرك يثني دائماً عنقي
ولا ذكرتك إلا بت مرتقباً أرعى النجوم كأن الموت معتنقي

بنى مدينة القصر سنة 185 على ثلاثة أميال من القيروان، وسماها العباسية ولها الآن بقايا آثار تعرف بقصور الأغالبة.

وفي هذه المدة كان سفيان بن أبي المهاجر عاملاً على طرابلس من مدة هرثمة فأقره إبراهيم بن الأغلب. ويظهر أن أهل طرابلس كانوا غير راضين عن سفيان بن أبي المهاجر فدبروا الثورة ضده، وثاروا عليه سنة 189 بزعامة إبراهيم بن سفيان التميمي، وأخرجوه من داره، وقتلوا أصحابه، وأمنوه على أن يخرج من طرابلس فخرج.

إبراهيم بن سفيان التميمي

وولى أهل طرابلس عليهم إبراهيم بن سفيان التميمي، وما كان إبراهيم الأغلب ليقر هذا العمل من أهل طرابلس، فهاجم طرابلس واستولى عليها، وقبض على إبراهيم بن سفيان، فعاهده على الطاعة، فعفا عنه، وأقره على عمله بطرابلس.

وذكر صاحب النجوم الزاهرة جـ3 ص 125 كلاماً يناسب هذا الموضوع، وهذا نصه:

«في سنة 188 استنجد إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية بأحمد بن إسماعيل والي مصر فأنجده بالعساكر.

وسبب ذلك أن أهل طرابلس الغرب كان قد كثر شغبهم على ولاتهم، وكان إبراهيم بن الأغلب قد استعمل عليهم عدة ولاة، فكانوا يشكون من ولاتهم فيعزلهم ويولي غيرهم، إلى أن استعمل عليهم سفيان بن المضاء وهي ولايته الرابعة، فاتفق أهل البلد على إخراجه عنهم وإعادة القيروان فزحفوا إليه، فأخذ سلاحه، فقاتلهم هو وجماعة ممن معه، فأخرجوه من داره، فدخل الجامع وقاتلهم فيه، فقتلوا من أصحابه جماعة، ثم أمنوه فخرج عنهم في شعبان من هذه السنة، وكانت ولايته سبعة وعشرين يوماً. واستعمل جند طرابلس عليهم إبراهيم بن سفيان التميمي.. ثم وقعت أيضاً بين الأبناء[1] بطرابلس وبين قوم يعرفون ببني أبي كنانة وبني يوسف حروب

(1) تكررت كلمة الأبناء في الموضعين وهي غير واضحة المعنى.

كثيرة؛ حتى فسدت طرابلس، فبلغ ذلك إبراهيم ابن الأغلب أمير إفريقية، فاستنجد بأحمد بن إسماعيل أمير مصر، وجمع جمعاً كبيراً، وأمرهم أن يحضروا بني أبي كنانة والأبناء وبني يوسف، فأحضروهم عنده بالقيروان فأراد قتلهم، فسألوه العفو عنهم في الذي فعلوه فعفا عنهم، وعادوا إلى بلادهم بعد أن أخذ عليهم العهود والمواثيق بالطاعة». ذاك كلام صاحب النجوم الزاهرة.

ويظهر أن سفيان المضاء هو سفيان بن أبي المهاجر. ونسب صاحب النجوم الزاهرة هذه الواقعة لسنة 188. ويفهم من كلام غيره أنها وقعت سنة 189.

عبد الله بن إبراهيم الأغلب

كنيته أبو العباس. ولاه والده على طرابلس سنة 196، فثار به جندها فأخرجوه منها، ثم جمع لهم من انضم إليه من البربر وغيرهم، وأعاد الكرة عليهم فغلبهم واستولى على طرابلس، ولكن والده ما لبث أن عزله وولى بدله سفيان بن أبي المهاجر للمرة الثانية.

سفيان بن أبي المهاجر

هذه هي المرة الثانية يتولى فيها عمل طرابلس، إلا أنه في المرة الأولى كان معيناً من قبل هرثمة بن أعين، أما في المرة الثانية فكان معيَّناً من قبل إبراهيم بن الأغلب.

وكانت قبيلة هوارة البربرية قبيلة كبيرة، كثيرة الأفخاذ، ذات جموع كثيرة، تحيط منازلها بطرابلس من كل جهة. وكان ما بين المدينة وجبل نفوسة قرى كثيرة ودساكر متصلة العمران. وكانت قبيلة هوارة إباضية المذهب، وأكثرها خاضع لحكم أبي منصور صاحب جبل نفوسة الذي كان تابعاً لإمامة الإباضية بتيهرت، وبعضها خاضع لحكم الأغالبة بطرابلس وكان

بينهما خلاف أدى إلى تعصبهم عليه، وأرادوا أن ينتهزوا فرصة ليستولوا على مدينة طرابلس ويجعلوها تابعة لصاحب جبل نفوسة فثاروا عليه سنة 196، فخرج إليهم بعسكره، والتقى بجموعهم في وادي الرمل، فتغلبوا عليه، ورجع الجند إلى طرابلس منهزمين، فتبعه هوارة وحاصروا المدينة ثم اقتحموها عليه فخربوها وهدموا أسوارها. قال ابن خلدون: «وتولى كبر ذلك منهم عياض ووهب. وبلغ الخبر إبراهيم بن الأغلب بتونس، فأرسل ابنه عبد الله في جيش كبير[1]، فاسترد المدينة من هوارة وجدد السور...».

ولم تهدأ ثائرة هوارة وإزاء ما لاقوه من شدة عبد الله الأغلب استغاثوا بعبد الوهاب بن رستم إمام الإباضية بتيهرت. وللعلاقة المذهبية بينهم لم يسعه إلا تلبيتهم، واجتمع عليه هوارة وقبائل نفوسة وكثير من قبائل البربر، وحاصروا ابن الأغلب في المدينة، وقد بذل كل جهده في الاحتفاظ بها، فسدّ باب زناتة وصار يدافع من باب هوارة المعروف الآن بباب المنشية، وفي أثناء حصار المدينة قتل مهديّ النفوسي.

قال في كتاب السيِّر للشماخي عند ذكر هذه الحادثة ما نصه:

«وهناك مات مهدِّي النفوسي، وذلك أنه خرج من المعسكر إلى شاطىء البحر، فسبحوا إليه حين أبصروه منفرداً فمسكوه وقطعوا رأسه. قال أبو زكريا: إذا قالوا له: انهزم المسلمون تعبّس، وإذا قالوا له: انهزمت المسودة انبسط وجهه وتبسم[2]». ويعني بالمسلمين الإباضية، ويعني بالمسودة عسكر العرب.

---

(1) في المنهل العذب: في ثلاثة عشر ألفاً.

(2) ذكر هذه القصة أيضاً سليمان باشا الباروني في كتابه «الأزهار الرياضية» ولم يعلق عليها بغير قوله: «وإن لله خرق العوائد فلا غرابة». يعني سليمان باشا لا غرابة في أن وجه مهدي النفوسي، بعد أن قطع رأسه، يضحك إذ قيل له انتصر الإباضية، ويعبس إذ قيل له انهزموا، وأعتقد أن هذه خرافة نقلت بدون تمحيص، والحامل على اختراعها الغلو في رفع شأن مهدي النفوسي. وإن دلت هذه الخرافة وغيرها على شيء فإنما تدل على الطعن في رواية الأخبار. وقلة التحري في نقلها... أما الأستاذ الشماخي فلم يعلق عليها بشيء.

وفي أثناء حصار عبد الله بن الأغلب في طرابلس بلغه وفاة أبيه إبراهيم[1]، فصالح ابن رستم على أن تكون المدينة ـ داخل السور ـ والبحر لعبد الله الأغلب وخارج السور إلى سرت لعبد الوهاب بن رستم. وبهذا أصبحت جميع الأراضي الطرابلسية داخلة تحت حكم الإباضية ما عدا المدينة داخل السور فبقيت تحت حكم عبد الله بن الأغلب.

وأقرَّ ابن الأغلب على طرابلس سفيان بن أبي المهاجر للمرة الثالثة ورجع إلى القيروان سنة 197 وسلم له أخوه زيادة الله الأمر وولي عهد أبيه.

وكانت وفاة إبراهيم بن الأغلب في شوال سنة 196، وعمره ست وخمسون سنة، وولايته اثنتا عشرة سنة وأربعة أشهر.

ولم يستقم أمر عبد الله بن الأغلب بعد أبيه لأنه كان سيىء السلوك جائراً في الحكم، وقد وعظه بعض الأخيار من علماء زمانه فلم يتعظ، فدعوا عليه فقبل الله منهم، فخرجت له قرحة تحت أذنه فمات منها ليلة 16 من ذي الحجة سنة 201 ودامت ولايته خمسة أعوام وشهراً.

زيادة الله بن الأغلب

هو زيادة الله بن إبراهيم، بن الأغلب. وكنيته أبو محمد، وهو زيادة الله الأول[2] تولى ولاية إفريقية في عهد المأمون بن الرشيد، وبويع له يوم الجمعة لسبع بقين من ذي الحجة سنة 201 بعد وفاة أبيه بأيام، وجاءه التقليد من المأمون، وكان أعلم أهل بيته، فأحسن والده تربيته، وشغل مجلسه بالعلماء، فبرع في العربية وآدابها. وحظيت إفريقية في أيامه بحظ وافر من العمران حتى بلغ خراجها ثلاثة عشر ألف مليون من الدراهم[3]. وقد ابتلي

(1) لما مات إبراهيم بن الأغلب عهد بالإمارة لابنه عبد الله وكان إذ ذاك في طرابلس وأمر ابنه زيادة الله أن يقوم بالأمر إلى أن يأتي أخوه عبد الله من طرابلس.

(2) له حروب كثيرة أعرضنا عن ذكرها.

(3) خلاصة تاريخ تونس.

بما يبتلى به الأمراء من اللهو والإسراف في الملذات، فساءت سيرته مع جميع الناس حتى مع جنده فثاروا عليه. . وفي سنة 202 هرب أخوه الأغلب إلى المشرق خوفاً منه. واتخذه زيادة الله الأغلبَ بن عبد الله غلبون وزيراً له.

وزيادة الله هذا هو الذي أسند قضاء إفريقية إلى أسد بن الفرات صاحب مالك بن أنس، ولاه قيادة الجيش الذي أرسله لغزو صقلية، وفتحها سنة 212[1] وفي صقلية يقول ابن حمديس:

ذكرت صقلية والهوى يهيّج للنفس تذكارها
فإن كنت أخرجت من جنة فإني أحدِّث أخبارها

وضاق الناس ذرعاً باستهتار زيادة الله، وثارت عليه جميع النواحي، وتقلص حكمه عن إفريقية ما عدا طرابلس وقابس والقيروان فتمسكوا به ولم يقطعوا عنه الجباية، وكان يشعر بإسرافه في المعاصي فيسلي نفسه بقوله: «ما أبالي ما قدمت عليه يوم القيامة وفي صحيفتي أربع حسنات: بنيان جامع القيروان. وقنطرة أبي الربيع. وحصن مدينة سوسه. وولاية أحمد بن أبي محرز قضاء إفريقية».

توفي زيادة الله يوم الثلاثاء الرابع عشر من رجب سنة 223، وعمره إحدى وخمسون سنة. ودامت ولايته إحدى وعشرين سنة، وسبعة أشهر، وثمانية أيام.

(1) أول من غزا صقلية في الإسلام عبد الله بن قيس الفزاري من قبل معاوية بن حديج في خلافة معاوية بن أبي سفيان. ثم محمد بن أبي أدريس الأنصاري أيام يزيد بن عبد الملك. ثم بشر بن صفوان الكلبي أيام هشام بن عبد الملك. ثم حبيب بن أبي عبيدة سنة 122. ووصل في فتوحه إلى سرقسطة وهي دار الملك، وأخذ الجزية من أهلها ورجع إلى إفريقية. ثم عبد الرحمن بن حبيب سنة 130 ثم أسد بن الفرات زمن زيادة الله بن الأغلب. وتوفي أسد بن الفرات سنة 213.

الأغلب بن إبراهيم

هو أخو زيادة الله الأول. ولقبه أبو عقال. ويقال له جزر.. تولى بعد أخيه زيادة الله، وأبقى سفيان بن أبي المهاجر عاملاً على طرابلس. وثارت عليه قبائل زواغة ولواتة من برابر طرابلس، وقتلوا سفيان بن أبي المهاجر عامله على طرابلس. وما زال بالثوار حتى تغلب عليهم. وكان حسن السيرة. توفي ليلة الخميس لسبع بقين من ربيع الآخر سنة 226.

محمد بن الأغلب

كنيته أبو العباس، ولي بعد أبيه أبي عقال. وهو الذي أسند قضاء إفريقية إلى الإمام سحنون سنة 234[1]، وأسند قضاء طرابلس إلى شرحبيل. وفي زمن غير معلوم أُسند قضاؤها إلى أبي العباس ابن بطريقة من أصحاب سحنون.

---

(1) سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي، ولد بالقيروان سنة 160، وتلقي العلم بإفريقية عن عليّ بن زياد وأسد بن الفرات، ثم توجه إلى المشرق سنة 188 فزار مصر والحجاز والشام، وأخذ الفقه عن عبد الرحمن بن القاسم، وابن الماجشون، ووكيع بن الجراح وغيرهم وعاد إلى القيروان سنة 191، فأظهر بها علم أهل المدينة، ومذهب مالك، وهو أول من ثبته في إفريقية، ولما اشتهر سحنون خاطبه الأمير أبو العباس في إسناد قضاء إفريقية إليه. وبعد امتناع منه دام نحو سنة لم يسعه - إزاء إلحاح الأمير - إلا القبول على شروط، منها إلزام المتنازعين من البيت المالك بالحضور لديه مع الخصوم، وأن يطلق يده في جميع الناس فقال الأمير: «نعم: لا تبدأ إلا بهم، وأجر الحق على مفرق رأسي». وأحدث تقليداً في القضاء، فأنشأ وظيفة صاحب المظالم يفصل في القضايا الصغيرة ويجلس إلى الناس في الأسواق والمجتمعات تسهيلاً عليهم، وطلباً للسرعة في حل النزاع. وكانت الحسبة تابعة للأمراء فأحيلت في عهد سحنون إلى القضاة، وهي أشبه بالشرطة البلدية. ولشدة تمسكه بالعدالة سمي «سراج القيروان» ولم يمنعه القضاء من بث العلم، فقد جاء إليه طلبته من الأندلس وجميع أقطار إفريقية تخرج عليه نحو سبعمائة رجل. وكان يدرس بجامع عقبة بالقيروان. وألف كتاباً كبيراً في مذهب مالك سماه المدوَّنة الكبرى.. وتوفي يوم 6 من رجب سنة 240 في دولة محمد بن الأغلب. ودفن بالقيروان. وقبره هنالك معروف.

توفي محمد بن الأغلب لليلتين خلتا من المحرم سنة 242، ودامت ولايته خمس عشرة سنة، وثمانية أشهر، واثني عشر يوماً، وعمره ست وثلاثون سنة.

أحمد بن محمد الأغلب

كنيته أبو إبراهيم. ولي إفريقية بعد وفاة أبيه محمد سنة 242[1]. وكان حسن السيرة.

عبد الله بن محمد الأغلب

ولاه أخوه أحمد عاملاً على طرابلس.. وفي سنة 245 ثار برابرة طرابلس على أحمد الأغلب. ومنعوا عليه العشور والصدقات التي كانوا يؤدونها. وحاصروا أخاه عبد الله في طرابلس، فجلا عنها إلى لبدة وتحصن بها. وكاتب أخاه في القيروان، واتفقا على أن يرسل كل منهما جيشاً للإطباق على طرابلس من الشرق والغرب، وكان جيش القيروان بقيادة أخيهما زيادة الله، ووقع البربر بين جيشين، والتحم الفريقان في معركة كانت حامية دامية، فهزم البربر، وقتل منهم خلق كثير، وطاردتهم الخيل فقتلت من أدركته، وأسر كثير منهم فضربت أعناقهم، واستولى على معسكراتهم، فأذعن من أفلت منهم من الموت وقدم الطاعة.

توفي أحمد يوم الثلاثاء الثاني عشر من ذي القعدة سنة 249. وعمره ثمان وعشرون سنة. ودامت ولايته سبع سنين، وعشرة أشهر، وسبعة أيام.

زيادة الله الأغلب

هو زيادة الله بن محمد الأغلب. وهو زيادة الله الثاني. تولى بعد أخيه أحمد[2]. وتوفي في آخر ذي القعدة سنة 250. ودامت ولايته عاماً وسبعة

(1) في خلاصة تاريخ تونس: بويع بعد وفاة عمه أبي العباس.

(2) في خلاصة تاريخ تونس: بويع بعد وفاة أبيه إبراهيم.

أيام، ولم يكن له من الأعمال ما يستحق الذكر.

محمد بن أحمد الأغلب

هو أبو الغرانيق. تولى بعد وفاة عمه زيادة الله. وكان جواداً إلى حد الإسراف، حسن السيرة، ثم غلب عليه لهو الأمراء.. ولقب بأبي الغرانيق - وهي نوع من الطيور - لشغفه بصيدها.. فتح جزيرة مالطة سنة 255. وأسر ملكها.

وفي أيامه اجتمع الشاعر المشهور أبو القاسم المالطي، وعبد الله بن السملطي المالطي، وكانت لهذا الأخير براعة في صناعة الشعر، فقال أبو القاسم لعبد الله: أجز هذا المصراع[1]:

جارية ترعى الصنج

فقال عبد الله من فوره:

بها القلوب تبتهج

كأن من أحكمها إلى السماء قد عرج

وطالع الأفلاك عن سر البروج والدرج

وعين محمد بن قهرب عاملاً على برقة.. وبنى حصوناً ومحارس كثيرة على ساحل البحر، على مسافة خمس عشر يوماً من برقة إلى جهة الغرب. وما زالت آثارها باقية إلى اليوم، وقد احتفظت له الأيام بإطلاق اسمه على بئر شرقي اليهوديات بأرض سرت ما زالت تسمى «أم الغرانيق»[2]. توفي في اليوم السابع من جمادى الأولى سنة 261. ومدة ولايته عشر سنوات، وخمسة أشهر ونصف.

---

(1) المصراع من بيت الشعر هو إحدى شطرتيه.

(2) تقع شرقي سرت بنحو 117 كم. وغربي العقيلة بنحو 38 كم.

إبراهيم بن الأغلب

هو إبراهيم بن أحمد بن محمد الأغلب. وهو إبراهيم الأصغر، ولد يوم عيد الأضحى سنة 230، وتولى بعد أخيه أبي الغرانيق. وكان أبو الغرانيق أوصى لابنه بالإمارة، وأن يكون أخوه إبراهيم وصيًّا عليه إلى أن يكبر، ولكن الناس طالبوا بإمارة إبراهيم لما عرفوه فيه من الحزم وحسن السيرة.

وفي أيام إبراهيم هذا غزا العباس بن أحمد بن طولون إفريقية لأخذها من الأغالبة. وقد ذكر بعض المؤرخين أن برقة كانت في سنة 261 تابعة لأحمد بن طولون بمصر، وعليها محمد بن فرج الفرعاني عاملاً عليها من قِبَلِهِ، فثار به أهلها في هذه السنة وأخرجوه منها، ونقضوا عهد ابن طولون، فأرسل إليهم جيشاً مع غلامه لؤلؤ، وأمره بملاينتهم، فلم تفلح الملاينة، وأرسل إلى ابن طولون بخبرهم، فأمره بالاشتداد عليهم، فضيق عليهم الحصار، ونصب عليهم المجانيق، فسلَّموا إليه، ودخل البلد، وقبض على جماعة من أهلها، وفظع في قتلهم، واستعمل عليهم أحد الموالي ورجع إلى مصر، وكان ذلك قبل خلاف العباس على أبيه.

وقد تقدم أن أبا الغرانيق بنى حصوناً ومحارس كثيرة على ساحل البحر على مسافة خمسة عشر يوماً من برقة إلى جهة الغرب، ويفهم من هذا أن برقة كانت تابعة لأبي الغرانيق. وسيأتي أن ابن طولون افتكَّ برقة من ابن قهرب عامل الأغالبة فيها وهذا يتنافى مع أنها كانت تابعة لابن طولون. اللهم إلا إذا قلنا إن ابن طولون كان يملك الجزء الشرقي من برقة مما يلي الحدود المصرية، وأن أبا الغرانيق كان يملك الجزء الغربي من برقة: أجدابية وما والاها.

العباس بن أحمد بن طولون

قدم العباس بن أحمد بن طولون من مصر سنة 267 أيام إبراهيم بن

الأغلب آنف الذكر إلى إفريقية لأخذها من الأغالبة... ذلك أن العباس حصل بينه وبين والده أحمد ملك مصر نفور، وكان أبوه استخلفه على مصر لما توجه إلى حصار سيما بأنطاكية فانتهز فرصة غياب والده وأخذ ما في بيت مال مصر من الأموال، وما كان لأبيه من الآلات وغيرها، وتوجه إلى برقة. هذه رواية صاحب النجوم الزاهرة، ونسب الواقعة إلى سنة 265.

وقال غيره: خرج مغاضباً لأبيه إلى إفريقية لاغتصابها من بني الأغلب، ولينشىء فيها ملكاً بعيداً عن والده، فأخذ معه ثمانمائة فارس، وعشرة آلاف راجل، وخمسة آلاف جمل. وأخذ معه من خزائن مصر ثمانمائة حمل جمل من الدنانير الذهب، وسار إلى إفريقية... وقد أشار عليه أحمد بن محمد الكاتب - وهو أحد رجالاته المخلصين له - بالتأخر حتى يصانع البربر ويجعل له فيهم يداً، فلم يسمع لقوله، وأرغمه على السير معه. وأَغَذَّ في السير ليدرك إفريقية قبل أن تلحق به خيل والده، وقبل أن يتمكن ابن الأغلب من الاستعداد للقائه... ومر ببرقة في ربيع الآخر فافتكها من ابن قهرب عامل الأغالبة، وفر ابن قهرب إلى تونس، وتلبث ابن طولون في برقة حتى رتب أموره وهيأ جنده وسار إلى طرابلس.

وكان ابن قهرب قد وصل إلى تونس وأخبر إبراهيم بن الأغلب بما حصل، فاستعد للقاء ابن طولون، وجهز جيشاً من ألف وستمائة فارس خيلاً جرداً لا راجل معها بقيادة ابن قهرب، وأدرك به طرابلس قبل أن يصلها ابن طولون، وجمع من جيشها وبربرها جيشاً وسبقه إلى لبدة.

ووصل ابن طولون في جيش جرار، فالتقى به ابن قهرب شرقي لبدة بنحو 15 كم، وانجلت المعركة عن هزيمة ابن قهرب، وطاردته خيل ابن طولون إلى طرابلس فتحصن بها... ولما مرَّ ابن طولون بلبدة خرج إليه عاملها وأهلها وأكرموه، ولكنه لم يرع حق هذا الإكرام، فأمر بنهبها فنهبت على غرة، وقتل رجالها، وانتهكت حرماتها... وفي هذه المعركة يقول ابن طولون مفتخراً:

لله دري إذ أعدو على فرسي ... إلى اللقاء ونار الحرب تستعرُ

وفي يدي صارمٌ أفري الرؤوس به ... في حده الموتُ لا يبقي ولا يذرُ
إن كنتِ سائلةً عني وعن خبري ... فها أنا الليثُ والصَّمصامة الذكرُ
من آل طولون، أما إن سألت فما ... فوقي لمفتخر بالجود مفتخرُ
لو كنت شاهدةً كري بلبدة إذ ... بالسيف أضربُ والهاماتُ تُبتدرُ
إذاً لشاهدت مني ما تناقله ... عني الأحاديث والأنباء والخبرُ

وحاصر ابن طولون طرابلس ثلاثة وأربعين يوماً لا يقدر منها على شيء، ونصب عليها المجانيق، وقطع عليها السبل.

وقد امتدت يد جند ابن طولون إلى البوادي الذين يسكنون خارج المدينة وكانوا من البربر الإباضية ومن أتباع إلياس أبي منصور النفوسي صاحب جبل نفوسة ونالوا من حرماتهم وأموالهم، فاستغاثوا به من ظلم جيش ابن طولون.

إلياس أبو منصور

إلياس أبو منصور صاحب جبل نفوسة ورئيس الإباضية به، وهو من بلدة تندميرة، وكان غير خاضع لحكم الأغالبة، بل كان يدين بالطاعة لإمام الإباضية بتيهرت. وقد كتب إليه ابن طولون حينما كان يحاصر طرابلس: «أن أقبل بسمعك وطاعتك، وإلا وطئت بلدك بخيلي ورجلي، وأبحت حرمك» فرد عليه إلياس: «أما إنك أقرب الكفار مني، وأحقهم بمجاهدتي، فقد بلغني من قبيح أفعالك ما لا يسعني التخلف معه عن جهادك، وأنا على إثر رسالتي إليك[1]».. فجهز جيشاً من اثني عشر ألف مقاتل، والتقى بابن طولون في قصر حاتم[2] سنة 267، فهزم ابن طولون، وتشتت شمله،

(1) الأزهار الرياضية للشيخ سليمان باشا الباروني.

(2) قبيلة الحواتم ما زالت معروفة إلى الآن، وتنسب إلى ترهونة، ووادي الحواتم معروف ينسب إليهم. وبه بقايا أبنية لا يبعد أن تكون بقايا قصر حاتم.

واستبيحت أمواله، وأخذ أهل طرابلس كل ما معه من مؤن وعتاد. ولم يأخذ البربر شيئاً من الغنائم لأنهم يرون حرمة أموال الباغين من الموحدين، ويستبيحون دماءهم ما داموا محاربين لهم، ولا يستبيحونها في حال السلم... ورجع ابن طولون إلى المشرق مهيض الجناح محطم الآمال[1]، وأرسل إليه والده جيشاً في طلبه فتفرق عنه أصحابه، وقبض عليه وأرسل إلى والده مقيداً.

وجاء إبراهيم بن الأغلب من تونس في جيش عظيم لملاقاة ابن طولون، فوجده قد انكسر جيشه، ورجع إلى المشرق... وبحث ابن الأغلب عن أموال ابن طولون فأخذها ممن وجدت عندهم، وكان الجندي يبيع دنانير ابن طولون سرًّا بأي ثمن خوفاً من وجودها عنده.

وبعد أن انتهت حرب ابن الأغلب مع ابن طولون، بقي ابن قهرب في طرابلس. إلا أن البربر ما زالوا غير مطمئنين إلى حكم الأغالبة في طرابلس، وكان أكثر بواديها يدينون بالطاعة لحاكم جبل نفوسة.. فأعادوا الثورة على طرابلس سنة 269 وقتلوا ابن قهرب عامل الأغالبة، واشترك في الثورة هوارة ولواتة. وقد أرسل إليهم إبراهيم بن الأغلب ابنه عبد الله في جيش، فتغلب عليهم، وأمعن في قتلهم واستولى على طرابلس ولم يعتبر أحد باستيلاء البربر على طرابلس في هذه المرة وقد يفهم هذا من سياق الكلام.. وأعادوا الثورة في سنة 280 فهزمهم أيضاً.

وفي رجب سنة 281 انتقل إبراهيم بن الأغلب إلى تونس للإقامة بها.. ولم ينس ابن الأغلب اعتداء ابن طولون عليه، فهو ما زال يفكر في الانتقام منه وقد اعتزم الأمر في غزوه في مصر. وفي المحرم سنة 283 جهز جيشاً وخرج من تونس لعشر خلون من المحرم، فأقام برقَّادة إلى سبع بقين من صفر، ثم خرج بجميع من معه قاصداً غزو ابن طولون في مصر، ووصل إلى قابس في ربيع الأول، فاعترضته نفوسة في قصر مانو لتمنعه من الذهاب إلى ابن طولون.

---

(1) ذكر في المنهل العذب زيادات لا فائدة من ذكرها.

ويبدو أن معارضة نفوسة لابن الأغلب ليست من مصلحتها في شيء، بل المصلحة في ذهابه، لأنه سيذهب في جيش كبير يكلفه نفقات كبيرة، وهذا مما يضعف ابن الأغلب ويسهل على نفوسة الثورة عليه إن أرادوا. ولذلك فقد عارض الفكرة كثير من أعيانهم منهم أفلح بن العباس، وسعد بن أبي يونس عامل قنطرارة - تيجي - ومعبد الجنَّاوني، ولكن رجحت كفة الأكثرية.

وتجمعت جيوش البربر في قصر مانو، وهو قصر قديم على ساحل البحر بقرب قابس، وكانوا زهاء عشرين إلفاً، فهزمهم ابن الأغلب هزيمة منكرة. قال في الأزهار الرياضية[1]: «فتبعهم وقتلهم قتلاً ذريعاً، وتطارح منهم في البحر بشر كثير، وقتلهم فيه حتى غلبت حمرة الدم على الماء». ثم قال: «وقد فل فيها حد سيوف نفوسة وفنيت فيها أبطالهم، وأبقت فيهم ثلمة عظيمة، وهي المصيبة الكبرى التي تضعضع بها ركن الإمامة بتيهيرت إذ كانوا حصنها المنيع. ولما ضعفوا أخذت في التقهقر وطمع الأعداء فيها حتى اضمحل أمرها». ولم تثن هذه المعركة الهائلة من عزم ابن الأغلب، بل ظل على عزمه على غزو ابن طولون، فسار إلى طرابلس، وكان بها ابن عمه أبو العباس محمد بن زيادة الله ابن الأغلب فقتله. وسبب ذلك أن المعتضد بالله العباسي كتب إلى إبراهيم يعنفه على أعماله في تونس، وقال له: إن لم تنته فسلم الأمر إلى محمد ابن عمك زيادة الله، وقد رأى في هذا تهديداً له بابن عمه، فقتله خوفاً أن يعزله المعتضد ويوليه مكانه.

وسار إبراهيم في جيشه من طرابلس إلى تاورغة، وهناك قتل خمسة عشر رجلاً وأمر بطبخ رؤوسهم، وأظهر أنه يريد أكلها هو ومن معه فارتاع الجند لذلك، وقالوا إنه خولط في عقله، فلما رأى ذلك خاف انصراف

(1) الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، للشيخ سليمان باشا الباروني، وقد ذكر أن كثيراً من رجالات نفوسة لم يوافقوا على معارضة ابن الأغلب، وقد ذكرنا بعضهم. وبسبب هذه المخالفة نزلت بهم تلك الكارثة العظيمة.

الجند عنه فرجع إلى تونس.

وفي سنة 289 أرسل ابنه عبد الله لغزو إيطاليا.. وبنى إبراهيم الحصون والمحارس على الساحل، حتى كانت النار توقد في سبتة بالمغرب للإنذار بمجيء العدو، فتوقد في تلك الليلة بالإسكندرية.

وهو الذي أسند قضاء طرابلس إلى موسى بن عبد الرحمن أبي الأسود المعروف بالقطان. صحب محمد بن سحنون وسمع منه. وكان يحسن المسائل والتكلم في الرأي على مذهب مالك وأصحابه. ولاَّه إبراهيم بن أحمد قضاء طرابلس فبغى وآذى فعزله وحبسه في الكنيسة دهراً ثم أطلقه.

وقد أصيب إبراهيم ـ بعد ستة أعوام من ولايته كان فيها مثال الاستقامة ـ بحالة عصبية جنونية أتى فيها أعمالاً لا تتفق مع العقل ولا مع الإنسانية، فكان يكثر القتل في أقاربه، وأبنائه، وإخوته، وخدمه، وأنصاره: فقد قتل ابنه بين يديه صبراً، وقتل ثمانية أخوة له ضربت أعناقهم بين يديه. وقد ولدت له بنات أخفتهن عليه أمه خوفاً عليهن من القتل، وربَّتهن من غير أن يشعر بوجودهن، حتى اجتمع عندها ست عشرة بنتاً كأنهن البدور. وقد رأت منه أمه مرة انشراحاً في نفسه وهدوءاً في أعصابه، فرأت ـ لهذه المناسبة ـ أن تزيده سروراً وانشراحاً، وظنت أن علمه بهؤلاء البنات خير وسيلة لذلك، فقالت له: يا سيدي لقد ربيت لك وصائف ملاحاً، وأحب أن تراهن، فقال: نعم، فأتت بهن له، وسمتهن له واحدة واحدة حتى عددتهن له، وبعد انتهاء المجلس أخذتهن معها وخرجت، وكان ثمن هذه المقابلة حياة هؤلاء الفتيات الست عشرة، فإن أمه ما كادت تغيب عنه ومعها البنات حتى قال لخادم له أسود ـ وكان بجواره ـ: اذهب إليهن وائتني برؤوسهن، فبهت الخادم، فراجعه، فهدده بالقتل إن لم يفعل، فذهب الخادم بالخبر إلى أمه، فذهلت وكادت تصعق، وأمرت الخادم أن يراجعه، فأفهمها ألا فائدة من المراجعة، فذهب إليهن الأسود وقتلهن الست عشرة، وأتى برؤوسهن معلقة من شعورها، وطرحها بين يديه.. ولا ندري أي المجرمَيْن أقسى من صاحبه قلباً: أإبراهيم الذي قسا قلبه وتحجرت عواطفه؟ أم ذلك الأسود الذي كان

أقسى جلاَّد على أولئك الفتيات الوادعات؟

توفي إبراهيم ليلة الثامن عشر من ذي القعدة سنة 289 وعمره اثنتان وأربعون سنة وولايته 28 سنة، وستة أشهر واثنا عشر يوماً.

عبد الله بن إبراهيم الأغلب

هو عبد الله الثاني، وكنيته أبو العباس، ولي بعد أبيه إبراهيم، وكان شجاعاً عاقلاً. وفي سنة 284 ـ في حياة والده ـ خرج لمحاربة نفوسة، فقتل منهم كثيراً وأسر نحو ثلاثمائة، ولما رجع بهم إلى والده إبراهيم قتلهم عن آخرهم وشق على قلوبهم فأخرجها، وأخرج بعضها بيده، ونظمت في حبال وعلقت على باب تونس، ولعمري إنها لقسوة فظيعة.

وقتل عبد الله في شعبان سنة 290. غدر به الجند فقتلوه وهو نائم، ويقال إن هذا الغدر كان بإيعاز من ابنه زيادة الله.

زيادة الله بن عبد الله الأغلب

هو زيادة الله الثالث. وكنيته أبو مضر. ولي الحكم بعد قتل أبيه في شعبان سنة 290 واتخذ رقادة عاصمة لملكه، وعيّن أخاه أحمد عاملاً على طرابلس، ووقف في وجوه الثوار حتى تغلب عليهم، واقتص من قاتلي والده خوفاً من أن يقال إنه متواطىء معهم. وقد ابتلي بحمى اللهو التي تصيب الأمراء دائماً، واشتغل بما لا يعني، فكان ذلك سبباً في تغلب أعدائه عليه.

وفي أيام زيادة الله هذا أراد الله زوال دولة الأغالبة فأصيبت في أيامه بالترف والانحلال. . . وفي أيامه ظهر أبو عبد الله الداعي لدولة العُبيْديّين وناصرته قبائل كتامة، فكان ما فيه زيادة الله من الانشغال باللهو والقعود عن واجبات الدولة من أقوى الأسباب التي مهدت لانتشار دعوة العبيديين. . وقد وقعت حروب بين الداعي وزيادة الله، كان أشدها واقعة الأرْبُس من أعمال الكاف بتونس وكانت الهزيمة فيها على زيادة الله، وقتل أكثر جنده، ولم

يمكنه الصمود أمام هجمات الداعي، فجمع ماله وولده وهرب إلى مصر في 26 من جمادى الآخرة سنة 296[1] وترك إفريقية تندب حظها من إهماله وسوء أعماله، وأرسل إلى أخيه أحمد في طرابلس فأخذه معه إلى مصر. واحتل أبو عبد الله الشيعي رَقَّادة غرة رجب سنة 296 واستولى على أكثر إفريقية. واستولى على مخلفات ابن الأغلب من الأموال والسلاح، فكان ما جمعه جدَّ كثير. وكان لابن الأغلب كثير من الجواري على جانب كبير من الجمال، فسأل عمن كان يكفلهن فذكرت له امرأةٌ صالحة كانت لزيادة الله فأحضروها وأحسن إليها وأمرها بحفظهن، ولم ينظر إلى واحدة منهن، وأمر لهن بما يصلحهن.

هذا ما فعله أبو عبد الله الشيعي مع جواري ابن الأغلب.

أما عبيد الله المهدي فإنه لما تسلم مقاليد الحكم عرض جواري زيادة الله فاختار منهن كثيراً لنفسه ولولده وفرق ما بقي منهن على وجوه كتامه.

اهـ. من (اتعاظ الحنفاء).

وكانت ولاية زيادة الله خمسة أعوام، وأحد عشر شهراً، وأربعة أيام. وبخروج زيادة الله من إفريقية انتهت دولة الأغالبة. وقد حكمت إفريقية مائة وإحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر... وتولى الحكم فيها أحد عشر أميراً، أولهم مؤسسها إبراهيم بن الأغلب الأول، وآخرهم زيادة الله الثالث. والملك لله يؤتيه من يشاء.

قال ابن خلدون: «وكان انقراض دولة بني الأغلب آخر عهد العرب بالدولة والملك في إفريقية وذهبت ريحهم، فلم تقم لهم بعد ذلك دولة.. وصار الملك للبربر وقبائلهم يتداولونه طائفة بعد أخرى. يدعون إلى الخلفاء الأمويين بالأندلس تارة، ويدعون إلى الهاشميين من بني العباس وبني الحسن تارة أخرى. ثم استقلوا آخر الأمر بالدعوة لأنفسهم» اهـ.

---

(1) ثم انتقل إلى فلسطين ومات بالرملة سنة 303 أو 304 ودفن ببيت المقدس.

الدولة العبيدية

أو دولة العلويين. أو دولة الفاطميين

هي دولة شيعية، تعظم أهل بيت النبوة وتنتسب إليهم وتنتصر لهم، وتغالى بعضُ أفرادها في تعظيمهم إلى درجة لا يقرها الدين الإسلامي ولا العقل السليم. أسسها عبيد الله المهدي سنة 296[1].

وقد تكلم فيها كثير من علماء المسلمين، ورموها بالفسق تارة وبالكفر أخرى. وقال فيها ابن تيمية: «بقي ولاة القاهرة نحو مائة سنة على غير شريعة الإسلام، وهم في الباطن إسماعيلية، ونصيرية، وقرامطة وباطنية». وقال الغزالي في الرد عليهم: «ظاهر مذهبهم الرفض، وباطنه الكفر المحض. وكانوا ينادون بين القصريْن في مصر: من لعن الصحابة فله دينار وإردب، وكانوا شر الخلف[2]».

ونسبت إلى مؤسسها عبيد الله المهدي فقيل لها الدولة العبيدية، ودولة العُبيديين: ويقال لها الدولة الفاطمية، والدولة العلوية. ويقول الأستاذ حسن إبراهيم صاحب كتاب «المعز لدين الله»: «وعلى أي نسبة فهي إسماعيلية

---

(1) دامت الدولة العبيدية إلى المحرم سنة 567. وبقيت في الحكم 269 سنة وثمانية أشهر، وأحد عشر يوماً، منها أربع وستون سنة وشهر في إفريقية. والعبيديون: ينسبون إلى أول خلفائهم وهو عبيد الله المهدي، بن محمد الحبيب، بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم ابن إسماعيل الإمام، بن جعفر الصادق.

ويقول ابن خلدون: ولا يلتفت لإنكار هذا النسب. وله على صحته حجج، ويجرح في رواية من ينكره أو يقدح فيه. وقد ذكر في الجزء الثالث ص 360 ما يؤيد به رأيه.

(2) انظر تاريخ ابن غلبون «التذكار».

وخلفاؤها قاطبة إسماعيليون». وقد نفى ابن حزم في جمهرة الأنساب شرف العبيديين وقال: «هذه دعوى مفتضحة، وكذب فاحش».

ويقول ابن الوردي في تاريخه ما نصه:

«أسست دولة العلويين في إفريقية سنة 296.

ومؤسسها هو: أبو محمد عبيد الله بن محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.. وقيل: هو عبيد الله بن أحمد بن إسماعيل الباني بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد إلخ.

واختلف العلماء في نسبه، فمن قال بإمامته قال نسبه صحيح، ومن العلويين من وافق عليه، ومنهم الشريف الرضي.

وقيل نسبهم مدخول، وبالغ قوم حتى جعلوا نسبهم في اليهود، فقالوا: لم يكن اسم المهدي عبيد الله، بل كان اسمه سعيد بن أحمد بن عبد الله القداح بن ميمون بن ديصان... وقيل فيه: سعيد بن الحسين، وأن الحسين المذكور قدم سَلَمِيَّةَ[1]، فجرى بحضرته حديث النساء، فوصفوا له امرأة يهودي حدَّاد بسلمية مات زوجها، فتزوجها الحسين بن محمد المذكور ابن أحمد بن عبد الله القداح، وكان للمرأة ولد من اليَهودي فأحبه الحسين وأدبه، ومات الحسين ولا ولد له، فعهد إلى ابن اليهودي الحداد، وهو المهدي عبيد الله، وعرَّفه أسرار الدعوة، وأعطاه الأموال والعلامات فدعا له الدعاة.

واختلف كلام المؤرخين وكثر في قصة عبد الله القداح بن ميمون بن ديصان، قالوا: إن ابن ديصان المذكور هو صاحب كتاب (الميزان) في نصرة الزندقة، وكان يظهر التشيع لآل البيت رضي الله عنهم، ونشأ لميمون بن ديصان ولد اسمه عبد الله القداح كان يعالج العيون بالقدح، وتعلم من أبيه

(1) قال في الروضتين جا ص 510: لا تزال معقلاً من معاقل الإسماعيلية الرئيسية.

ميمون الحيل، وأطلعه أبوه على أسرار الدعاة لآل النبي ﷺ، ثم سار القداح من نواحي كرج وأصفهان إلى الأهواز والبصرة وسلمية من أرض حمص يدعو إلى آل البيت، ثم توفي القداح وقام ابنه أحمد ـ وقيل محمد ـ مقامه، وصحبه رستم بن الحسين بن حشب بن زاذان النجاري من أهل الكوفة، فأرسل أحمد إلى الشيعة باليمن يدعو إلى المهدي من آل محمد ﷺ، فسار رستم إلى اليمن ودعا الشيعة فأجابوه، وكان أبو عبد الله الشيعي الحسين بن أحمد بن محمد بن زكرياء من صنعاء، وقيل من الكوفة، وسمع بقدوم ابن حوشب إلى اليمن وبدعوته، فسار أبو عبد الله الشيعي من صنعاء إلى ابن حوشب وكان بعدن، فصحبه واختص به. وكان لأبي عبد الله الشيعي علم ودهاء، وكان قد أرسل ابن حوشب قبل ذلك الدعاة إلى المغرب، وقد أجابه أهل كتامة، ولما رأى ابن حوشب علْم الشيعي ودهاءه أرسله إلى المغرب إلى أهل كتامة، وأرسل معه جملة من المال، فسار الشيعي إلى مكة واجتمع بحجاج المغاربة من كتامة فرآهم مجيبين إلى ما يختاره، فسار معهم إلى كتامة فقدمها منتصف ربيع الأول سنة 280.

صورة محضر كتب في بغداد بأمر القادر سنة 402 يتضمّن القدح في نسب العلويين خلفاء مصر. وكتب فيه جماعة من العلويين والقضاة والفضلاء، وأبو عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة.

ونص المحضر: منقول من تاريخ أبي الفداء جـ2 ص142 وتاريخ ابن الوردي:

«هذا ما شهد به الشهود أن معد بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد منتسب إلى ديصان بن سعيد الذي ينسب إليه الديصانية، وأن هذا الناجم بمصر هو منصور بن نزار الملقب بالحاكم حكم الله عليه بالبوار والدمار، ابن معد بن إسماعيل بن عبد الرحمن ابن سعيد، لا أسعده الله، وأن من تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس.

ابن الوردي

عليهم لعنة الله ولعنة اللاّعنين، أدعياء خوارج لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأن ما ادعوه من الانتساب إليه زور باطل، وأن هذا الناجم في مصر هو وسلفه كفار فساق زنادقة، ملحدون معطلون، وللإسلام جاحدون، أباحوا الفروج، وأحلوا الخمور، وسبّوا الأنبياء، وادّعوا الربوبية» وتضمن المحضر نحو ذلك أضربنا عنه. وفي آخره: «وكتب في ربيع الأول سنة 402».

وأكبر داعية لدولة العبيديين هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الصنعاني المعروف بالشيعي القائم بدعوة عبيد الله المهدي جد ملوك الدولة الفاطمية الذين كانوا في مصر.

خرج من صنعاء إلى عدن، فلقي فيها رستم بن الحسين بن حوشب النجار الذي ذهب إلى اليمن يبث فيها دعوة المهدي، فصحبه الحسين وصار من أكبر أصحابه. وهذا أول أمره في الدعوة. وله سيرة طويلة. . «انظر وفيات الأعيان».

وهو الذي نشر دعوة الدولة العبيدية، ومهد لها، وحارب من أجلها. وهو من الدهاة المفكرين، ولهذا فهي أسست بدعوة الدين بخلاف ما تقدمها من الدول.

عبيد الله المهدي(1)

هو مؤسس الدولة العبيدية وأول حاكم فيها. وهو عراقي الأصل، ولد

---

(1) ملخص مما كتبه الأستاذ محب الدين الخطيب في مجلة الأزهر عدد جمادى الأولى سنة 1373 الموافق 6 يناير سنة 1954.
وقال في معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي للمستشرق زانباور: «إنه عبيد الله المهدي ولد سنة 295، بن عبد الله، بن الحسين التقي، بن أحمد الوفي بن =

في الكوفة سنة 260، واختبأ في بلدة سَلَمِيَّة بؤرة الإسماعيلية الباطنية في شمال الشام.

ومن يوم أن ولد إلى أن استقر في سلمية كان يعرف باسم سعيد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن ميمون القداح.

وفي منطقة سلمية ومصياف ـ من بلاد الشام ـ مات علي بن الحسين، ابن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق. وأقام له الإسماعيلية ـ جماعة أغا خان ـ مزارات سرية... فرسم دعاة الباطنية بعد موته خطة جديدة لدعوتهم قرروا فيها نقل الإمامة من ذرية إسماعيل بن جعفر الصادق إلى ابنهم بالنكاح الروحي[1]، وهو سعيد بن أحمد القداح وقرروا تغيير اسمه من سعيد بن أحمد القداح ـ وهو اسمه الحقيقي ـ إلى عبيد الله المهدي.. وكلفوا بالدعاية له رجلين هما حسن بن فرح بن حوشب ابن زاذان الكوفي، وأبو عبد الله الشيعي. وأرسلوا ابن حوشب إلى اليمن، واشتهر فيه باسم منصور اليمن. وأرسلوا أبا عبد الله إلى إفريقية.

وقد أصاب أبو عبد الله الشيعي من النجاح في إفريقية ما لم يصبه ابن حوشب في اليمن. وبعد أن اطمأنوا إلى انتشار دعوتهم في إفريقية أرسلوا إليها سعيد بن أحمد القداح الذي سموه عبيد الله المهدي.

وقد انتبهت حكومة بني الأغلب إلى هذه الدعوة الخبيثة ـ ولكن بعد

= عبد الله الرضا، بن محمد المكتوم بن إسماعيل بن جعفر الصادق» وهذا النسب أكثر قرباً من الحقيقة من الأنساب المختلفة انظر ابن خلكان جـ1 ص 272».

فعبيد الله المهدي هو أول الخلفاء الفاطميين. والحسين التقي، وأحمد الوفي، وعبد الله الرضا، هؤلاء الثلاثة هم الأئمة المستورون. ومحمد المكتوم هو الملقب بالتام (قائم الزمان) وإسماعيل بن جعفر الصادق هو إمام الإسماعيلية توفي سنة 145.

(1) يفهم من كلام القرامطة في هذا الموضوع أن التبني بالنكاح الروحي هو إذن حامل أسطورة الحلول الإلهي لمن يشاء في حمل لقبه، لاعتبارات تؤهله لحمل هذا اللقب، وتجعله خلفاً أو ابناً روحياً له ولو كان من غير نسله، لأنهم يرون أن الإمامة ليست محتكرة تورث في عائلة مخصوصة.

فوات الوقت. فقبضت على ابن قداح وسجنته. وتمكن أبو عبد الله الشيعي من مهاجمة السجن وإخراجه فقويت شوكته وكثر أنصاره.

وقد بلغه أن أبا عبد الله الشيعي - داعيته - يعمل ضده فقبض عليه وقتله، وانتقم الله منه بيد صديقه[1].

هذا أصل عبيد الله المهدي، وهذا أصل العبيديين المنسوبين إليه.

وقد خالفهم في نسبتهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق جميع المسلمين في المغرب وفي كل مكان، وفي مقدمة الذين أنكروا عليهم هذا النسب الأشراف العلويون، وإنما هم منسوبون إلى سعيد بن أحمد القداح الذي ادَّعوا أنه ابن إسماعيل بن جعفر الصادق من طريق النكاح الروحي الذي ذكرناه آنفاً.

وقد جاء في كتب الإسماعيلية الحديثة أكثر من دليل على أن عبيد الله المهدي هو سعيد بن أحمد من ذرية ميمون القداح وأنه سعيد الخير الملقب بالمهدي.

ومن أراد أن يصف العبيديين بأنهم غير إسماعيلية، أو أنهم يعملون لخير الإسلام والمسلمين فلن يجد على صحة دعواه دليلاً واحداً.

ولما ذهب عبيد الله المهدي إلى المغرب. مرّ في طريقه بطرابلس فتوقف فيها مدة لنشر دعوته، فأرسل زيادة الله بن الأغلب إلى أخيه أحمد - عامله بها - أن يقبض عليه، ولأمر ما لم يفعل، واعتذر بأنه أفلت منه.

---

(1) لما أخرج أبو عبد الله الشيعي عبيد الله المهدي من السجن وفوض إليه أمر المملكة اجتمع به أخوه أبو العباس أحمد - وكان أكبر منه سناً، ولامه على ما فعل. وقال له: تكون أنت صاحب البلاد والمستقل بأمورها وتسلمها إلى غيرك وتبقى من جملة الأتباع؟. فندم أبو عبد الله وأضمر الغدر بالمهدي، وشعر المهدي بذلك، فدس على أبي عبد الله وأخيه أحمد من قتلهما في ساعة واحدة. وكان ذلك في منتصف جمادى الآخرة سنة 298 بمدينة رقادة. (من وفيات الأعيان).

ويقال إنه رشاه بمال كثير. وسافر عبيد الله من طرابلس بعد أن تحرج مركزه فيها إلى المغرب. وأول ظهوره بسلجماسة[1] في ذي الحجة سنة 296. وأسس دولته فيها. ودخل رقّادة في العشر الأخير من ربيع الآخر سنة 297. واستولى على مخلفات بني الأغلب وكانت شيئاً كثيراً. وبويع له فيها بالخلافة كما بويع له بالقيروان في تسع بقين من هذا الشهر. وبهذه المبايعة أصبحت دولة العبيديين ظاهرة في الوجود.

وكانت قبيلة كتامة البربرية أول من ناصر عبيد الله المهدي، ودولته.

ولما استقر أمره في رقادة والقيروان وجد معارضة كبيرة لمذهب الشيعة من أنصار مذهب مالك وبعض الحنفية، حتى شعرت نفسه أن دولته لا تستقر في إفريقية وفيها هذه المعارضة القوية، لأن المعارضين لا ينظرون إلى دولته أنها دولة عربية فاطمية، ولا إلى مذهبه أنه من مذاهب أهل السنة، بل ينظرون إلى دولته أنها دولة بربرية تناصر مذهباً اشتمل على كثير من المخالفات لما يراه المسلمون من الاحترام لصحابة رسول الله الأولين. ومن هذه الناحية كان أنصاره من كُتامة يرون أن لهم الحق في أن يكون نصيبهم في هذه الدولة أكبر من غيرهم. وكان أبو عبد الله الحسين الداعي يؤيد كتامة في وجوب تقديمهم على غيرهم... وشعر عبيد الله المهدي بتأييد الداعي لكتامة في رأيهم، فتسرب إلى نفسه سوء الظن به، وشعر بحرج مركزه، فسعى إلى استمالة الصنهاجيين إليه ليستعين بهم على كتامة أعدائهم، وقد تم له ذلك فانتصر بهم على الداعي وعلى الكتاميين، وقتل بعض كبار الكتاميين فخافوه، ثم قتل الداعي كما تقدم.

---

(1) ضبطها صاحب نزهة الأنظار: بفتح السين وسكون الجيم وفتح اللام.
وقال أحمد نجاتي في تعليقه على وفيات الأعيان: سجلماسة مدينة في جنوب المغرب الأقصى اختطها عيسى بن يزيد بن الأسود من موالي العرب وقيل مدرار بن عبد الله، كان ينتجع تلك الناحية لماشيته، فاجتمع عليه جماعة من البربر ـ وكانوا يدينون بمذهب الصفرية من الخوارج، فقدموه عليهم، وخلعوا طاعة الخلفاء، واختطوا هذه المدينة سنة 140. اهـ باختصار.

وأراد المهدي أن يبتعد عن القيروان محل النزاع ومعارضة المالكية فبنى المهدية وانتقل إليها، وسلط أنصاره على سكان الضواحي فأرهبوهم محاولين إخضاعهم بالقوة.

ولم يفد عبيد الله انتقاله للمهدية، ولا ما استعمله مع الناس من إرهاب وبطش، فقد اشتدت عداوة المالكيين له، وصاروا ينظرون إلى دعوته نظرتهم إلى دعوة المبتدعة مما زاد في قلقه وزعزع مركزه، فجاهروه بإنكار مذهبه وأعرضوا عنه. وتدرجت معارضتهم له من رفض مذهبه إلى رفض طاعته، وامتنعوا عن دفع الضرائب. وحاول التغلب عليهم من طريق استعمال القوة فلم يزدادوا إلا تمادياً في عداوته، وقد حصلت مناظرات بين الشيعيين والمالكيين انتصر فيها المالكيون. وأفحموهم بالحجة، وأصبح عبيد الله ومذهبه أبغض الناس والمذاهب إلى أهل إفريقية.

وقد بدا لرجالات الدولة الفاطمية أن بقاء دولتهم في إفريقية مهددٌ بالزوال ما دام المالكية يناهضونهم. وأصبحوا يحسبون لهذا الأمر حسابه.

ومات المهدي سنة 322 وخلفه بنوه وأحفاده وورثوا عنه هذه الفكرة وانتهت الدولة الشيعية إلى المعز لدين الله وأبدى محاولات في المغرب بواسطة جوهر الصقليِّ، وبالرغم على ما سفك فيها من دماء فقد باءت بالفشل، فازداد خوفه على الفاطمية، وأحس بأن إفريقية لم تعد معقلاً للفاطمية، فاتجه بتفكيره إلى مصر، وأنه يجب على الدولة الفاطمية أن تتخذ منها مركزاً إذا أرادت البقاء. وواتته الظروف بفساد حكم الإخشيديين في مصر، وتألم المصريين من حكمهم، وبموت كافور الإخشيدي، فغزاها بجيش جرار بقيادة جوهر الصقلي، ثم رحل هو إليها سنة 361. وخلف على إفريقية بني زيري الصنهاجيين الذين كانوا أيدوا الفاطميين ضد الكتاميين، وضد ثورة ابن كيداد وأخلصوا للفاطميين الإخلاص كله. وذهب المعز إلى مصر وهو في مأمن من متابعته بسوء، وبقي بنو زيري في إفريقية نواباً عن الفاطميين فيما تركوا لهم من ملك. وعلى الرغم من استقلال بني زيري بإفريقية، فإن ما بقي لهم من الصلة بالفاطميين كان يذكر المالكيين دائماً

بمذهب الفاطميين الذين كانوا ينظرون إليه كمذهب من مذاهب المبتدعة.

وقد أدرك بنو زيري أن أمرهم لا يستقر ما دام الناس يعتبرونهم نواباً للفاطميين أهل المذهب المبتدَع. ولا بد لهم من الانتماء إلى مذهب الإمام مالك، واقتناع الناس بصحة هذا الانتماء.

واشتدت الفتنة على الشيعة أيام المنصور، وهوجمت دار الإمارة وأحرقت الأسواق، وحاول المنصور أن يكبح جماح الفتنة فتعذر عليه، وأيقن ألا سبيل إلى إطفائها ولا إلى استقرار ملكه إلا بانتمائه إلى المالكية، واقتناع الناس بصحة هذا الانتماء، وقد كان ذلك. وانتهى ملك بني زيري إلى المعز بن باديس فأعلن انتماءه إلى مذهب المالكية وأرغم الناس على اعتناقه، وقضى على الشيعة ومذهبهم في إفريقية. وانتقم الشيعة في مصر من بني باديس بتسليط العرب عليهم، وكان ما سنذكره من أمر دخول العرب إفريقية.

هذا مختصر ما حصل بين مذهب الشيعة ومذهب المالكية.

أما الإباضية فكان موقفهم من الشيعة هو موقفهم من أهل السنة: موقف التحفظ وعدم الامتزاج، والنظر إلى غير العنصر البربري نظرة الغريب المحتل. وعلى هذا دأبوا، ولم تسنح لهم فرصة للثورة إلا ثاروا.

ماكنون بن ضبارة اللحياني

وأول ما افتتح به عبيد الله عمله في طرابلس أن عين ماكنون عاملاً عليها، وانتهز البربر فرصة ابتداء العهد الجديد وعدم استقرار الأمور، فثارت هوارة بزعامة أبي هارون الهواري وانضم إليهم جماعات من زناتة ولماية وغيرهم من القبائل البربرية، وحاصروا طرابلس، وتحصن ماكنون بداخل السور. فأرسل إليهم عبيد الله المهدي نجدة بقيادة تمام بن معارك ـ أبا زاكي ـ وهو ابن أخي ماكنون فحارب البربر خارج المدينة وانتصر عليهم، وبعث برؤوس كثير منهم إلى المهدي برقَّادة وبقي ماكنون بطرابلس، وقد بلغ

المهدي أن تمام ابن أخي ماكنون يتآمر عليه ويحرض ضده، فأوعز إلى ماكنون أن يقتله، فقتله غرة ذي الحجة سنة 298.

وأمن ماكنون ثورة البربر، وخلا له الجو، فتطاول في الحكم، وبسط أيدي بني عمه من كتامة في أموال الناس والتدخل في شؤونهم، وامتدت إلى حرماتهم، فثار به أهل طرابلس سنة 300 وأخرجوه منها فلحق بالمهدي برقَّادة، وأغلق أهل طرابلس أبواب المدينة، وقتلوا من كان بها من كتامة أنصار ماكنون[1].

محمد بن إسحاق القرشي

ولقبه ابن القرلين وبعد أن طرد الطرابلسيون ماكنون عامل المهدي قدَّموا عليهم محمد بن إسحاق القرشي «ابن القرلين»، فأرسل عبيد الله المهدي إلى طرابلس أسطولاً بحريّاً، فتلقاه أهل طرابلس بأسطولهم فأحرقوه وقتلوا من فيه. وأرسل إليهم ابنه أبا القاسم في جيش على طريق البر في جمادى الأولى من سنة 300، فاعترضته هوارة فأوقع بها. وحاصر طرابلس المدينة حتى فني ما بها من أقوات، وأكل أهلها الميتة، ولم يمكن ابن إسحاق المداومة على الحرب. فتقدم أهل طرابلس لأبي القاسم الشيعي وطلبوا منه الأمان فأمنهم على أن يسلموا إليه محمد بن إسحاق، ومحمد بن نصر ورجلاً آخر يقال له الحوحجة، فقبلوا ذلك وسلموهم إليه، ودخل طرابلس[2]، وفرض على أهلها غرامة مالية قدرها ثلاثمائة ألف دينار[3]، وقتل من كان فيها من الأغالبة بتهمة أنهم المدبرون لهذه الفتنة.

---

(1) يقول الأستاذ العسلي في تعريبه كتاب (ليبيا): وفي سنة 300 أباد سكان طرابلس الحامية التي كانت لها من قبل الإباضيين اهـ وماكنون بربري معين على طرابلس من قبل عبيد الله. ويظهر أن أنصاره من كتامة كانوا إباضيين.

(2) يفهم من رحلة التيجاني أنه دخلها سنة 303.

(3) وقيل أربعمائة ألف. ورواية المؤنس ثلاثمائة وأربعون ألفاً.

وقد وقع ما فعله أبو القاسم بأهل طرابلس من القتل وفرض الغرامة موقع الاستحسان من المعز لدين الله، وكتب إلى جوذر يقول له: «فاكتب باستحساننا فعله ورضانا بما يبلغنا من حميد سيرته، وليدم على ذلك ينفعه الله به إن شاء الله».

وتولى جباية مال الغرامة رجل يقال له خليل بن إسحاق من أبناء جند طرابلس.

وخليل هذا هو الذي أتم بناء جامع طرابلس الكبير أيام العبيديين وبنى منارته. . . وقد قتله ابن كيداد اليَفْرَني لما استولى على القيروان سنة 332.

وبعد أن استقرت الحال في طرابلس رجع أبو القاسم الشيعي إلى رقادة[1] ومعه الرجال الثلاثة الذين ذكرناهم آنفاً، فقتلهم بعد أن طاف بهم في شوارع القيروان على الجمال تشهيراً بهم.

حَباسة بن يوسف الكتامي

حَباسة ـ بفتح الحاء والسين المهملة. وقيل حبَاشة، بالشين المعجمة. وقيل بضم الحاء: وهو حباسة بن يوسف قائد بربري من قواد عبيد الله المهدي الفاطمي، حارب أبا اليمن الذي غزا برقة من قبل تكين[2]، وكانت الغلبة لحباسة على أبي اليمن، ورجع أبو اليمن مهزوماً إلى مصر واستولى حباسة على برقة، وتقدم إلى الإسكندرية واستولى عليها.

وفي سنة 302 جمع تكين جيوشاً جرارة وهاجم جيش حباسة وأجلاه عن الإسكندرية وبرقة ورجع حَباسة إلى المغرب في أسوأ حال. . وجيش حباسة أول جيش ورد الإسكندرية من جهة عبيد الله المهدي الفاطمي.

---

(1) رقادة مدينة بإفريقية تقع جنوبي القيروان بنحو ستة أميال بناها إبراهيم بن أحمد الأغلب سنة 263. ووقعت فيها حروب هائلة بين أبي الخطاب بن السمح وبين قبيلة ورفجومة. ويقال إنها سميت رقادة لكثرة ما رقد فيها من القتلى في هذه الملحمة.

(2) مولى المعتضد وقائده. وكان جباراً.

ابتدأ عبيد الله المهدي أمره من المغرب وسار إلى المشرق، ولما هدأت الحال في طرابلس بعد ثورة أهلها على عامله ماكنون شرع في الخطوة الثانية إلى الشرق للقضاء على بقية الأغالبة والعباسيين وطردهم من سرت وبرقة، فجهز جيوشاً كثيرة سنة 301 بقيادة حباسة بن يوسف الكتامي وتوجه إلى سرت لأنها إذ ذاك ما زالت تحت حكم الأغالبة فدخلها بدون حرب، وهرب من كان بها من جند العباسيين والأغالبة، وتقدم إلى أجدابية، فهرب من كان فيها من الأغالبة والعباسيين، وطلب أهلها الأمان فأمنهم ودخلها بدون حرب، واحتل مدينة برقة... وكان عبيد الله يمد حباسة بالجيوش بدون انقطاع.

وكان حباسة[1] مستبداً وقاسياً، لم تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلاً، فكان لا يفي بوعد، وكلما دخل مدينة قتل من أهلها وأخذ أموالهم، ووجد جماعة في برقة يلعبون بالحمام فأمر بهم فأجلسوا حول نار، وأمر بلحومهم أن تقطع وتشوى، ثم أمر بهم فألقوا في النار... ونادى في برقة: من أراد العطاء فليأت إلينا، فحضر إليه من الغد نحو ألف رجل، فأمر بهم فقتلوا جميعاً، ثم وضع جثثهم بعضها على بعض، وجيء له بكرسي فوضع على الجثث وجلس عليه، وأمر بالوجهاء من أهل البلد فدخلوا عليه فحبسهم وأهانهم، وقد مات منهم جماعة من فظاعة ما رأوا، وقال لهم: إن لم تأتوني غداً بمائة ألف مثقال قتلتكم جميعاً، فأحضروها له.

وقتل حَباسة في هذه السنة حارثاً ونزاراً ابني جمال المزاتي في نفر من أبناء عمومتهم في مدينة برقة، وباع نساءهم، وأخذ جميع أموالهم وقد ضاق أهل برقة بقبيح أفعاله، فشكوه لعبيد الله المهدي، فاعتذر، وحلف أنه ما أمر

(1) كان من أتباع عبد الرحمن القائم، أغار على الإسكندرية بأسطول مكون من مائتي مركب أيام المقتدر العباسي فاحتلها لعبد الرحمن القائم، وتقدم إلى الصعيد، فبعث إليه المقتدر جيشاً لمحاربته بقيادة بكير التركي.

بشيء من ذلك، وكتب إلى حباسة أن يرحل عن برقة فرحل إلى جهة مصر، وأتى أموراً أقبح مما كان يفعله في برقة. . .

وفي سنة 302 غزا أبو القاسم الإسكندرية ولم يوفق في هذا الغزو ورجع مهزوماً. وسبب غزوه الإسكندرية أنه أرسل قصيدة إلى بغداد يفخر فيها ببيته وبما فتح من البلاد، فأجابه الصولي[1] بقصيدة على وزنها ورويها ومنها:

فلو كانت الدُّنيا مثالاً لطائر لكان لكم منها بما حُزتُم الذّنب

فغضب من هذا البيت، وقال: «والله لا أزال حتى أملك صدر الطائر ورأسه ـ إن قدرت ـ أو أهلك دونه».

وفي هذه السنة ثار أهل برقة على عامله وقتلوه، وقتلوا كثيراً من رجال كتامة. . فأرسل إليهم المهدي الجيوش سنة 303 لتأديبهم على ثورتهم على عامل ابنه أبي القاسم، وكانت الجيوش بقيادة أبي مديني ابن فروخ اللهيضي. وقد استمر على حرب مدينة برقة وحصارها ثمانية عشر شهراً مع حصار شديد حتى افتتحها سنة 304، وقتل أكثر أهلها، وأحرق كثيراً منهم، واستباح ما فيها من أموال، وبعث بجماعة من وجوه أهلها إلى المهدي فأمر بقتلهم وبقي أبو مديني ببرقة إلى أن مات بها سنة 306.

وفي سنة 304 حارب المهدي أهل صقلية. وغزا مصر في ذي القعدة سنة 306 فاستولى على الإسكندرية وأكثر الصعيد. . . وفي هذه السنة ابتدأ في إنشاء المهدية، وانتقل إليها في شوال سنة 308. .

وشعر الناس ـ لا فرق بين السنيين والإباضيين ـ بسوء معاملة عبيد الله

(1) أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس بن محمد بن صول تكين المعروف بالصولي الشطرنجي. له كتب في الأخبار والأدب والتاريخ، أهمها أدب الكاتب توفي سنة 335 أو 336هـ.

وأنصاره، ولمسوا في أحكامهم القسوة والجوْر، فحقدوا عليهم وصاروا يتربصون بهم. وثارت نفوسة سنة 310 على عبيد الله، وقدموا عليهم أبا بطَّة، وهو أحد رجالاتهم، فعظم شأنه، وقويت شوكته. فأرسل إليهم عبيد الله أحد رجاله عليّ بن سلمان الداعي في جيش، فحاربته نفوسة وقتلوا كثيراً من جنوده، وفر عليّ إلى طرابلس، ثم أمده عبيد الله بالجيوش، وأعاد الكرة على نفوسة وحاصرها.

وولّى محمد بن عمر النفطي قاضياً على طرابلس.

ومضت مدة نحو اثنتي عشرة سنة لم نهتد إلى ما وقع فيها من أخبار وحوادث. وسيأتي عما قريب ما يفيد تذمر أهل السنة وعلماء القيروان من أعمال العبيديين حتى إنهم ناصروا عليهم ابن كيداد.

قال صاحب البيان المغرب: «ملك المهدي جميع المغرب، وإفريقية، وطرابلس، وبرقة، وجزيرة صقلية، وتوفي منتصف ربيع الأول سنة 322، وعمره ثلاث وستون سنة، ومدة ولايته 24 عاماً وعشرة أشهر».

محمد بن عبيد الله المهدي

كنيته أبو القاسم، ولقبه القائم بأمر الله. ويقال إن اسمه نزار. . كان عهد له أبوه المهدي بالأمر من بعده، وتولّى بعد وفاة أبيه. وفي أيامه ظهر مخلد بن كيداد وثار عليه في ناحية طرابلس.

مُخلَّد بن كيداد[1] صاحب الحمار
أبو يزيد

هو مخلد بن كيداد اليَفْرَني، بن سعد الله، بن مغيث، بن كرمان، بن

---

(1) بضم الميم وتشديد اللام. وضبطه صاحب خلاصة تاريخ تونس بفتح الميم واللام وسكون الخاء. وكان يستبيح الأموال والدماء.

مخلَّد، بن عثمان، بن وريمة، بن تبقراسن، بن سميدان ابن يَفرَن، ويَفرَن هذا أخو مغراوْ الذي تنسب إليه قبيلة مغراوة. وأمه أم ولد، واسمها سيكة، وهي سودانية لأنَّ والده كان يغشى السودان للتجارة فاتخذها جارية له. ومات والده وتركه فقيراً لا يملك شيئاً، وعاش زمناً على إحسان الناس، ولما كبر خالط النُكّار وتمذهب بمذهبهم. واشتهر عنه تكفير أهل السنة وسبّ علي بن أبي طالب، ونشأ في مدينة توزر من بلاد الجريد وهو من قبيلة زناتة. وكان يدعي أنه ابن المهدي، وكان يركب حماراً فسمي صاحب الحمار. وقد ظهر بجبال أوراس.

وقد ثار على محمد بن عبيد الله المهدي في جهات طرابلس سنة 333، وحاصر طرابلس وقاتله أهلها. وقد تبعه في بادىء الأمر كثير من البربر. ولشدة جور محمد بن عبيد الله المهدي على أهل السنة، وظلمه لهم، وتعذيبه إياهم انضم إلى ابن كيداد كثير من علماء القيروان لأنه كان يخفي أمره عليهم، وحاربوا معه... وقد استفحل أمر ابن كيداد وقويت شوكته، وهاجم ابن المهدي في رقّادة ففر أمامه إلى المهدية.

وسمى ابن كيداد نفسه شيخ المؤمنين. وكان يضمر لأهل السنة أشد العداوة، لأنه كان نكاريًا يستحل أموال أهل السنة ونسائهم، ولكن انتهز كراهتهم لمحمد بن عبيد الله الشيعي، فأخفى عليهم عقيدته فيهم وأظهر لهم صداقته واستغلبهم ضده... ولما رأى القدرة من نفسه على ابن المهدي الشيعي غدر بأهل السنة، وخلّى بينهم وبين الشيعي يقتلهم ويستبيح منهم ما حرّم الله، ولولا أنه خاف أن يقال عنه قتل أنصاره فينفضّ الناس من حوله لفعل بهم أكثر مما فعل الشيعي، وقد قتل الشيعي منهم خلقاً كثيراً.. ومع ذلك فقد افتضح أمر ابن كيداد وتحقق البربر كذبه فانفضوا من حوله.

كان ابن كيداد قاسي القلب، جباراً شديد البطش بأعدائه، تدل أفعاله على نبذ الأديان، وعدم احترام الإنسانية... دخل القيروان بعد أن خرب البلاد، وقتل الرجال، وسبى النساء، وشق فروجهنّ، وبقر بطون الحوامل، والتجأ الناس إلى القيروان حفاة عراة ومات كثير منهم عطشاً وجوعاً، وشكا

إليه بعض الناس ما حل بالبلاد من خراب، فقال لهم في سخرية واستهزاء: «وما يكون لو خربت مكة أو بيت المقدس»!!

توفي أبو القاسم محمد بن عبيد الله المهدي في 13 من شوال سنة 334. ودامت ولايته اثنتا عشرة سنة.

إسماعيل بن محمد القائم

هو أبو الطاهر، ولقبه المنصور، عهد له أبوه في حياته بالإمارة، وبويع بها بعد وفاته، وكان ابن كيداد ما زال قائماً بالثورة، فخرج لقتاله وهزمه. وأعاد ابن كيداد الكرة فهزم أيضاً في معركة شديدة. وفر إلى قلعة كتامة، فتبعه إسماعيل وحاصره بها. واقتحمها عليه وظفر به مثخناً بجراحه، ومات متأثراً بها، فسلخ جلده وحشاه تبناً وصلبه. وفي سيرة جوذر: وحَشاه سعفاً. وفي هذه المعركة يقول علي بن محمد الإيادي الشاعر:

فارتقى الملعون من خيفته ... في ذرى أعيط عال مُصَّعد
في ذرى حلقاء ملساء على ... ذلك المعقل ليست بصدد
معقل من فوقه الله ومن ... تحته المنصور في جيش مُعد
فارتقى المنصور بالسيف له ... يوم طعن كشآبيب البرد
فإذا مخلد في كف الردى ... موثق الجيد بحبل من مسد

إلى أن قال:

فأبى الله سوى إعجاله ... وعذاب الله للجسم أهد
فنضى عنه أديماً دنساً ... كان قد أسرف فيه ومرد
كأديم التيس لما لم يطب ... ريحه جرد منه فانجرد
وحشاه سالخوه سعفاً ... مالياً ما بين كعب وكند
ثم رقاه على مستحصد ... باسق أجرد ما فيه أود

ا هـ. من سيرة جوذر

وبقي مصلوباً حتى تمزق جلده وأذرته الرياح وكان ذلك في المحرم سنة 336... وواصل ابنه الثورة مطالباً بثأر أبيه فأرسل إليه المنصور زيري بن مَناد فقتله. وانتهى أمر ابن كيداد وابنه.

وفي سنة 336 بنى المنصور مدينة المنصورية، وهي منسوبة إليه. ويقال لها صبرة وهي على نصف ميل من القيروان، وانتقل إليها سنة 337، وتوفي في العاشر من شوال سنة 341، وعمره تسع وثلاثون سنة، ومدة ولايته سبعة أعوام ونصف شهر.

زياد الصقلي

كنيته أبو الفتوح. ولاه إسماعيل المنصور عاملاً على طرابلس. وقام بأعباء الحكم فيها، وعني بإصلاح سور المدينة، وزاد في جميع جهاته البرية والبحرية في أيام المعز سنة 345.

المعز لدين الله

هو معد بن إسماعيل المنصور، وكنيته أبو تميم. ولد بالمهدية في 11 من رمضان سنة 319 وعهد له والده بالخلافة بعده، ويقال: بويع له في حياته، وجددت له البيعة يوم وفاته، وفي يوم الأحد السابع من ذي الحجة سنة 341 جلس على سرير الملك، وسلم الناس عليه بالخلافة، وهو الخليفة الفاطمي الرابع. وكان عالماً فاضلاً جواداً منصفاً، وهو أول خليفة من العبيديين ملك مصر.

وفي سنة 342 ولى باسيل الصِّقليّ عاملاً على سرت، وولّى على أجدابية ابن كافي الكتامي. وولى على برقة وأعمالها أفلح الناسب. وكان له فتح في صقلية سنة 345... وفي أيامه دخل اليهود إفريقية.

وبدخول برقة تحت حكمه أصبحت حدود مملكته على حدود مصر،

ومكنه هذا الجوار القريب من استطلاع أحوالها والوقوف على حقيقة حكم الإخشيديين فيها. وصارت نفسه تنازعه إلى احتلال مصر من الإخشيديين، وأصبح يتحين الفرص... وفي صفر سنة 355 مات كافور الإخشيدي فاضطرب حبل الأمن في مصر، فكان ذلك مما شجع المعز على الإقدام فاعتزم الأمر وأخذ يعد العدة لذلك، وفي هذه السنة أمر بحفر الآبار، وبناء القصور في طريق مصر. وقد بنى على رأس كل ثلاثين ميلاً قصراً من القيروان إلى مصر. وحشد الجيوش الجرارة وجمع الأموال اللازمة لها، واختار لقيادة هذا الجيش الفاتح مملوكه جوهر الصقلّي، وزوده بالأموال الكافية، وأمر قواده، وعماله في جميع النواحي أن يترجلوا في ركابه. وقد استكملت جميع الوسائل والمعدات للجيش ولم يبق إلا الرحيل، وكان الجيش يربي على مائة ألف.

وفي يوم السبت الرابع عشر من ربيع الأول سنة 358 ابتدأ هذا الجيش مسيره إلى مصر، بقيادة جوهر الصقلي[1] وانساب في تلك البطائح يملأ ما بين تونس ومصر، لا يتجاوز الطرف أوله ولا ينتهي إلى آخره. وقد وصف ابن هانىء كثرة هذا الجيش بقوله:

ألا إن هذا حشدُ من لم يذق له ... غرارَ الكرى جفنٌ ولا بات يهجعُ
إذا حلَّ في أرض بناها مدائناً ... وإن سار في أرض غَدت وهي بَلقعُ

وقد أنفق المعز على تجهيز هذا الجيش أربعة وعشرين مليوناً من الدنانير.

وحينما مر جوهر ببرقة كان بها أفلح الكُتامي[2] عاملاً عليها من قبل

---

(1) كنيته أبو الحسن، وهو رومي وكان غلاماً للمنصور والد المعز. توفي بمصر سنة 381 ولم يبق شاعر بمصر إلا رثاه. وقال ابن خلكان: سافر جوهر القائد من إفريقية، ومعه أكثر من مائة ألف فارس ومعه أكثر من ألف ومايتي صندوق من المال. وكتب المعز إلى عامله على برقة أفلح الكتامي أن يترجل للقائد جوهر.

(2) هو أفلح بن ناشب الكتامي، عامل برقة وواليها للمعز.

المعز، فأنفت نفسه أن يترجل في ركاب جوهر كما أمر المعز عماله أن يترجلوا في ركابه. وقدم له خمسين ألف دينار على أن يعفيه من ذلك، فأبى جوهر إلا أن يترجل في ركابه كغيره من العمال والقواد، ورد عليه المال، فترجل الكُتامي. وبعد مسير خمسة أشهر دخل مصر يوم الثلاثاء 18 من شعبان سنة 358، ولم يجد عناء في فتحها، ووضع أساس القاهرة إثر دخوله، وأرسل إلى المعز يبشره بالفتح ويستقدمه إلى مصر.

وفي جمادى الآخرة سنة 359 شرع في بناء الأزهر وانتهى منه في رمضان سنة 361، وفتح دمشق سنة 358 بقيادة جعفر بن خلاف أحد قواد جوهر. وأخذ المعز يفكر في الانتقال إلى مصر ويعد له العدة.

رحلة المعز إلى مصر

بعد أن تم فتح مصر، وأسست القاهرة، وتم بناء الأزهر. وبعد أن وطد جوهر ملك سيده المعز في مصر، وفتح دمشق ـ بعد كل هذا لم يبق للمعز إلا أن يرحل عن إفريقية مسقط رأسه، وموطن آبائه وأجداده، ليتمتع بملك مصر، ويمثل بما قاله فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ * وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾.

قال في سيرة الأستاذ جوذر: كان له أثر كبير في برقة لما قام به من جهاد لكل من خالف المعز من البربر وغيرهم، ولكل ما يلي مصر من القبائل من ناحية برقة مثل بني قرة وسواهم من الأعراب، فخضعت له بلاد برقة. وقد بلغ من اعتداد أفلح بنفسه أنه أبى أن يترجل للقائد جوهر عند مروره ببرقة إلى مصر مع عظيم منزلة جوهر، وكان المعز يعتمد على أفلح في مهاجمة جزر بحر الروم من موانىء برقة. وكانت برقة قاعدة لغزو تلك الجزر منذ الفتح الإسلامي اهـ.

وقد مدحه ابن هانىء بقصيدة منها هذا البيت:

حيّوا جلالة قدره فكأنما ... حيّوا أمين الله في الدّيوان

وقد وكل إليه المعز القضاء على ثورة آل قرة من عرب البحيرة فنجح في ذلك نجاحه في توطيد دعائم الملك والأمن في برقة.

وفي 22 من شوال سنة 361 رحل المعز لدين الله من المنصورية[1] إلى سردانية - وهي بلد قريب من القيروان - فأقام بها حتى لحق به أهله وماله وجنده، وأخذ معه ألف جمل محملة بالمال، وفي أول صفر سنة 362 رحل إلى مصر، واستخلف على إفريقية بُلكين بن زيري، وسماه يوسف، وكنيته أبو الفتوح، وذلك لتكون مملكتهم في المغرب حصناً لمملكتهم في المشرق، ولتحول إفريقية بينهم وبين زناتة الموالين لبني أمية. وكانت صنهاجة تناصر العلويين.

واستثنى المعز لعبد الله بن يخلف الكتامي من إفريقية: طرابلس وسرت وبرقة، فلم يدخلها تحت حكم بلكين وألحقها بمصر، وولى عليها عبد الله ابن يخلف الكتامي، تقليلاً من نفوذ بلكين، لأن سياسة الفاطميين كانت مبنية على الاعتماد على أنصارهم، وإشعار هؤلاء الأنصار بدوام صلتهم بهم، مراعين في ذلك مصلحتهم بقدر الإمكان. . . وكان مقر يخلف الكتامي طرابلس.

وسار بُلكين مع المعز إلى قابس يودعه ويتلقى إرشاداته ووصاياه، وقد أوصاه بثلاث:

ألاَّ يرفع السيف عن البربر. ولا يرفع الجباية عن أهل البادية، ولا يولي أحداً من أهل بيته.

ورحل المعز من قابس يوم الأربعاء العاشر من ربيع الأول سنة 362، ودخل طرابلس يوم الأربعاء 24 من الشهر المذكور، وكان معه جماعة من الإباضية فهربوا إلى إخوانهم في جبل نفوسة فلم يبالهم. ورحل عن طرابلس يوم 17 من ربيع الآخر ووصل إلى سرت في اليوم الرابع من جمادى الأولى. . . ورحل عنها ونزل بقصره الذي بني له في أجدابية[2]. ورحل

(1) نسبة إلى المنصور بن بلكين بن زيري. وتسمى صبره أيضاً.

(2) كان أحد مماليك المعز يسمى جوذر كان معه في هذه الرحلة، وقد مرض مرضاً شديداً فكان يتمنى أن يجتمع بالمعز، فاجتمع به في هذا القصر، وكانت آخر مرة =

عنها ونزل بقصره المعروف بالمعزية[1] في برقة في أواخر رجب. وكان معه الشاعر محمد بن هانىء الأندلسي، وكان يتغالى في مدح المعز إلى حد الكفر، وله أشعار صريحة في ذلك، منها قوله يخاطب المعز:

فكأنما أنت النبي محمدٌ وكأنما أنصارك الأنصارُ

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهارُ

هذا الذي تجدي شفاعته غداً حقّاً وتَخْمُدُ أن تراه النار

ومن شعره في المعز:

النور أنت وكل نور ظلمةٌ والفوق أنت وكل فوق دُونُ

فارزُق عبادك منك فضل شفاعةٍ واقرب بهم زُلفى فأنت مَكينُ

ومنه:

نَدعوهُ منتقماً عزيزاً قادراً غفّار مُوبقة الذنوب صَفوحا

أقسمتُ لولا أن دُعيت خليفَة لدُعيتَ من بعد المسيح مسيحا

شهِدتْ بمفخركَ السمواتُ العلا وتَنزَّلَ القرآن فيك مديحا

ومنه:

وَعلمتَ من مكنون سر الله ما لم يُؤتَ في الملكوتِ ميكائيلا

= اجتمع فيها بالمعزّ.. ومات جوذر في مدينة برقة من مرضه هذا. وحمل إلى القصر الذي كان به المعز بموضع يعرف بمياسر وصلّى عليه، ودفن بالمسجد الذي كان بهذا القصر. وأصل جوذر من الصقالبة وعتقه المعز سنة 336 تقريباً، ولقب بجوذر مولى المعز، وكان من أقرب المقربين إليه.

(1) يوجد الآن مكان في برقة يقال له العزيات قريباً من طريق العبد جنوبي الجبل الأخضر، وبهذا المكان آثار بناء قديم، ولا يبعد أن تكون آثار قصر المعز، ولطول الزمن حرفت إلى العزيات. وطريق العبد ـ على ما يقال ـ هو الذي سلكه جوهر الصقلي في مجيئه إلى مصر.

لَـوْ كـان آتـى الـخـلـق مـا أوتـيـتَـه — لـم يـخـلـق الـتـشـبـيـه والـتـأويـلا

وقال فيه:

ونـورُ هـدًى فـي جـسـم نـور يـمـدهُ — شُعاعٌ من الأعلى الذي لم يجسَّم

فأقسِمُ لو لـم يأخذ الناس وصفه — عـن الله لـم يُـعـقـلْ ولـم يُـتـوهـم

وبمثل هذا الإغراق في الكفر يمدح ابن هانيء المعزّ الفاطمي، ولمثل هذه المكفِّرات يصغي المعز ولا ينكرها، فأي مكفرات بعد هذه يا ترى ينكرها المعز؟

وابن هانئ هو محمد بن هانيء ويلقب بأبي القاسم، وأبي الحسن، وهو من قبيلة الأزد ولد بأشبيلية من بلاد الأندلس، واتصل بجوهر الصقلي سنة 347 تقريباً، وكأنَّ إحسانَ جوهر له لم يشبع نفسه الطامحة فاتصل بجعفر ابن علي أحد قواد المعز وأمير الزاب فأغدق عليه ما أرضاه. واتصل بالمعز سنة 350 في القيروان، وصحبه في رحلته إلى مصر. واغتيل ابن هانئ في برقة لسبع ليال بقين من رجب سنة 362 وهو في الثانية والأربعين من عمره نتيجة التآمر عليه من خصومه السياسيين والأدباء لما كان له من الحظوة لدى المعز.

وقد وجد مقتولاً بساحل البحر ببرقة ولم يعرف قاتله. ولما بلغ المعز خبرُ وفاته تأسف وقال: هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك.

وقال في المغرب ص97 ج2: «أبو القاسم محمد بن هانيء الأزدي أصله من بني المهلَّب الذين ملكوا إفريقية، وانتقل أبوه منها إلى جزيرة الأندلس، وسكن إلبيرة فولد له بها محمد بن هانيء المذكور، وبرع في الشعر واشتهر ذكره. وقصد جعفر بن علي الأندلسي ملك الزاب من المغرب الأوسط، واحتال لمقابلته، وأكرمه وأجلّ قدره، وبقي في جواره مكرماً، إلى أن كتب المعز الإسماعيلي الخليفة بالقيروان إليه في توجيهه لحضرته، فوجهه للقيروان، فقال فيه الشعر وبالغ في مدحه».

وكان ابن هانيء مغرماً بحب الصبيان، وله في ذلك أشعار مبتذلة.

ولما رحل المعز إلى مصر رجع لتوصيل عياله، فقتل في برقة على صبي.

وقال في وفيات الأعيان جـ2 ص5: «التحق بجعفر ويحيى ابني علي بالمسيلة وهي عاصمة الزاب، فامتدحهما فبالغا في إكرامه والإحسان إليه. فنمي خبره إلى المعز العبيدي فطلبه منهما، فلما انتهى إليه بالغ في الإنعام عليه. ولما توجه المعز إلى الديار المصرية شيعه ابن هانيء ورجع إلى المغرب لأخذ عياله والالتحاق به، فتجهز وتبعه. ولما وصل إلى برقة أضافه شخص من أهلها فأقام عنده أياماً في مجلس الأنس، فيقال إنهم عربدوا عليه فقتلوه. وقيل خرج من تلك الدار وهو سكران فنام في الطريق وأصبح ميتاً[1] ولم يعرف سبب موته. وقيل إنه وجد في سانية من سواني برقة مخنوقاً بتكة سراويله. وكان ذلك في بكرة يوم الأربعاء لسبع ليالٍ بقين من رجب سنة 362 وعمره ست وثلاثون سنة وقيل اثنتان وأربعون. هكذا قيده صاحب كتاب أخبار القيروان».

وله في المعز غرر المدائح. فمن ذلك قصيدته النونية التي يقال فيها:

فارزُق عبادَك منك فضلَ شفاعة   واقرُب بهم زُلفى فأنتَ مَكين

وكان المعز وأجداده يستمعون إلى مثل هذه المكفرات ولا ينكرونها. وكانت أيمان كتامة أيام المهدي: «وحق عالم الغيب والشهادة مولانا المهدي الذي برقّادة» وقد قتلوا العروس مؤذن مسجد ابن عياش بعد أن ضربوه بالسياط وقطعوا لسانه لأنه أذن ولم يقل حيّ على خير العمل، وكانوا يمنعون الناس من صلاة الضحى وصلاة التراويح... وعلى كل حال فإن الذين يريدون الطعن على أعمال العبيديين يجدون أكثر من دليل على أنها لا

(1) قال في النجوم الزاهرة إنه قتل في رجوعه من مصر إلى المغرب للإتيان بأهله ولحوقه بالمعز في مصر.

تتفق مع تعاليم الإسلام، ولا مع ما كان عليه نبي الإسلام.

وواصل المعز سيره من برقة، فوصل الإسكندرية يوم 23 من شعبان سنة 362. ووصل مصر يوم السبت الثاني من شهر رمضان من هذه السنة، ودخل القاهرة يوم الثلاثاء الخامس منه: ودخل من الباب القبلي وهو باب زويلة[1] ووفد عليه أعيان القاهرة فأكرمهم وأحسن استقبالهم.

وامتد ملك المعز من مضيق سبتة بالمغرب إى مكة بالمشرق. وكان يصدر أوامره بالقاهرة، فيأتمر بها سكان سواحل المحيط الأطلنطي.

ويظهر أن المناطق الجنوبية من إفريقية التي كانت يسكنها البربر لم تدخل تحت نفوذه، لأنه تقدم أنه لما مر بطرابلس وكان معه جماعة من البربر فروا إلى إخوانهم بجبل نفوسة. وهذا يدل على أن جبل نفوسة لم يكن تحت نفوذه، وقد تقدم أنه كان تابعاً لتيهرت عاصمة إمامة الإباضية، ويظهر أنها هي أيضاً لم تكن تحت نفوذ المعز.

وبقي المعز في مصر سنتين ونصفاً. وتوفي بالقاهرة في السابع من ربيع الأول سنة 365. ودامت ولايته بإفريقية ومصر ثلاثاً وعشرين سنة وخمسة أشهر.

ودامت دولة الفاطميين 260 سنة، منها اثنتان وخمسون سنة بالمغرب ومائتان وثمان سنوات بمصر. وعدد خلفائها أربعة عشر خليفة، أولهم عبيد الله المهدي، وآخرهم العاضد الذي توفي بمصر يوم عاشوراء سنة 567، وبموته انقرضت دولة الفاطميين من المشرق والمغرب. والملك لله وحده. يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء.

---

(1) لما بنى جوهر القاهرة كان معه طوائف كثيرة من البربر، وكانت طائفة منهم تسمى زويلة، فسكنت بقرب هذا الباب فسمي باسمها وما زال معروفاً بها إلى الآن. ويسميه العامة بوابة المتولي غلطاً. وبجواره حارة تسمى حارة زويلة.

الدولة الصنهاجية

نسبة إلى صنهاجة، وهي قبيلة بربرية من قبائل البربر ذات الشهرة والمكانة الكبيرة في إفريقية، وكانت تناصر العلويين، ولذلك كانت محل ثقة المعز لدين الله. . . وكان بيت آل زيري من بيوتاتها المشهورة لذلك اختصه المعز بثقته، وجعل رجالاته خلفاءه على إفريقية من بعده.

والدولة الصنهاجية، وإن كانت تمثل الدولة العبيدية في إفريقية. . وقد حكمت إفريقية 182 سنة، من سنة 361 إلى سنة 543، وتولاها ثمانية أمراء من آل مَناد، أولهم بلكين بن زيري، وآخرهم الحسن بن علي.

وفي سنة 406 انقسمت الدولة الصنهاجية إلى قسمين: شرقية، وعاصمتها القيروان، وغربية وعاصمتها قلعة بني حماد[1].

---

(1) قلعة بني حماد تقع في جبل كتامة. وهي مشهورة في إفريقية، ولها تاريخ مجيد بما تعاقب عليها من الملوك وعظماء الرجال، وبما كان لها من الشأن الرفيع في حروب إفريقية عامة، وحروب العرب والبربر خاصة. أسسها حماد بن بلكين بن زيري سنة 398. وكانت تسكن حولها في جبل كتامة قبائل عياض من بني هلال. وقد شيد حماد بنيانها، وأحكم أسوارها، وأكثر فيها المساجد والفنادق وكل شيء يوفر للناس أسباب الراحة. وقد اتجهت إليها أنظار طلاب العلم والتجار، وأصحاب الحرف والصنائع فأخذوا يهاجرون إليها أفواجاً. وتم بناؤها وتمصيرها على رأس المائة الرابعة. وتوفي حماد سنة 419.
وحماد هذا عم باديس. وكان باديس أرسله لمحاربة زناتة، وكانت خالفت عليه سنة 388 وجعل له ملك جميع ما يفتحه، فانتصر عليها، وبنى القلعة، وجعلها قاعدة ملكه. وانقسمت دولة صنهاجة إلى دولتين: شرقية وقاعدتها القيروان. وغربية وقاعدتها القلعة.

بلكين[1] بن زيري[2]

كنيته أبو الفتوح، ولقبه سيف الدولة، وسماه المعز لدين الله يوسف، وهو أول أمير في الدولة الصنهاجية، وحينما سافر المعز إلى مصر استخلفه على إفريقية والمغرب في شوال سنة 361. وقد فصل عنه طرابلس وسرت وبرقة كما تقدم. ولما مات المعز لدين الله، وتولى بعده العزيز بالله نزار أرسل إليه يوسف بُلكين سنة 367 هدية وطلب منه أن يضيف إليه هذه المقاطعات الثلاث، فجدَّد له العهد بالإمارة على إفريقية وأضافها إليه، فرحل عنها عبد الله بن يخلف الكتامي الذي كان مولًّى عليها من قبل المعز لدين الله، وبعث يوسف بلكين إليها عماله.

عوصلة بن بكار

ولاه بلكين عاملاً على طرابلس بدلاً من عبد الله بن يخلف. وعوصلة هذا أحد موالي بلكين جاء به من مدينة بونة.

وتوفي بلكين بن زيري[3] يوم 23 من ذي الحجة سنة 373. ومدة حكمه اثنتا عشرة سنة.

---

(1) كتبه بعض المؤرخين بالجيم، وبعضهم بالقاف، وهذا يرجح القول بأنه بالكاف المعطشة التي تخرج بين القاف والكاف. وضبطه صاحب خلاصة تاريخ تونس بضم الباء واللام وتشديد الكاف. ولبلكين مكانة ممتازة لدى المعز لدين الله لما ناله على يديه من نصر على خصومه. وذلك أن محمد بن الحسن بن خزر المغراوي كان مخالفاً على المعز في المغرب الأوسط. وكان جباراً طاغية، فخافه المعز على إفريقية، فأرسل إليه بلكين في جيش كبير، فانهزم محمد بن الحسن، وقد كبر عليه أن ينهزم، فتحامل على سيفه وقتل نفسه. وقتل اثنا عشر من أمراء زناتة، وأسر منهم كثير، وكان ذلك سنة 360، فسر المعز بذلك وعظم بلكين في نظره، فاستخلفه عنه في إفريقية. وأناب عنه في طرابلس عبد الله ابن يخلف الكتامي ولم يجعل لبلكين ولاية عليه ولا صاحب صقلية.

(2) ذكر في الأنيس المطرب لابن أبي زرع أن زيري بن عطية أرسل هدية إلى المنصور بن أبي عامر، وكان فيها عدة أحمال من قسي الزارة. والزارة قرية بطرابلس تصنع فيها القسي الجيدة.. وكان هذا حوالي سنة 377. وهي المعروفة عندنا بعين زارة.

(3) وقعت حروب كثيرة بين زناتة وصنهاجة. وفي رمضان سنة 360 وقعت بينهم حروب =

المنصور بن بلكين

كنيته أبو الفتوح، ولقبه عدة العزيز بالله. تولى الإمارة بعد وفاة والده بلكين، وأقر عوصلة عاملاً على طرابلس... وكان المنصور جواداً حازماً، عادلاً... وفي أيامه أرسل أخاه يطوفت إلى القيروان فاحتلها. وفي سنة 381 ختن ولده باديس فأرسل إليه عوصلة عاملهٔ على طرابلس - هدية فيها مائة حمل من المال... وكانت زويلة السودان تابعة له، وعامله عليها ابن الخطاب، فأرسل إليها هدية بهذه المناسبة ومن ضمنها زرافة وبعض مصنوعات السودان... ودامت إمارته نحو 31 سنة وتوفي يوم الخميس الثالث من ربيع الأول سنة 386.

باديس بن المنصور

تولى إمارة إفريقية بعد وفاة أبيه المنصور سنة 386. وأقر ولاية عوصلة على طرابلس. وطلب عوصلة من الحاكم بأمر الله المنصور خليفة مصر أن يعفيه من عمله بطرابلس. ويأذن له الالتحاق به في مصر، فأعفاه من الوظيفة، وأذن له في القدوم إلى مصر فلحق به.

يانس الصقلي[1]

تقدم أن المعز لدين الله لما سافر إلى مصر استخلف عنه بلكين بن زيري، وجعل إمارة إفريقية في بيت آل زيري على أنهم خلفاء للدولة

= شديدة عقر فيها فرس زيري فكبا به ووقع بين الصفين، واحتدمت عليه الخيل من الفريقين: فريق يريد قتله وفريق يريد إنقاذه. وقتل في هذه المعركة.

(1) قال في الخطط التوفيقية:
هو أبو الحسن يانس الصقلي، كان خادماً خصيّاً من خدام العزيز بالله الفاطمي، وكان قد خلفه على القاهرة، فلما مات العزيز أقره ابنه الحاكم بأمر الله على خلافة القصور وخلع عليه، وحمله على فرسين، وكان له أتباع يقال لهم اليانسية نسبة إليه، وبهم سميت عطفة اليانسية بمصر بالدرب الأحمر قبالة جامع أبي حربية من الجهة الغربية. =

الفاطمية في إفريقية. واستمروا تابعين لدولة الفاطميين بمصر إلى أيام المعز ابن باديس كما سيأتي. إذاً فأمراء آل زيري ليسوا مستقلين بإفريقية، وإنما هم تابعون للفاطميين في مصر، والكلمة العليا في أمور إفريقية ترجع إلى الخليفة في مصر. وعلى هذا الأساس اعتبر يانس نفسه معيناً في طرابلس من قبل خليفة مصر، وليس لأمير إفريقية المعارضة في هذا التعيين، وإن كان يعتبر نفسه تابعاً له في الإدارة. كما يعين الملك موظفاً، فليس للوزارة المعارضة في هذا التعيين وإن كان تابعاً لها في الإدارة.

وقبل أن يسافر عوصلة إلى مصر عين الحاكم بأمر الله خليفة مصر يانساً الصقلي عاملاً على طرابلس، ولم يأخذ رأي باديس في هذا التعيين، وجرت الأمور بدون علمه. ولم يشعر باديس حتى قدم يانس من مصر سنة 390، وسلم له عوصلة طرابلس وسافر إلى مصر، وأخذ معه ماله، وأهله، وولده.. وكان عوصلة كثير الولد والسراري، يقال إنه كان له قرابة ستين ولداً بين ذكر وأنثى، وله من السراري ما يربى على الثلاثين.. ووصل إلى مصر فأكرم الحاكم وفادته، وقلده ولاية دمشق وأعمالها وما بها[1]... واستولى يانس على كل ما تركه عوصلة بطرابلس ودام عوصلة في الحكم تسعة وعشرين سنة.

= ولما كان المحرم سنة 388 سافر لولاية برقة بعد ما خلع عليه وأعطى خمسة آلاف درهم، وعدة من الخيل والثياب.

(1) جاء في النجوم الزاهرة جـ4 ص 207 حكاية عن عبد بربري اسمه تموصلت تشبه حكاية عوصلة في معناها وتاريخها. ولعل عوصلة هو تموصلت، وهذا نصها:
تموصلت الأسود، أو طزملت، القائد البربري. كان عبداً لابن وفرى والي القيروان، فولاه طرابلس الغرب، فجار على أهلها، وظلمهم وأخذ أموالهم، فحصل له منهم مال عظيم، فلما انتهى خبر ظلمه إلى مولاه طلبه والتمس إشخاصه إلى القيروان لكشف الأمر، فخافه وانهزم إشفاقاً على نفسه وماله ووصل إلى مصر، وحمل بعض ما كان معه إلى الحاكم فتمكنت حاله عنده وتأثلت منزلته منه وولاه دمشق فأقام والياً عليها وفي ربيع الآخر من سنة 393 أمر تمصولت الأسود بمغربي فضرب وطيف به على حماره، ونودي عليه هذا جزاء من يحب أبا بكر وعمر، ثم أمر به فضربت عنقه رحمه الله تعالى.

ولما بلغ باديس خبر قدوم يانس طلب إليه أن يطلعه على عهد الحاكم له بولاية طرابلس، فامتنع يانس لاعتماده على مكانته من الحاكم بأمر الله.. فأرسل إليه باديس جعفر بن حبيب لقتاله سنة 389... وجمع جعفر الجيش اللازم وسار لقتال يانس بطرابلس، إلا أنه تلبَّث بقرية أجاس بقرب قابس نحو ثلاثة أشهر، وأخذ يكاتب يانساً أملاً في رجوعه، ولما يئس من الاتفاق معه خيَّره بين ثلاث: إما أن يرسل سجله ـ العهد الذي كتبه له الحاكم ـ، وإما أن يقدم إلى باديس للمفاوضة معه فيما جاء من أجله، وإما أن يناجزه الحرب. فرد عليه يانس: أما القدوم على باديس فلا سبيل إليه، وأما السجل فأنا أكبر من ذلك، إذ كنت خليفة أمير المؤمنين على ما هو أعظم من طرابلس، وأما الثالثة فأنا أوافيك إلى موضعك وأقاتلك به.. وبعد هذا الجواب من يانس لم يبق لدى جعفر أمل في الاتفاق معه، فزحف إليه والتقوا بزنزور، فنزل جعفر غربيها، ونزل يانس شرقيها، ثم التقى الجيشان وكانت الهزيمة على يانس، فقتل أكثر جنده، وأخذ هو أسيراً، فطلب من آسريه أن يأخذوه إلى جعفر فأبوا، وقتلوه وأخذوا رأسه إلى جعفر، ولجأ المنهزمون من جيش يانس إلى طرابلس.

فتّوح بن علي

اجتمعت بقايا فلول جيش يانس بمدينة طرابلس وقدَّموا عليهم فتوح بن علي، وهو من أنصار يانس، وتقدم جعفر بجيشه إلى المدينة وحاصرها فلم ينل منها شيئاً. وفي أثناء حصاره لها وصله كتاب يوسف بن عامر عامل قابس يخبره أن فلفل بن سعيد وصل إلى قابس وأنه يريد طرابلس لمحاربته، فارتحل جعفر عن المدينة إلى ناحية الجبل خوفاً من أن يأتيه فلفل من الخلف، وأصبحوا مهددين بالهجوم من فلفل من الناحية الغربية ومن فتوح من المدينة من الناحية الشمالية. وقد ضاقت به وبأصحابه الحال، فاعتزموا الرحيل إلى قابس، وأن يقاتلوا كل من يعترضهم مهما كانت النتيجة. ولما سمع فلفل تنحى عن طريقهم ووصلوا إلى قابس.

يذكر المؤرخون أنه كانت حروب كثيرة بين صنهاجة وزناتة، وهما من قبائل البربر المشهورة بالقوة والسلطان. وقد ازدادت هذه الحروب بعد أن رحل المعز لدين الله إلى مصر، واختار لإمارة إفريقية آل زيري الصنهاجيين. ولم يقع هذا الاختيار من بني خزرون الزناتيين موقع الرضا، وتحملوه على مضض إلى أن تحين الفرصة للثورة. وفي أيام باديس كان الصدام بينه وبين الخزرونيين على أشده، وكان الخزرونيون في جهات قابس، وكان قائدهم فلفل ابن سعيد بن خزرون.

وسعيد بن خزرون هذا كان من ملوك مغراوة البرابر، ومن مشاهيرهم وكانت له صلة قوية بالمنصور بن بلكين وكان أميراً على طبنة. ولما توفي سعيد بن خزرون سنة 382[1] كفنه المنصور في سبعين ثوباً. وفي هذه السنة قدم ابنه فلفل على المنصور في مدينة المنصورية بعد وفاة أبيه، فزوجه ابنته، وزفها إليه مزودة بثلاثين حملاً من المال، وأهدى إليه خيلاً مسرجة بسروج محلاة بالذهب، وبنوداً مذهبة، وجعله أميراً على مدينة طبنة بدل أبيه، ومع هذه الصداقة وهذه المصاهرة فقد كانت له مع باديس حروب كثيرة.

بنو خزرون

أسرة بربرية نسبها في زناتة، وقد حكموا طرابلس حوالي 150 سنة. وأول حاكم منهم عليها هو فلفل بن سعيد تولاها سنة 391. وآخر حاكم منهم عليها محمد بن خزرون وطرد منها سنة 540. وقد صفا لهم الجو بعد أن سافر المعز لدين الله إلى مصر، فاستقلوا بطرابلس، وتغلبوا على ما كان بينهم وبين العبيديين من صعوبات.

فلفل بن سعيد

تعتبر إمارة فلفل بن سعيد على طرابلس عهداً جديداً فيه شيء من

(1) يقال إن سعيد بن خزرون قتل في حروبه مع زغبة ورياح من بني هلال، وهذا بعيد، لأن بني هلال لم يدخلوا إفريقية إلا سنة 442 وبعد وفاة المنصور بنحو 56 سنة.

الاستقلال بالرأي وعدم التابعية للغير. وقد حملته عداوته للصنهاجيين على أن يستقل بطرابلس وينفرد بها عنهم ما أمكنته الفرصة.

قال التيجاني في رحلته: «وبعد أن انتقل العبيديون إلى مصر استولى بنو خزرون الزناتيون على طرابلس، وكان بينهم وبين الصنهاجيين وقائع كثيرة وبقيت بأيدي الزناتيين إلى سنة 540».

وفي أيام بني خزرون تمتعت المدينة بشيء من الأمن والطمأنينة، أما الدواخل فكانت في اضطراب دائم نتيجة لإغارات العرب المتكررة.

تقدم أن جعفر بن حبيب أرسله باديس لحصار طرابلس وطرد فتوح بن علي منها، وقد ارتحل جعفر عنها هارباً حينما علم بأن فلفل بن سعيد وصل إلى قابس يريد محاربته... وأسرع فلفل بالقدوم إليها، ونزل له فتوح عنها فدخلها في رجب سنة 391. ووقعت حروب بين فلفل وبين باديس دامت نحو سنتين، وملك فلفل طرابلس واستبد بها عن باديس. وأراد فلفل أن تكون طرابلس تابعة للحاكم بأمر الله بمصر، فأرسل إليه بطاعته سنة 391 فقبل الحاكم طاعته ولكنه لم يعينه حاكماً على طرابلس، بل أرسل يحيى بن حمدون الأندلسي وعقد له على طرابلس وقابس، ووصل يحيى إلى طرابلس في التاسع من ربيع الأول سنة 392 فقابله فلفل بالطاعة، وارتحل معه هو وفتوح إلى قابس لحصارها وطرد جعفر بن حبيب منها. ولكن جعفراً تحصن بالمدينة فلم يمكنهم اقتحامها عليه فرجعوا إلى طرابلس، وأقام يحيى بن علي مع فلفل في طرابلس إلى سنة 393. وقد وجد من فلفل إعراضاً عنه واستبداداً بالأمر دونه، مع أن يحيى هو المعيَّن من قبل الحاكم بأمر الله والياً على طرابلس وقابس. وقد استاء يحيى من مقابلة فلفل، فرجع إلى مصر في هذه السنة بعد أن أخذ منه فلفل كثيراً من خيله وخيل أصحابه.

وقد وَجِدَ الحاكم في نفسه على فلفل بسبب معاملته السيئة ليحيى فقطع عنه المدد، واشتد غضبه عليه.

واستقل فلفل بطرابلس؛ واستحكمت العداوة بينه وبين باديس وأصبح مقطوع الصلة من خليفة الفاطميين بمصر، ومن خليفتهم بإفريقية، فأرسل

بطاعته إلى المهدي محمد بن هشام حاكم قرطبة يستنجده ويعده بالطاعة وضرب الدنانير باسمه. وقد مات فلفل سنة 400[1] قبل أن ترجع رسله من قرطبة.

ثورة الوليد بن هشام في برقة

وفي سنة 395 كان رجل في برقة ادعى أن اسمه الوليد بن هشام بن عبد الملك بن عبد الرحمن الداخل لأنه من بني أمية من ولد المغيرة، وأنه هرب من المنصور بن أبي عامر، وكان يحمل الماء لوضوئه في ركوة على طريقة الصوفية فقيل له أبو ركوة. وذهب إلى الشام ومكة واليمن، وعاد إلى جهات مصر، ونزل على بني قرة من بني هلال، بنواحي برقة، وأقام فيهم يصلي بهم ويعلم الصبيان القرآن. وانتهز فرصة صلته بالناس من طريق هذه المهنة، فأخذ يشيع في الناس أن عنده أدلة على أنه سيملك مصر ويهلك الجبابرة، وما زال بالناس حتى استمالهم إلى دعوته، وأعلن الثورة ضد الحاكم بأمر الله في مصر، لأن الحاكم كان قد أسرف في قتل الناس من جميع الطبقات، وقتل جماعة من بني قرة وأحرقهم بالنار، وقد وجدت دعوته منهم آذاناً صاغية.. ويقول ابن خلدون: «إنه كان بين بني قرة وبين لواتة ومزاتة، وزناتة - جيرانهم من البربر - دماء وثارات قديمة، فوضعوها واصطلحوا على يد أبي ركوة، والتفوا حوله، وبايعوه».

وكانت برقة أيام أبي ركوة خاضعة لنفوذ الحاكم بأمر الله بمصر. وله فيها عامل اسمه أنيال الطويل يمثله ويحكم باسمه، فعرفه بأعمال أبي ركوة فلم يهتم لها.

وفي رجب سنة 395 ثار أبو ركوة ببرقة وحاصرها وقتل عاملها من قبل الحاكم بأمر الله بمصر[2]. وغنم سلاحاً وأموالاً كثيرة..

---

(1) وقيل مات سنة 399.

(2) قال ابن خلدون قتله برمادة ببرقة.

وتنبه الحاكم لخطره فأرسل إليه سنة 396 جيشاً من خمسة آلاف فارس بقيادة أبي الفتوح الفضل بن صالح، فبلغ هذا الجيش ذات الحمام[1]، وكان بينها وبين برقة مفازة معطشة، فأمر أبو ركوة أتباعه بتغوير المياه على قلّتها، ففعلوا وأخذ أبو ركوة يستعد للقائهم على حدود برقة.. ووصل الفضل بن صالح حدود برقة في حالة عطش وإعياء من طول السفر، فقاتلهم أبو ركوة ونال منهم. وانضمت إليه جماعات من كتامة هرباً من ظلم الحاكم، فقبلهم أبو ركوة وأمنهم، وانهزمت عساكر الحاكم، وقتل منهم خلق كثير، ورجع أبو ركوة ظافراً.

وقد اغتر أبو ركوة بهذا النصر في برقة، فأخذ يفكر في الهجوم على مصر ليحقق لأتباعه ما كان يعدهم به، فردّد سراياه على الصعيد وأرض مصر، وكثر أنصاره وقويت شوكته.

وفي سنة 397 شرع الحاكم يدبر الحيل لأخذه، فأشار على قواده بمكاتبته وإظهار ميلهم إليه، فكاتبوا أبا ركوة بأنهم على رأيه وأنهم مستعدون للثورة معه، فانطلت عليه الحيلة، وزحف بجيوشه على مصر، على اعتبار أن قواد الحاكم بأمر الله سينضمون إليه، ولكنهم ما لبثوا أن هاجموه بجيوش جرارة وخذله ماضي بن مقرب من شيوخ بني قرة، فهزم هزيمة منكرة، ولم يتمكن من الرجوع إلى برقة فهرب إلى بلاد النوبة، وطورد حتى قبض عليه وسلم إلى الفضل بن صالح فأنزله في خيمة، ثم جيء به إلى مصر، وطيف به في شوارعها على جمل لابساً طرطوراً، وخلفه قرد يصفعه تشهيراً به، ثم قتل في منتصف شوال سنة 397 وصلب.

وُرّو بن سعيد[2]

هو أخو فلفل. ولما مات فلفل اجتمعت زناتة وولوا وُرُّو مكانه والياً

(1) هي المعروفة الآن بالحمام أو حمام مربوط.

(2) ضبط في الجزء الثالث من البيان المغرب: بواو وراء مضمومتين، والراء مشددة، وبعد

على طرابلس. . . وهاجم باديس طرابلس، فلم يمكن وُرُّو الدفاع عنها وفر كثير من جندها إلى باديس، فاضطر ورُّو إلى التسليم فسلَّم هو ومن كان معه من زناتة، وطلبوا الأمان من باديس فأمَّنهم، وأحسن إليهم، وشرط عليهم ألا يقيموا في طرابلس، وأقطعهم نفزاوة وقسنطينة فانتقلوا إليهما ودخلَ باديس طرابلس، ونزل قصر فلفل[1].

ولم تؤثر الأحداث التي حصلت بين فلفل وورُّو وبين باديس على علاقة باديس بالحاكم بأمر الله، فما كاد يتم الغلب لباديس على ورُّو حتى أرسل إليه الحاكم هدايا كثيرة، ومرسوماً بإضافة برقة إلى عمله تقديراً لإخلاصه، ولما أبداه من ثبات في دفاع الخزرونيين، فوصلته الهدايا سنة 403 وعيَّن عاملاً من قبله على برقة.

محمد بن حسن

وعين باديس محمد بن حسن عاملاً على طرابلس بعد أن استسلم ورّو وذهب إلى قسنطينة. ولكن وُرّو لم يف بعهده لباديس، فلم يلبث أن جمع حوله من زناتة وغيرهم وهجم على طرابلس فتصدى لهم محمد بن حسن، ودافع دون المدينة، وانجلت الحرب عن هزيمة وُرّو وأتباعه بعد أن قتل كثير منهم. . ثم جمع شمله وأغار على طرابلس مرة ثانية، وحاصرها. . وكان خزرون أخو وُرّو في طاعة باديس فأرسل إليه باديس هو وبعض أمراء زناتة بجهة الجريد أن يخرجوا لحرب وُرّو، فخرجوا إليه وحاربوه «بعبرة» موضع بين قابس وطرابلس. ولم يلبث خزرون أن اتفق مع أخيه وُرّو سرًّا، وقد أدرك باديس هذا الاتفاق، فلم يجد خزرون بدًّا من الجهر بأمره، وانضمت إليه زناتة، والتحقوا جميعاً بورّو سنة 404، وكان قد وضع رهائن عند

الراء واو بدون ألف بعدها. ورسم في تاريخ ابن الأثير بواو وراء مشددة وواو بدون ألف.

(1) هذا القصر ما زالت بقاياه في مدينة طرابلس، وقد طغى عليه البحر، وتسمى هذه الجهة «فلفول» وصاحب القصر فلفل، لا فلفول.

باديس. ولما تحقق باديس من خيانة وُرّو قتل من كان عنده من رهائن زناتة.

وتجمعت زناتة وضيقت الحصار على طرابلس، ووقف محمد بن الحسن دونها يدافع عنها بكل ما أوتي من قوة.

وفي سنة 405 أرسل وُرّو بطاعته إلى باديس، وهذا يدل على أن محمد بن حسن انتصر عليه ولم يتمكن من دخول طرابلس. ومات وُرّو في شوال سنة 406.

وبعد موت وُرّو تنازع السلطة بعده ابنه خليفة وأخوه خزرون وانقسمت زناتة بينهما، وانضم أكثرها إلى ابنه خليفة، فحارب عمه خزرون حتى غلبه، وبعث بطاعته إلى باديس على أن يحافظ على الأمن ويحفظ عهده بطرابلس فقبل ذلك. . . أما خزرون فبعد أن تغلب عليه ابن أخيه ذهب إلى مصر واستقر بها. ونشأ بها بنوه: خليفة، وسعيد، والمنتصر.

ويفهم من تعهد خليفة لباديس بالمحافظة على عهده بطرابلس أن باديس عين خليفة عاملاً عليها حينما شرط على نفسه أن يحافظ على عهده بها، وبقي فيها إلى أن تولّى المع. . يدل على هذا ما سيأتي من أن خليفة جهَّز حملة بحرية من طرابلس ليهاجم بها فتوح بن القائد حينما علم أنه كاتب المعز ليدخل تحت طاعته. وقد اعتبر المعز هذا العمل من خليفة خيانة، ونقضاً للعهد الذي أعطاه لوالده، فجهز جيشاً لغزو طرابلس وقاده بنفسه.

وفي سنة 405 أرسل باديس هدية إلى الحاكم بأمر الله في مصر، ولما وصلت إلى المهدية أرسلت في البحر مع يعلى بن فرج. وكان من ضمن الهدية مائة فرس بسروجها المذهبة، وثمانية عشر حملاً من الخزّ والمتاع النفيس المذهب وعشرون جارية، وأشياء أخرى ثمينة. ولما وصلت الهدية ناحية برقة استولى عليها العرب، وهرب يعلى بن فرج. وهؤلاء العرب من الهلاليين، وكان شيخهم إذ ذاك مختار بن القاسم، وقد استغاث بهم فلفل ابن سعيد في طرابلس على يحيى بن علي فأغاثوه وهزموا يحيى ثم رجعوا

إلى برقة. ولما استولوا على الهدية وهرب يعلى الذي أرسلت معه ثاروا على عامل برقة من قبل العبيديين وطردوه واستولوا عليها... ولما زحف إخوانهم الهلاليون على إفريقية سنة 442 زحفوا معهم، وكان من شيوخهم ماضي بن مقرب.

ومما يلفت النظر ما تقدم آنفاً من أن فلفل بن سعيد استنجد بهؤلاء العرب ضد يحيى بن علي إلى آخر ما ذكر. ولم يذكر فيما تقدم أن حصلت حرب بين فلفل ويحيى بن علي، وكل ما حصل هو أن يحيى بن علي استاء من معاملة فلفل له فرجع إلى الحاكم بأمر الله في مصر، ولم نطلع على ما يفيد أنه وقعت بينهما حرب.

وكان باديس جواداً مقداماً يحب العفو عن المسيئين.. توفي بلسعة عقرب آخر ليلة من ذي القعدة سنة 406. ومدة حكمه عشرون سنة وأشهراً.

عبد الله بن الحسن

لما آل الملك إلى المعز بن باديس كان محمد بن الحسن عاملاً على طرابلس من قبل والده باديس، فخلعه وأتى بدله بأخيه عبد الله.. وقدم محمد بن الحسن على المعز، وأقام معه في محل الرعاية والتقدير نحو سبع سنوات.

وفي سنة 406 نقض خليفة بن ورو عهده مع الصنهاجيين الذي كان أعطاه لباديس، وهاجم طرابلس وضيق عليها، وطال حصاره لها، وبذل عبد الله بن الحسن ما أمكن في الدفاع عنها، وعجز خليفة عن اقتحامها عليه.

وفي سنة 414 تغير المعز على محمد بن الحسن - وكان وزيره وصاحب جيشه - لأمور أنكرها عليه، منها أنه استأثر لنفسه ببعض الجبايات، فقتله. وكان هذا العمل من المعز سبباً في ثورة عبد الله بن الحسن على باديس، وانضمامه إلى الخزرونيين انتقاماً لأخيه، وفتح مدينة طرابلس لخليفة ابن ورّو ودخلها.

خليفة بن وُرّو

اتحدت سياسة عبد الله بن الحسن وخليفة بن وُرّو ضد الصنهاجيين: الأول موتور بأخيه والثاني ثائر عليهم للأخذ بثأر الخزرونيين الذين قتلهم الصنهاجيون. واستعان خليفة بعبد الله على قتل الصنهاجيين الذين كانوا يحاربون مع عبد الله داخل المدينة قبل أن يثور عليهم فقتلوهم قتلاً ذريعاً. . فاستغاث نساء المقتولين بالمعز، فقبض على أولاد عبد الله بن الحسن وجماعة من أهله، فحبسهم ثم قتلهم.

ولم ينس خليفة لعبد الله بن حسن حروبه معه وشدة دفاعه عن طرابلس ، فلم يبث ـ بعد أن أوقع بالصنهاجيين في طرابلس ـ أن قبض عليه وقتله واستولى على قصره بما فيه من مال ومتاع، حتى نسائه وبناته، واتخذ قصره مقراً له[1]. ووصل خليفة سلسلة حكم بني خزرون في طرابلس بحلقتها الأولى التي كانت انقطعت سنة 403 باستسلام ورو لباديس وتعيين محمد بن الحسن على طرابلس.

ويود خليفة ألا يدخل في طاعة صنهاجة، كما يود أن يحتفظ بطرابلس، ولكنه واقع بين سلطة العبيديين في مصر وسلطة خلفائهم في إفريقية، ولأجل أن يأمن شر هذين العدوين ـ أو أحدهما على الأقل ـ كاتب في سنة 417 الظاهر خليفة الفاطميين بمصر، ووعده بالطاعة، وأن يحفظ عهده على طرابلس. ثم أرسل أخاه حمادا إلى المعز بن باديس بهدايا من عنده فتقبلها ووصله باديس بهدايا مثلها. وبذلك أمن خليفة بن ورو جانب خليفة الفاطميين بمصر بما وعده به، وجانب المعز في إفريقية بما أهداه له، وتم لخليفة الأمر في طرابلس.

(1) قال صاحب المسألة الشرقية: إن خليفة بن ورو قتل عبد الله بن حسن واستولى على طرابلس وخاطب الخليفة الظاهر سنة 417. وبقيت طرابلس بأيدي بني خزرون واستقلوا بها وأصبحوا ملوكها إلى أن قدم العرب الهلاليون وغلبوا المعز بن باديس على إفريقية.

سعيد بن خزرون

تقدم أن خزرون بن سعيد لما تغلب عليه خليفة بن أخيه وُرّو ذهب إلى مصر، ونشأ بها أبناؤه سعيد وخليفة والمنتصر.

والآن يعود سعيد بن خزرون للأخذ بالثأر من ابن عمه خليفة بن وُرّو. فقدم من مصر سنة 433، ووصل إلى طرابلس وكان بها ابن عمه خليفة بن وُرّو، وأقام بضواحيها يؤلب عليه البربر، والتفت حوله زناتة وكثرت أنصاره وهاجم المدينة في جموع كثيرة من زناتة وغيرها. ورأى خليفة بن وُرّو ألا قبل له بهذه الجموع فتخلى عن المدينة وفرّ هارباً، وتمكن سعيد من دخول المدينة وأصبح حاكماً عليها إلى أن قتل سنة 446.

خزرون بن خليفة

خزرون هذا حفيد وُرّو، وبعد أن قتل والده خليفة لأسباب لم نطلع عليها صار والياً على طرابلس. ويقال إن رئيس الشورى الذي كان زمن والده هو الذي هيأ له الأمور حتى تمكن من الحكم.

وفي أيام خزرون هذا ثار الطرابلسيون على مذهب العبيديين الشيعة بزعامة للأستاذ أبي الحسن بن المنتصر، ونبذوا تقاليدهم الخاطئة وبدعهم الممقوتة وخلص الطرابلسيون من زيغهم واعتنقوا مذهب الإمام مالك كبقية إفريقية. وبقي خزرون بن خليفة والياً عليها إلى سنة 450.

المنتصر بن خزرون بن سعيد

المنتصر بن خزرون أحد أولاد خزرون الثلاثة الذين فر بهم والدهم إلى مصر وتربوا فيها. وقد جاء إلى إفريقية كما جاء أخوه سعيد من قبل... وفي ربيع الأول من سنة 450 تقدم إلى طرابلس في جموع كثيرة لينتزعها من خزرون بن خليفة، ففر خزرون بن خليفة وترك طرابلس، فاحتلها المنتصر ابن خزرون.

تقدم أن خزرون بن سعيد كان يناصر الصنهاجيين. وكان أخوه وُرّو بن سعيد ثائراً ضدهم. ولما ثار أبو الحسن على مذهب الشيعة في طرابلس كان يحتمي بسلطة خزرون بن خليفة وهو حفيد وُرّو. ولما تولى المنتصر الأمر في طرابلس - وهو من ذرية خزرون - انتقم من الأستاذ أبي الحسن، ونفاه إلى غنيمة[1]، ونكل بكثير من أنصاره.

ولما تغلبت العرب على إفريقية أيام تميم بن المعز قوي نفوذ المنتصر في جهات طرابلس، ولم يرع عهده للصنهاجيين، فجمع حوله بني عدي من بني هلال وذهب إلى قلعة بني حماد لغزو بقايا الصنهاجيين هناك، وأصبح لا يخاف نفوذهم في ناحية القيروان وتونس لأن نفوذ تميم انحصر في المهدية. وتقدم المنتصر إلى أن دخل أشير، فخرج إليه الناصر من آل حماد وطرده حتى دخل الصحراء، ولما رجع الناصر عاد المنتصر إلى غزو أراضي بني حماد. وقد احتال عليه الناصر وأوعز بقتله إلى عروس بن هندي - وهو من أنصاره - فقتله غيلة سنة 460.

خليفة بن خزرون

هو أخو المنتصر أحد الثلاثة الذين تربوا في مصر. ولما قتل أخوه المنتصر تولى بعده على طرابلس، وبقي والياً إلى سنة 488، وقد ساءت سيرته، واستبد بالناس حتى سئموا حكمه، وصاروا يتربصون به.

شاه ملك

رجل تركي ابن أحد أمراء الأتراك ببلاد الشرق، نزل به ضيم في بلده اقتضى خروجه منه. فخرج في جماعة من أنصاره إلى مصر زمن الأفضل أمير الجيوش فنزل ضيفاً عليه وأكرم وفادته، وأقطعه أرضاً وأعطاه أموالا... ولكن هذا التركي كفر النعمة وجحد المعروف، وأتى أعمالا أغضبت أمير

(1) قرية من قرى مسلاتة.

الجيوش، فغضب عليه وطرده هو وأتباعه، فخرج شاه ملك في نحو مائة فارس، وأمكنهم أن يتحصلوا على سلاح وتوجهوا إلى إفريقية. ولما وصلوا طرابلس تسقطوا أخبارها، فعلموا أن السكان مستاءون من حاكمهم ويتمنون زواله... وقد أمكن شاه ملك أن يتصل ببعض الأهالي واتفق معهم على مهاجمة المدينة، ووعدوه بفتح أبوابها. وقد تم ذلك، ولم يجد شاه ملك عناء في التغلب على المدينة، فدخلها وفر خليفة بن خزرون[1].

وقد اتصلت أخبار شاه ملك بتميم بن المعزّ بالمهدية ـ وكان أمير إفريقية إذ ذاك ـ فأرسل جيشاً إلى طرابلس وحاصرها، وضيق عليها حتى اضطر أهلها إلى فتح الأبواب، واستسلم شاه ملك ومن معه وأخذ أسيراً إلى المهدية.

وقد احتال شاه ملك في تحسين سياسته مع تميم حتى أصبح منه في محل الرضا، ولكن ما لبث أن عاوده نكران الجميل فأتى أفعالا غيرت تميماً عليه، فحذر تميم ابنه يحيى من الانقياد إلى آرائه، فأخذ شاه ملك في التحايل على يحيى حتى أصبح من أصدقائه. واتفق أن خرج يحيى إلى الصيد في جماعة من أصدقائه ومعهم شاه ملك فلما أبعدوا حرض أصحاب يحيى عليه، فقبض عليه، وذهب به إلى صفاقس. وبلغ الخبر تميماً فأرسل في أثرهم جيشاً فلم يدركهم... وخرج حمّو حاكم صفاقس لملاقاة يحيى، وسار في ركابه، وأظهر له ما يليق به من الخضوع والاحترام وكان بين حَمُّو وتميم منافرة، ولكن هذا لم يمنعه من احترام يحيى وتكريمه.

وبقي يحيى أياماً عند حَمُّو لم يخاطبه أبوه بشيىء. وكان أبوه قد جعله ولي عهد له، لما وقع في هذه المحالفة بتأثير من شاه ملك أقام أخاه المثنى ولي عهده.

ثم إن حمو صاحب صفاقس خاف يحيى على نفسه، وأن يثور معه

(1) لم يذكر أحد أين ذهب.

الناس والجند فأرسل الى تميم يطلب منه أبناء شاه ملك ومن معه من الأتراك، ويرسل إليه ابنه يحيى، فتردد تميم أول الأمر، ثم أرسل أبناء الأتراك إلى حمو، وأرسل حمو يحيى إلى تميم، وبقي يحيى محجوباً عن والده مدة، ثم عفا عنه وقرَّبه. وجعله ولي عهده وجهز تميم جيشاً إلى صفاقس بقيادة ابنه يحيى، فحاصرها براً وبحراً، وضيقوا على أهلها، وأقاموا على حصارها شهرين، ثم استولى عليها وفر الأتراك إلى قابس.

ولم تطب نفس المثنى برضاء والده عن أخيه يحيى وإسناد ولاية العهد إليه بعد أن أسندت إليه هو في غياب أخيه يحيى، فأراد أن يدس له عند والده فلم يقبل والده منه. وانتهى الأمر إلى أن تغير تميم عن المثنى وأمر بإخراجه من المهدية هو وأصحابه، فركب في البحر إلى صفاقس، فمنعه حَمُّو من دخولها، فذهب إلى قابس. وكانت تحت حكم مكي بن كامل الدُّهماني ولحق به شاه ملك وأصحابه الأتراك، فأخذ المثنى يغري كاملا بغزو صفاقس والمهدية، وضمن له الإنفاق على الجيش من ماله، وما زال به حتى وافق، وجهزوا جيشاً لغزو صفاقس ومعهم شاه ملك وأصحابه ونزلوا عليها. فأرسل إليهم تميم جيشاً، ولما علموا ألا قبل لهم به ساروا إلى المهدية، وكان يحيى هو الذي تولى الدفاع عنها، وأظهر من حسن التدبير والشهامة ما نصره على أعدائه، ورجع المثنى وشاه ملك خائبين، ولم يبلغوا غرضاً. ونفد ما عند المثنى من مال، وأصبح يحيى سيد الموقف.

وإلى هنا انتهى ما عثرنا عليه من أخبار شاه ملك، ذلك الأفاق التركي الذي كان يقابل الإحسان بحبّ العظمة والسيطرة.

المعز بن باديس[1]

لقبه شرف الدولة. ونودي به أميراً يوم السبت الثالث من ذي الحجة

(1) نعود إلى الكلام على آل زيري بعد أن استوفينا الكلام على آل خزرون الذين كانوا ينافسون آل زيري السيادة على طرابلس.

سنة 406 بعد وفاة أبيه بثلاثة أيام، اشتغل فيها ذوو الرأي من رجالات الدولة بتهدئة الخواطر، وتهيئة النفوس للموافقة على إمارته، وعمره إذ ذاك ثماني سنوات وأربعة أشهر. وأخذت له البيعة في اليوم الثاني والعشرين منه.

وفي سنة 413 تزوج المعز بن باديس وعاش في نعيم وملك مقيم، وكانت له ندوات علمية وأدبية، منها: أنه كان يوماً جالساً في مجلسه وعنده جماعة من الأدباء، وبين يديه أترجَّة ذات أصابع، فأمرهم المعز أن يعملوا فيها شيئاً. فعمل أبو الحسن بن القيرواني الشاعر المشهور بيتين:

أترجّة سبطة الأطراف ناعمة　　تلقى العيون بحسن غير منحوس

كأنما بسطت كفًّا لخالقها　　تدعو بطول بقاء لابن باديس

وفي سنة 414 جهز خليفة بن ورّو بحرية من طرابلس على فتوح بن القائد.. وذلك لما بلغه أن فتوحاً كاتب المعز بن باديس في الانضمام إليه فجهز له المعز جيوشاً كثيرة وركب بنفسه قاصداً إلى طرابلس. وفي أيامه قويت شوكة زناتة ووقعت بينه وبينهم حروب استمرت سنين كثيرة. وفي سنة 428 هزمهم هزيمة منكرة.

ولما تولى المعز إفريقية كان أكثر الناس على مذهب الشيعة الذي يتمذهب به الفاطميون ولا يقدر أحد أن يجاهر بغيره من المذاهب الأخرى، اللهم إلا الإباضية الذين كانوا بتيهرت وجبل نفوسة وغيرهما من الجهات البعيدة عن نفوذ الفاطميين. فقد بقوا على مذهب عبد الله بن إباض.

وقد تولى تربية المعز بن باديس وزيره أبو الحسن الزَّجال، وكان عالماً فاضلاً يؤيد مذهب أهل السنة، إلا أنه كان يخفي أمره على الشيعة، فحرص على أن يُنشّىء المعز على مذهب أهل السنة، ويحاول صرفه عن مذهب الشيعة ما أمكنه ذلك، ودأب على ذلك في السرّ، وفقهه على مذهب مالك، وقد تم له ما أراد من غير أن يعلم الشيعة بشيء من ذلك.

وفي سنة 435 وصلت أخبار إلى الفاطميين بمصر دلت على كراهة المعز لمذهبهم، فوجِدوا عليه وقوّى شكهم فيه أنه أصبح يخاطبهم بغير ما

ألفوه من آبائه من ألقاب التعظيم والتفخيم، وقد اقتنع المعز بفساد مذهب الشيعة، واعتزم القضاء عليه في إفريقية ولكنه كان يتحيَّن الفرص للتخلص منه... وكان يوجد في عسكر المعز كثير من الشيعة أنصار الفاطميين... قال صاحب البيان المغرب: «وكان المعز ذات يوم يسير في موكبه فكبا به جواده فقال: أبو بكر وعمر، فسمعها الشيعة فتنادوا لقتله وحال بينهم وبينه أنصاره ومن كان يميل إلى مذهب أهل السنة ويكتم أمره، ووضعوا السيف في الشيعة حتى قتل ما يزيد على ثلاثة آلاف، حتى سمي ذلك الموضع «بركة الدم»...

ونقل ابن الأثير في أسباب قتل الشيعة ما هو معقول أكثر مما تقدم، فقال: «إن المعز بن باديس ركب ومشى في القيروان والناس يسلمون عليه ويدعون له، فاجتاز بجماعة، فسأل عنهم، فقيل له: هؤلاء رافضة يسبّون أبا بكر وعمر، فقال: «رضي الله عن أبي بكر وعمر». فانصرفت العامة من فورها إلى درب المقلى من القيروان، وهو مكان يجتمع فيه الشيعة فقتلوا منهم، وكان ذلك رغبة العسكر وأتباعهم طمعاً في النهب. وانبسطت أيدي العامة في الشيعة. وأغراهم عامل القيروان وحرَّضهم. وسبب ذلك أنه كان قد أصلح أمور البلد، فبلغه أن المعز بن باديس يريد عزله، فأراد إفسادها. فقتل من الشيعة خلق كثير، وأحرقوا بالنار، ونهبت ديارهم، وقتلوا في جميع إفريقية. واجتمع جماعةٌ منهم في قصر المنصور قرب القيروان فتحصنوا به، فحصرهم العامة وضيقوا عليهم، فاشتد عليهم الجوع، فأقبلوا يخرجون والناس يقتلونهم حتى قتلوا عن آخرهم ولجأ من كان منهم بالمهدية إلى الجامع، فقتلوا كلهم.

وكان الشيعة يسمونهم بالمغرب «المشارقة» نسبة إلى عبد الله الشيعي وكان من المشرق...» «اهـ» ما ذكره ابن الأثير. وانتشر خبر هذا الحادث بين الناس فتناولوا الشيعة بالقتل في جميع أنحاء إفريقية.

ولمناسبة الثورة على الشيعة قال فيهم القاسم بن مروان الشاعر:

وسـوف يُـقـتّـلـون بـكـل أرْضٍ كـمـا قُـتـلـوا بـأرض الـقـيـروانِ

وقال شاعر آخر:

يـا مـعـز الـديـن عـش فـي رفـعـةٍ وَسـرور واغـتـبـاط وَجـذَلْ

أنـت أرضـيـت الـنبي الـمـصـطفى وَعتيقاً[1] في الملاعين السِّفَلْ

وجـعـلـت الـقـتـل فـيـهـم سُـنـة بـأقـاصـي الأرض فـي كـل الـدول

وقد بلغ من كراهة الناس لمذهب الشيعة العبيديين، وبدعهم المنكرة أن تركوا صلاة الجمعة وهجرت المساجد... وما زال المعز يعمل للقضاء على مذهب الشيعة حتى كانت سنة 440 فأعلن انضمامه إلى الدولة العباسية، وخطب للقائم بأمر الله، وقطع الخطبة للفاطميين بمصر، ومزّق أعلامهم وأحرقها، وأمر بسبك الدراهم والدنانير التي كانت عليها أسماؤهم[2]، وضرب سكة أخرى كتب على أحد وجهيها: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وكتب على الآخر: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾. وأمر بلعنهم على المنابر فلعنوا بأقبح أوصافهم، وقضى على الشيعة ومذهبهم، وكان هذا مشجعاً للناس على اضطهادهم والفتك بهم كما قضى على مذاهب الصفرية والإباضية[3] والنكارية، والمعتزلة. وحمل كل الناس على مذهب الإمام مالك. وجاءته المراسيم والخِلَع من القائم بأمر الله العباسي ببغداد مع أبي الفضل بن عبد الواحد التميمي، من بني هلال الذين كانوا مع القرامطة، وانقطعت صلته بالعبيديين في مصر. وكان مذهبهم قد انتشر في برقة وطرابلس وفي كل مكان شمله حكمهم.

(1) هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

(2) ضربت الدنانير بأسمائهم سنة 296، وأبطلها المعز بن باديس سنة 441. بعد أن تعامل الناس بها 145 سنة.

(3) بقي قليل منهم على مذهبه.. ويظهر أنهم من سكان جبل نفوسة.

وفي سنة 443 أرسل الأمير جبارة بن مختار من برقة بطاعته إلى المعز ابن باديس، وأعلمه بأنه هو وأهل برقة قد نبذوا طاعة العبيديين وأحرقوا أعلامهم ولعنوهم على المنابر، ودعوا للقائم بأمر الله العباسي.

وأول من ثار على مذهب الشيعة في طرابلس، ونبذ تقاليدهم الباطلة ودعوتهم المضللة هو العلامة علي بن محمد المنتصر، وكنيته أبو الحسن. . .

ولما قتلت زُغبة[1] سعيد بن خزرون سنة 382[2] فتح الأستاذ أبو الحسن لخزرون بن خليفة مدينة طرابلس فدخلها. ويدل سياق الكلام على أن خزرون بن خليفة كان من أعداء العبيديين الشيعة والثائرين عليهم، ولعله ابن خليفة بن وُرّو، لأن وُرّو وأولاده كانوا ثائرين على باديس كما تقدم.

ولد الأستاذ أبو الحسن سنة 348 وتوفي بغنيمة سنة 432. . وغنيمة بلد من بلاد مسلاتة.

وكانت أعمال المعز ضد الشيعة ونبذ عهدهم مما أوغر صدورهم عليه، وحملهم على التفكير في الانتقام منه. . . ولم يجدوا حيلة للانتقام منه، وإزالة ملكه من إفريقية إلا أن يسلطوا عليه العرب، ويمدوهم، بما يساعدهم على محاربته، وقد تم لهم ذلك في خبر يأتي ذكره قريباً.

(1) زغبة: بزاي مضمومة وغين معجمة وباء بعدها تاء مربوطة: قبيلة من بني هلال بن عامر، تغلبوا على نواحي طرابلس وقابس.
أما زغب ـ بزاي مضمومة وغين معجمة ـ فهو زغب بن مالك أبو قبيلة من بني سليم، انتقلت من الحجاز إلى إفريقية. وذكره في تاج العروس: زغب ـ بعين مهملة، كجلد ـ أبو قبيلة من بهثة من بني سليم.

(2) هكذا يقول التجاني في رحلته، وهذه الرواية وما فيها مما يتعلق بأبي الحسن منقولة عنه، وقد حاولت جهدي تنسيقها وعدم تضاربها مع غيرها، والعهدة عليه.

دخول العرب إفريقية[1]

جاء في تاريخ أبي الفداء جـ2 ص170 في سنة 442[2]: «قطع المعز بن باديس في إفريقية الخطبة للعلويين. فأرسل له المستنصر العلوي من مصر في ذلك، فأغلظ ابن باديس في الجواب. فاتفق المستنصر مع وزيره الحسن بن علي اليازوري[3] على أن يرسلوا زغبة ورياح إلى ابن باديس في إفريقية وزغبة ورياح قبيلتان من العرب، وكانت بينهم حرب، فأصلح المستنصر بينهم وجهزهم بالأموال وأرسلهم لقتال ابن باديس في إفريقية».

وذكر أبو الفداء أن الوزير اسمه أبو القاسم الجرجرائي. وما أثبتناه أصح.

وليس أحد ينكر شأن العرب في إفريقية، وأدوارهم الخطيرة فيها. وقد عرف العرب في إفريقية منذ أن دخلوها فاتحين سنة 21، 22، وتكرر ترددهم عليها وفتوحاتهم لها في أزمان مختلفة ذكرنا تواريخها في مواضعها. ومنذئذ

---

(1) كانت هذه القبائل لها السيادة في العرب في الجاهلية وفي صدر الإسلام. ولما استبد الموالي من العجم بالدولة العباسية اعتصموا بصحراء نجد، ثم انضموا إلى القرامطة أيام دولتهم بالشام. ولما استولى الفاطميون على دولة القرامطة جاءوا بهذه القبائل إلى صعيد مصر، ومنعوها من الانتقال إلا بإذن منهم. ولما انتقلوا إلى إفريقية كانت الكعوب من بني سليم من أبرز القبائل في الرياسة. ولما ظهر في إفريقية أولاد غانية وقراقش ناصروهم في الثورة على الحفصيين. وكان بينهم وبين الدولة الحفصية حروب دامت سنين نالوا منها ونالت منهم، وأقطعت لهم أراضي كثيرة، وأغدقت عليهم الأموال والرتب الكبيرة استجلاباً لرضاهم، ولم يتأثروا بذلك، بل داموا على عداوتها حتى انقرضت.

(2) هذه رواية أبي الفداء. وتقدم أنها سنة 440.

(3) يازور من أعمال الرملة بفلسطين.

صاروا يتكاثرون فيها شيئاً فشيئاً. . . ونقصد الآن الكلام على أخطر أدوارهم فيها، وهو دخولهم لها سنة 442[1]، حينما دخلوها في تلك الجموع الهائلة بإغراء من المستنصر بالله الفاطمي حاكم مصر للانتقام من المعز بن باديس لما رفض طاعتهم، ونبذ مذهبهم وانضم إلى الخلافة العباسية في بغداد، بعد أن كان آباؤه خلفاء لهم في إفريقية يجبون لهم أموالها، ويخطبون لهم على منابرها.

كانت قبائل العرب كثيرة تسكن على ضفاف النيل بصعيد مصر، وكانت أبعدت عن مواطنها الأصلية بجزيرة العرب، وكانوا ممنوعين من الانتقال عن الأماكن التي عينت لهم، وقد سبب لهم هذا الحجز ضيقاً في عيشهم، فكانوا يتمنون أن لو أتيحت لهم فرصة التنقل، وطبيعة عيش البدوي تحمله دائماً على التنقل. . وفكر المستنصر في استغلالهم ضد ابن باديس للانتقام منه. فاتصل بشيوخهم، وصار يصف لهم إفريقية وما فيها من خير ونعيم، وما فيه ابن باديس من غنى وبذخ، وصار يهوّن عليهم شأنه، ويقلل من قوته ومقاومته، ولا يفتر عن تحريضهم على غزو إفريقية. لأخذ هذا النعيم الكثير والملك الكبير، ولم ينس أن يمنيهم بالمساعدة وأنهم في رعايته وعلى بال منه، وما زال بهم حتى أجابوا دعوته، ويعلم الله أنه لا يريد من وراء ذلك لهم خيراً، وإنما يريد الانتقام من ابن باديس بهذه الأيدي التي عرفت بممارسة الحروب وإتقان أساليبها بعد أن عجز عن الانتقام منه بنفسه. . . فأعطاهم من المال ما يعينهم على السفر، وأباح لهم إفريقية يفعلون فيها ما يشاءون، وقال لهم: «لقد أعطيناكم إفريقية وملك ابن باديس فلا تفتقرون بعدها».

فرحلوا عن صعيد مصر سنة 442 وكانوا، زهاء أربعمائة ألف وقد توقفوا في برقة برهة من الزمن، وأرسلوا أحد شيوخهم ـ وهو مؤنس بن يحيى من بني مرداس، من رياح أحد بطون بني هلال ـ وكان سيداً في

(1) وقيل 440. وهذا لا يصح لأن هذا تاريخ قطع الخطبة للفاطميين.

قومه، ليرود لهم إفريقية، فذهب إلى المعز ونزل ضيفاً عليه، وقد دهش لما فيه المعز من نعيم وأبهة ملك، وما لاقاه منه من كرم وحسن ضيافة. وقد عرض عليه المعز - بعد أن عرف ما جاء من أجله - أن يتخذ من بني عمه رياح جنداً له، فأشار عليه مؤنس بألا يفعل معللاً ذلك بعدم انقيادهم واختلاف كلمتهم فلم يقتنع المعز بهذا الرأي.

فقال له مؤنس: إنهم قوم لا طاقة لك بهم، فقال له المعز: هم دون ذلك، فاعتبرها مؤنس إهانة للعرب وظن المعز أن مؤنساً لا يريد أن يكون لغيره سلطان على قومه وصارحه بذلك، فأسرّها مؤنس في نفسه، ورجع إلى العرب في برقة، ووصف لهم من خيرات إفريقية وأبهة المعز ما رغبهم في الإسراع بالرحيل، فرحلوا عن برقة، وانسابوا في أرض إفريقية في جموع لا يدرك أولها ولا ينتهي آخرها.

ومن أشهر قبائلهم التي دخلت إفريقية وأكثرها عدداً بنو سليم[1] بن منصور، وبنو هلال[1] بن عامر... ومن الهلاليين زغبة، والأثبج، وعدي،

---

(1) كانت بطون بني هلال وبني سليم من مضر، وكانوا أحياء كثيرة. ومساكنهم في الحجاز ونجد، فبنو سليم مما يلي المدينة، وبنو هلال في جبل غزوان عند الطائف.
ولما ظهر القرامطة وتغلبوا على أمصار الشام انحاز إليهم بنو سليم، وكثير من ربيعة بن عامر، وصاروا جنداً بالبحرين وعمان.
ولما تغلبت شيعة عبيد الله المهدي على مصر والشام ردوا القرامطة على أعقابهم إلى مقرهم بالبحرين ونقلوا أشياعهم من العرب، من بني هلال وسليم، وأنزلوهم بصعيد مصر بالعدوة الشرقية. وهذا سبب وجودهم بصعيد مصر.
ولمناسبة ذكر بني سليم وبني هلال: نذكر تعريفاً لسليم الذي ينسب إليه بنو سليم. وهلال الذي ينسب إليه بنو هلال فنقول:
هلال بن عامر، بن صعصعة، بن معاوية، بن بكر، بن هوازن، بن منصور، بن عكرمة بن خصفة، بن قيس عيلان بن مضر (من العدنانية).
وسليم هو سليم بن منصور، بن عكرمة بن خصفة وخصفة بطن من قيس عيلان بن مضر، من العدنانية.

ورياح[1] وهم من بني عامر بن صعصعة. وبنو جشم بن معاوية بن بكر. وهذه القبائل مضرية عدنانية... وقبيلة كهلان وهي قحطانية، وقبائل أخرى كثيرة غير مشهورة.

وجاء «في نهاية الأرب في فنون الأدب» ما يلي:

ورحل بنو رياح والأثبج وبنو عدي إلى إفريقية يريدون اللحاق بالقيروان، فقال مؤنس: ليس هذا برأي، والأمر يحتاج إلى تدبير، فقالوا له: وماذا نصنع؟ فقال: ائتوني ببساط، فأتوه به، فبسطه وقال لهم: من يدخل إلى وسط البساط من غير أن يمشي عليه؟ فقالوا: ومن يقدر على هذا؟، فقال: أنا. فطوى البساط وأتى إلى طرفه وفتح منه مقدار ذراع ووقف عليه، ثم فتح شيئاً آخر ودخل إليه، وقال هكذا فاصنعوا ببلاد المغرب، املكوها شيئاً فشيئاً حتى لا يبقى عليكم إلا القيروان فأْتوها فإنكم تملكونها. فقال له رافع بن حماد ـ وهو أحد رؤساء العرب ـ: صدقت يا مؤنس، والله إنك لشيخ العرب وأميرها، فقد قدمناك على أنفسنا، فلسنا نقطع أمراً دونك».

وقد اقترعوا على البلاد فخرج لبني سليم شرقيها: برقة وما حولها، وقد وجدوها خالية لأن أهلها حاربوا المعز لدين الله ففتك بهم حتى كاد يفنيهم، وخرج لبني هلال غربيها: طرابلس وقابس، وانضم بنو جشم إلى بني هلال... واستقرت زغبة في طرابلس سنة 466، واجتازت رياح والأثبج وبنو عدي إلى إفريقية ـ وهم من بني هلال ـ فأضرموها ناراً.

---

(1) رياح من الهلاليين، جدهم رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال. وكانت قبيلة رياح من أعز قبائل بني هلال وأكثرهم جمعاً عند دخول إفريقية. وكانت رياستهم في مرداس بن رياح ومرداس بطن من بطون رياح، ثم انتقلت رياستهم إلى الدواودة أبناء داود بن مرداس ابن رياح. ومن البطون التي تنتسب إلى مرداس بنو موسى بن عامر. وبعض النسابة يذكر مرداساً في بني سليم، ولعله مرداس آخر وذكر ابن خلدون أنه يوجد مرداس في رياح، ومرداس في بني سليم.

وكان في العرب كثير من غير بني هلال وبني سليم: من فزارة، وأشجع من بطون غطفان، وجشم بن معاوية بن بكر بن هوازن، وسلول بن مرة بن صعصعة بن معاوية، والمعقل من بطون اليمنية، وكلهم مندرجون في بني هلال وفي الأثبج على الخصوص، لأن الرياسة كانت عند دخولهم للأثبج وهلال، فأدخلوا فيهم.

وكان الأثبج من الهلاليين أوفر عدداً، وأكثر بطوناً، وكان التقدم لهم في حملتهم. وكان منهم الضحاك، وعياض، ومقدم، والعاصم، ولُطيِّف، ودريد، وكرفة، وغيرهم حسبما يظهر في نسبهم.

وكان لهم جمع وقوة. وكانوا أحياء غزيرة من جملة الهلاليين الداخلين لإفريقية.

ومن أشراف رجالات العرب: حسن بن سرحان، وأخوه بدر، وفضل ابن ناهض، وهؤلاء من دريد من الأثبج.

ومنهم ماضي بن مقرب، وسلامة بن رزق في بني كبير، في بطون كرفة، من الأثبج. وذياب بن غانم، وينسبونه في بني ثور، وموسى بن يحيى، وينسبونه في مرداس رياح، لا مرداس سليم. وهو من بني صقر، بطن من مرداس رياح.

ومنهم زيد بن زيدان، وينسبونه في الضحاك، وفارس بن أبي الغيث، وأخوه عامر، والفضل بن أبي علي، ونسبهم في مرداس.

قال ابن خلدون: «وكل هؤلاء يذكرون في أشعارهم». ثم قال: «وشعوبهم لذلك العهد كما نقلناهم: زغبة، ورياح، والأثبج، وقرة. وكلهم من هلال بن عامر.

ولم يكن كل الهلاليين اجتازوا إلى إفريقية مع جماعات الهلاليين وبني سليم، بل كان من الهلاليين جماعة قبل ذلك ببرقة، أيام الحاكم العبيدي، ولهم فيها أخبار مع الصنهاجيين ببرقة، ونسبهم إلى عبد مناف بن هلال». (ملخص من ابن خلدون).

مناسبة:

ولمناسبة ذكر بني هلال نذكر قصة الجازية. كما ذكرها ابن خلدون تلك القصة التي تمثل فيها الحب في أقوى صفاته وأعنفها. والتي ما زالت تذكر في مجالس سمر سكان إفريقية.

قال ابن خلدون:

«الجازية أخت الحسن بن سرحان، خطبها منه الشريف شكر بن أبي الفتوح الحسن بن أبي جعفر، بن هشام بن محمد بن موسى بن عبد الله من أشراف مكة، وينتهي نسبه إلى إدريس، فأعطاها له، وولدت منه ولداً اسمه محمد. ثم حصلت مغاضبة بين الشريف والحسن أخي جازية، وأجمعوا الرحلة من نجد إلى إفريقية، واحتالوا عليه في أخذها، فطلبت منه الإذن لزيارة أبويها، فأذن لها، وذهب معها، وفي أثناء الرحلة تركوه، فرجع، ووجد عليها، ووجِدت عليه حتى ماتت بحبه» «اهـ».

وحصلت بين العرب وبين المعز بن باديس حروب هائلة وملاحم كادت تقضي على الطرفين. وعبثاً حاول المعز إغراءهم بالمال والانضمام إلى صفه... وكانت زناتة تقيم بجهات طرابلس فدهمهم العرب بجموعهم، واجتازوهم إلى القيروان قوة واقتداراً بعد حروب طاحنة. وقد حشد لهم المعز ما أمكنه من خيل ورجْل، وقابلهم بنفسه في جيوش جرارة بين قابس والقيروان[1] وثبت له العرب في جيش لا يزيد على ثلاثة آلاف. حدثنا عنه صاحب البيان المغرب أنه لا يزيد على ثلاثة آلاف، وأن جيش ابن باديس لا يقل عن ثلاثين ألفاً. وظهر الاختلال في صفوفه، وهربت صنهاجة وزناتة وبقي المعز في جنوده السودان وكانوا لا يقلون عن عشرين ألفاً، وقتل منهم بين يديه خلق كثير، ووصلت إليه سهام العرب، فلم يلبث أن دارت عليه الدائرة، ونجا بنفسه إلى المنصورية فيمن بقي معه من فلول جيشه.

---

(1) في مكان يقال له حيدران. ويقال له الآن «ودران».

وقد وصفت كتب التاريخ هذه الواقعة بأبشع ما توصف به الحروب من فظاعة القتل وكثرة القتلى، نتيجة لصمود كل من الجيشين للآخر في سبيل الحصول على الفوز... وقد قال الشاعر علي بن رزق الرياحي[1] من قصيدة يصف فيها هذه الملحمة القاسية:

وإن ابـن بـاديـس لأحـزم مـالـك   ولـكـن لـعـمـري مـا لـديـه رجـال

ثـلاثـة آلاف لـنـا غـلـبـتْ لـه   ثـلاثـيـن ألـفـاً إنَّ ذا لـنـكـال[2]

وكانت الواقعة درساً قاسياً لابن باديس، أقنعته بألا طاقة له بالعرب، وأيقن أن العبيديين رموه بداهية دهياء، فأخذ يفكر في الانتقال من القيروان ولم يكن له حصن بعدها إلا المهدية التي كان يتولى أمرها ابنه تميم. وكان القتاتون[3] سعوا بينهما بالنميمة لقطع الصلة بينهما، ولكن هذا لم يمنعه من الانتقال إلى المهدية، فانتقل إليها في رمضان سنة 449. وتلقاه ابنه الأمير تميم بكل ترحاب. ولما كان يتصف به الأمير تميم من حسن التصرف وأصالة الرأي فوض له والده الأمر، وبقي المعز معه بالمهدية إلى أن توفي بها سنة 453[4]. وكانت مدة حكمه تسعاً وأربعين سنة. وترك وراءه من حسن الأحدوثة والذكر المستطاب ما يغبط عليه.

تميم بن المعز

ولد بالمنصورية في الثالث من رجب سنة 422. وولاه أبوه على المهدية سنة 445. ولما كان أبوه المعز بن باديس بالقيروان كان هو قائماً

---

(1) وقيل علي بن زروق.

(2) هزم المعز بن باديس أمام العرب مرتين كل منهما أشنع من الأخرى: الأولى سنة 443 وهي التي قيل فيها هذان البيتان. والثانية سنة 444 (نهاية الأرب).

(3) النمامون.

(4) وقال ابن خلكان: توفي في الرابع من شعبان سنة 454 بالقيروان بمرض ضعف الكبد. والقول الأول أرجح.

بشؤون المهدية وانفرد بشؤون إفريقية بعد وفاة أبيه.

وفي أيام الأمير تميم كانت قابس وضواحيها تحت رياسة حَمّو بن فلفل البرغواطي[1]، وهو من الخزرونيين أعداء الصنهاجيين، وكانت زغبة من بني هلال تسكن هذه الناحية ويناصرون حَمّو، فثاروا على الأمير تميم برياسة حمو، فتغلب عليهم، وكثرت في أيامه الثورات وانتشرت الفتن. وفي سنة 466 تغلب بنو رياح على زغبة[2] وأجلوهم عن القيروان، وباعوها إلى

(1) برغواطة، وقال الأستاذ محمد عنان: (صوابها بلغواطة، بباء ولام مفتوحتين، وغين معجمة ساكنة والنسبة إليها بلغواطي) جماعات من البربر أخلاط من عدة قبائل يسكنون ساحل تامسنا وكانوا لا دين لهم، وهم بالمجوس أشبه.. ادعى فيهم النبوة صالح بن طريف في أيام هشام بن عبد الملك سنة 125 وأصل صالح بن طريف من برناط: حصن من عمل شدونة من أعمال الأندلس ونشأ بها، فكان يقال لمن دخل في ديانته برناطي، وحولته العرب إلى برغاطي، فسموا برغواطة.. وصالح بن طريف يهودي الأصل، رحل إلى المشرق، وأخذ عن عبيد الله المعتزلي، واشتغل بالسحر، ورجع إلى المغرب، وعاشر قبائل برغواطة وادعى فيهم النبوة وشرع لهم ديناً من تلقاء نفسه، وقال لهم: أنا صالح المؤمنين الذي ذكره الله في القرآن الكريم، وشرع لهم صيام رجب وإفطار رمضان. وجعل لهم الضحية في الواحد والعشرين من المحرم. وشرع لهم في الوضوء غسل السرة والخاصرة. وأباح لهم أن يتزوج الرجل من النساء ما شاء. وفرض عليهم عشر صلوات خمساً في الليل وخمساً في النهار. وأمرهم أن يلحسوا ريقه تبركاً، فكان يتفل في أيديهم وهم يلحسون. وجاءهم بقرآن فيه ثمانون سورة، منها سورة إبليس، وسورة الحجل وسورة الجراد، وأمرهم ألا يغتسلوا من الجنابة.
وفي سنة 451 كان رئيسهم أبا حفص عبد الله بن أبي الأنصاري من نسل صالح بن طريف، فقاتلهم عبد الله بن ياسين حتى قتل في حروبهم في 24 من جمادى الأولى سنة 451 اهـ. ملخص من الأنيس المطرب لابن أبي زرع.

(2) كانت زغبة تسكن القيروان. وسيأتي أن بني رياح أجلوهم عنها وباعوها إلى ابن علاء الناس. ثم إن بني رياح أجلوا زغبة عن قابس أيضاً. ولا ندري هل أجلوهم بعد أن أجلاهم الرياحيون عن القيروان، أو كان قبل أن يجلوهم عن القيروان؟ ثم طاردوهم وأجلوهم عن القيروان أيضاً.
وزغبة والرياحيون كلهم هلاليون بنو عمومة. ولما أجلى الرياحيون زغبة عن قابس تولى أمرها بنو جامع أمراء قابس في عهد الصنهاجيين. وهم محمد، ومدافع، وعيسى أبناء رشيد. ورافع بن مكنى. ومكنى ورشيد أخوان، وهما أبناء كامل، بن جامع، بن =

الناصر بن علاء الناس بن حماد الصنهاجي الذي كان يقال له (عَلناس) وكان ينازع تميماً السلطة في إفريقية. . . وقد اصطلح مع تميم سنة 467، وزوجه تميم ابنته بُلاَّرة وولى على طرابلس ابنه مقلداً. وتوفي الناصر ابن علناس سنة 470.

وقد وجد الفرنجة - وهم بالمرصاد دائماً للمسلمين - في كثرة الثورات على تميم فرصة للاستيلاء على المهدية فاستولوا عليها سنة 480. واستولوا على صقلية سنة 484.

كان تميم شجاعاً، وجواداً يضرب بجوده المثل، وقد قيل فيه:

أصحّ وأقوى ما رَوَيناه في الندى ... من الخبر المأثور مُنذُ قديم

أحاديثُ ترويها السيول عن الحيا ... عن البحر عن كف الأمير تميم

وكان عالماً فاضلاً، وشاعراً رقيق العاطفة، ومن شعره:

فإما الملك في شرف وعز ... عليّ التاج في أعلى السرير

وَإما الموتُ بين ظُبا العوالي ... فَلستُ بخالد أبد الدهور

وقد ترجم بهذين البيتين عما اتّصفت به تلك النفس الكبيرة التي لا ترضى بغير الصدارة.

ومن رقيق شعره:

وَخمر قد شربت عَلى وجوه ... إذا وُصفتْ تَجلُّ عن القياس

= رهمان، من بني علي، بطن من بطون رياح. وقد تولى منهم الإمارة على قابس في عهد تميم بن المعز: بكر بن كامل بن جامع، فقام بأمرها واستبد بها على تميم، ولم يزل أميراً على قومه دهمان إلى أن توفي. . وقام بالأمر بعده رافع، واستفحل بها ملكه. وكان آخر من ملكها من بني جامع مدافع بن رشيد بن كامل. . ولما استولى عبد المؤمن على المهدية وصفاقس وطرابلس وبعث ابنه عبد الله بجيش إلى قابس ففر مدافع عنها، وأسلمها إلى الموحدين، ولحق بعرب طرابلس فأجاروه سنتين، ثم لحق بعبد المؤمن بقابس فرضي عنه وهو آخر أمراء بني جامع. وبتسليمه لعبد المؤمن انقرض حكم بني جامع.

خُـدودٌ مـثـل ورد فـي ثـغـور كـدرٍّ فـي شـعـور مـثـل آس

وكان من فحول الملوك الشعراء.

توفي تميم في منتصف رجب سنة 501 وعمره تسع وسبعون سنة. ومدة حكمه 46 سنة، وعشرة أشهر، وعشرون يوماً... وخلف مائة ولد من الذكور، وستين بنتاً. على أمثاله رحمة الله.

يحيى بن تميم

ابن المعز بن باديس. عهد إليه أبوه بالولاية في حياته في السادس والعشرين من ذي الحجة سنة 497. واستقل بالأمر يوم وفاة أبيه، وعمره ثلاث وأربعون سنة وستة أشهر، وعشرون يوماً... وكان عالماً عادلاً. غزا في البحر عدة غزوات فكان موفقاً. توفي يوم عيد الأضحى سنة 509 وعمره اثنتان وخمسون سنة، وخلف من الذكور ثلاثين ولداً ومن الإناث عشرين بنتاً ومدة ولايته ثمان سنوات وستة أشهر.

علي بن يحيى

ابن تميم بن باديس. ولد يوم 15 من صفر سنة 499 وولاه والده على صفاقس. وتوفي يوم 25 من ربيع الآخر سنة 515.

الحسن بن علي

ابن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس. ولد بسوسة في رجب سنة 502 وتولى بعد وفاة أبيه. وعمره 12 سنة وتسعة أشهر.

كان الشمال الإفريقي مهدداً دائماً بالغزو من سكان الجنوب الأوربي. وخصوصاً الجنوب الإيطالي، لأن العرب كانوا احتلوا صقلية وما جاورها سنة 212 وقد تألب عليهم السكان وأخرجوهم، وبقيت العداوة متأصلة بين الفريقين ينتهز كل منهما الفرصة لصاحبه. وقد تمكن رجار الصقلي من

احتلال المهدية عاصمة إفريقية إذ ذاك، في زمن تميم بن المعز حينما كثرت عليه الثورات من الخزرونيين بمناصرة العرب ولم يكتف رجار باحتلال المهدية، بل صار يقوي نفسه ويعدّها لاحتلال بقية البلاد الإفريقية. ولما كانت طرابلس من أهم العواصم في المنطقة الإفريقية الشرقية أراد رجار أن يحتلها ليسيطر على ما بينها وبين المهدية من ذلك الساحل الخصب الجميل... وكانت طرابلس تحت حكم الخزرونيين وحاكمها محمد بن خزرون وقد آنس رجار ضعفاً من الحسن بن علي، وأنه لا يمكنه مهاجمته في المهدية فاتجهت نيته إلى احتلال طرابلس.

محمد بن خزرون

هو محمد بن خزرون بن خليفة بن وُرّو... ولي طرابلس بعد شاه ملك وقرب منه مشيخة ابن مطروح لما لهم من المكانة والنفوذ في طرابلس، وأسند إليهم رياسة الجند وتدبير الأمور وأصبح لا يصدر إلا عن رأيهم... واستقل محمد بن خزرون بطرابلس عن الحسن بن علي وناصره على ذلك بنو مطروح ورفضوا دعوة الحسن، ومنعوا عنه ما كانوا يدفعونه إليه من مال.

رجار[1] يهاجم طرابلس

وفي أيام ولاية محمد بن خزرون أواخر سنة 537 وحينما كان الحسن ابن علي والياً على إفريقية هاجم رجار طرابلس وحاصرها بأسطوله ونقبوا سورها وقد دافع أهلها عنها واستنجدوا بسكان الضواحي من العرب وغيرهم فأنجدوهم، ولم يتمكن رجار من دخول المدينة فرجع إلى صقلية خائباً، وغنم الطرابلسيون منه بعض الأسلحة. وبقي ابن خزرون مستقلاً بطرابلس يدير شؤونها ويدين بالطاعة للعبيديين في مصر.

(1) أو «روجر» كما جاء في كتاب الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ.

المجاعة في طرابلس:

وفي سنة 540 حصل ما لم يكن في حسبان محمد بن خزرون، فقد حصلت مجاعة كبيرة في طرابلس حتى اضطر بعض السكان إلى الجلاء عنها، وكان محمد بن خزرون شديد الوطأة على السكان قاسياً في حكمه. ولما حصلت المجاعة وعجز الناس عن تلبية مطالبه اشتدت وطأته عليهم لسد العجز الذي لحق بحكومته ولكن الناس ما كانوا يجدون سبيلاً لتلبية طلباته، فكانوا يضيقون بها ذرعاً، وهو لا يزداد إلا تعسفاً.

بنو مطروح:

وكان بنو مطروح في مقدمة وجهاء طرابلس ومن أكبر أعيانها، وكانوا من أكبر أنصار محمد بن خزرون كما قلنا آنفاً، ولكنهم ضاقوا به كما ضاق به غيرهم، ولم يمكنهم أن يخففوا من وطأته، فجمعوا الناس حولهم وثاروا به، وأخرجوه هو وشيعته من المدينة واستبدوا بها، ونقضوا بيعة الحسن بن علي. وكان رجار متتبعاً لأحوال طرابلس وما يقع فيها. وقد انتهز فرصة المجاعة وثورة السكان على ابن خزرون وطرده من المدينة، فاستعد للهجوم على طرابلس.

رجار يهاجم طرابلس مرة ثانية

ما زال رجار مستاءً من هزيمته الأولى في طرابلس سنة 537. ولما لاحت له الفرصة أعاد الكرة للمرة الثانية، وكان قد استولى على صفاقس بعد أن استولى على المهدية، فجهز جيشاً وأسطولاً عظيمين وهاجم بهما طرابلس. ولم تتفق كلمة السكان على الدفاع لضعف الحامية، ولما أصاب البلاد من الضائقة المالية نتيجة للمجاعة الشديدة التي أصابتها سنة 540. فدهمها رجار بجيشه وأسطوله، ولم يجد مقاومة، فاحتلها بدون عناء سنة 541.

وفر محمد بن خزرون وبعض حاشيته إلى البادية، واحتموا بسكانها

من العرب والبربر، وكان محمد بن خزرون هذا آخر من تولى ولاية طرابلس من بني خزرون. وبخروجه انقطع أمرهم من طرابلس ودالت دولتهم.

ودخلها قائد أسطول رجار «جرجي بن مخائيل الأنطاكي»[1] وطلب منه السكان الأمان فأمّنهم، وشرط لهم ألا يكلفهم بما يخالف دينهم.

ولابن خلدون رواية أخرى في احتلال رجار طرابلس سنة 541 قد يكون فيها شيء من الزيادة على ما سقناه.

قال ابن خلدون: «وأعاد رجار الكرة على طرابلس سنة 541 وحاصرها برّاً وبحراً، وقاتلها ثلاثة أيام... وكان أهل البلد قد اختلفوا قبل مجيء العدو، وأخرجوا بني مطروح، وولوا عليهم واحداً من أمراء لمتونة كان مارًّا بها في طريقه إلى الحج، ولكن أنصار بني مطروح داخل السور انتهزوا فرصة انشغال الناس بقتال الفرنجة وأدخلوهم إلى المدينة، ونشبت الحرب بينهم وبين بعض السكان» ويفهم من كلام ابن خلدون أنّ بعض السكان شغل بقتال بني مطروح وأنصارهم الذين أدخلوهم المدينة، وبعضهم شغل بقتال الفرنجة الذين هاجموا البلد ـ «وقد أدرك الفرنجة ما وقع بين الأهالي، وكانوا ما زالوا خارج السور، فنصبوا عليه السلالم وتسنموه ودخلوا المدينة عنوة وفتحوا أبوابها لبقية جيشهم، وأفحشوا في القتل والسلب، والتجأ كثير من السكان إلى العرب والبربر في الضواحي. ثم رفع الفرنجة السيف ونادوا بالأمان، فرجع كثير من السكان إلى المدينة، وفرضوا عليهم الجزية، وأقاموا بها ستة أشهر، وأصلحوا من أسوارها وفنادقها، وولوا عليها رافع بن مطروح، وأخذوا رهائنه بالطاعة، ورجعوا إلى صقلية وحثّوا الناس على الرحيل إلى طرابلس، فرحل إليها أناس كثيرون وحسنت حالة العمران فيها».

ولم يكن في هذه الرواية ما يستغرب إلا قصة هذا الرجل اللمتوني

---

(1) تعلم في أنطاكية بالشام وغيرها، وهاجر من المشرق، واصطنعه تميم بن المعز. ولما مات تميم أعمل جرجي الحيلة في اللحاق برجار فلحق به، وحظي عنده، واستعمله على أسطوله. اهـ من ابن خلدون. ج6 ص 161.

الذي ولاه الطرابلسيون أمرهم وهم لا يعرفون من أمره شيئاً. وقد يكون من المستبعد أن يبلغ الخلاف بين الطرابلسيين إلى أن يسندوا أمورهم إلى رجل عابر سبيل في طريقه إلى الحج. ولم يذكر ابن خلدون اسم هذا الرجل، ولا ما آل إليه أمره بعد احتلال المدينة وإسناد أمرها إلى ابن مطروح، كما لم أعثر في غيره على اسمه، ولا كيف انتهى أمره. وذكر ابن غلبون في تاريخه أنه أخذه الفرنج فيمن أخذوا من الرهائن.

وهذه هي المرة الأولى التي يستولي فيها الفرنجة على طرابلس، أما المرة التي كانت سنة 537 فلم يتمكنوا من الاستيلاء عليها... ويؤكد التجاني ذلك بقوله: «وهذه أول مرة يستولي فيها الفرنجة على طرابلس. وما يشاع لدى الطرابلسيين أن بلدهم احتلت مرة قبل هذه فليس بصحيح».

ولاية رافع بن مطروح الأولى

كنيته أبو يحيى، وكان شيخ البلد، وأسند إليه رجار ولاية طرابلس، وعين الأستاذ يوسف بن زيري قاضياً، وكنيته أبو الحجاج، وبقيت طرابلس تحت حكم رافع بن مطروح اثنتي عشرة سنة، وهو يدين لرجار بالطاعة.

وتوفي رجار سنة 548 بعد أن ملك ما بين المهدية وطرابلس. ما عدا قابس وخلفه في الحكم ابنه غاليالم، وسمى نفسه رجار الثاني. وهو الذي ألف له الشريف أبو عبد الله الإدريسي كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» في الجغرافيا وقويت شوكته في الشمال الإفريقي. وكان وجود رجار في طرابلس مما زاد في هيبته، وكتب إليه صاحب قابس يطلب الدخول في طاعته... وكان غاليالم شديد الوطأة على المسلمين، فملوا حكمه، وسئمت نفوسهم البقاء تحت سلطانه وسرت بينهم روح التذمر والنزوع إلى الثورة. وقد ساعدهم على التفكير في الثورة انتشار دعوة الموحدين في إفريقية وقربهم من المهدية.

وفي أيامه سنة 551 ابتدأت الثورة على غاليالم في صفاقس، وانتشرت

في البلاد الساحلية، ووصلت إلى نواحي طرابلس. وقد خاف غاليالم أن يتصل الطرابلسيون بالثورة ففكر في إحداث فتنة بين الأهالي لتلهيهم عن التفكير في الثورة وعن الاتصال بالموحدين، فأمر الطرابلسيين بالطعن على الموحدين والتكلم فيهم وفي طريقتهم. ورأى الطرابلسيون أن هذا أمر يخالف الدين، وقد سبق لميخائيل قائد أسطول رجار أن شرط لهم ألا يكلفهم بما يخالف دينهم، فلجأوا إلى القاضي أبي الحجاج، وكلفوه بأن يفهم غاليالم بأن هذا أمر يخالف الدين، وقد أمكنه أن يقنعه بذلك، فأعفاهم من شتم الموحدين والطعن عليهم. وبقي يراقب الحالة ويحاول منع الثورة من الوصول إلى طرابلس، ولكنه فشل، وتأهب الطرابلسيون للثورة.

ثورة رافع بن مطروح

لم تكن معاملة غاليالم - رجار الثاني - للطرابلسيين تحمل من الإنصاف والعدالة ما يطمئن النفوس على الحياة، ويبعث فيها الأمل في المستقبل، ويقنعها باحترام الحق والكرامة، وكلما طال الزمن بالفرنجة في البلاد الإسلامية كلما تمادوا في الباطل ولجّوا في الطغيان، وقد سئم السكان معاشرتهم... وكان رافع بن مطروح رأس الحركة وقائد الثورة، وقد أعيته الحيلة في كبح جماح غاليالم، حتى سنحت له الفرصة بقرب الموحدين من طرابلس، فلم يسعه إلا انتهازها، وجمع أنصاره، وثار بغاليالم في طرابلس سنة 553[1] وقتلوا الفرنجة قتلاً ذريعاً وأحرقوهم بالنار، وهرب من لم يدركه القتل وتحررت طرابلس كما تحرر الساحل الإفريقي ما عدا المهدية. وكان نفوذ غاليالم امتد إلى المهدية. وفي الداخل إلى قرب القيروان.

(1) ذكر هذا التاريخ ابن غلبون أيضاً، ولكنه ذكر أن الفرنجة اتفقوا أن يحدثوا فتنة بين الموحدين والطرابلسيين سنة 554هـ. وواضح أن اعتزامهم إحداث الفتنة إنما يكون قبل الثورة عليهم. ويظهر أن اتفاقهم على إحداث الفتنة كان سنة 552 فحرف رقم اثنين إلى رقم 4.

ولاية رافع بن مطروح الثانية

وبعد أن تم طرد الفرنجة من طرابلس اتفقت كلمة الطرابلسيين على تولية رافع بن مطروح حاكما على طرابلس. وما كان ينبغي التفكير في غيره، لأنه كان قبل الثورة واليا من قبل رجار، وأيضاً فهو الذي قام بالثورة وقاد الناس إليها، وأيضاً فإنه في المكان الأول من الحياة الاجتماعية في طرابلس ومن وجهائها الممتازين. وبقي رافع بن مطروح يصرف شؤون طرابلس. وكانت دعوة الموحدين قد انتشرت في الشمال الإفريقي، وبقي يترقبها رافع ابن مطروح إلى أن فتحوا المهدية وأجلوا منها غاليالم سنة 555 فانضم إليهم، وسيأتي خبر ذلك.

لقد جرَّنا سياق القول إلى ما حصل في طرابلس أيام الحسن بن علي، ونعود إلى الكلام عليه فنقول: إن الحسن بن علي هذا هو آخر أمراء صنهاجة، القائمين بدعوة العبيديين في إفريقية، وعددهم ثمانية، وهم: بلكين[1] بن زيري... المنصور بن بلكين... باديس بن منصور... المعز ابن باديس... تميم بن المعز... يحيى بن تميم... علي بن يحيى... الحسن بن علي. وفي أيامه احتل رجار المهدية وانقرض فلك صنهاجة. والدنيا دول. والملك لله الواحد القهار.

دولة الموحدين[2]

أسسها المهدي بن تومرت في المحرم سنة 516. وهو محمد بن عبد الله تومرت بن عبد الرحمن بن هود بن خالد... وقال ابن خلدون في التعريف به: «هو محمد بن عبد الله، بن وجيلة، بن بامصال، بن حمزة، بن عيسى[3] وهو مؤسس دولة الموحدين، واشتهر بالمهدي، وأصله من هرغة

---

(1) وينطق تارة بالكاف المعطشة، وهي التي تنطق بين الكاف والقاف.
(2) مدة قيام دولة الموحدين من ظهور ابن تومرت إلى قيام دولة الحفصيين 109 سنوات.
(3) قال ابن خلدون، ذكر هذا النسب ابن رشيق وحققه ابن القطان.

من بطون المصامدة البربر. واسم أبيه عبد الله، وتومرت، وأصله من السوس، ويعرف بالفقيه السوسي. وكان إماماً في طريقة الأشعرية، وهو الذي أدخلها إلى المغرب، وذكر بعضهم نسبه في أهل البيت... قال ابن خلدون: «ويظهر أن سبب هذا كثرة أولاد إدريس الأكبر في المصامدة... ولد بهرغة سنة 491. وقد شب على حب العلم والقراءة، وارتحل إلى المشرق على رأس المائة الخامسة، ومر بالأندلس وكانت آنذاك دار علم. ثم ذهب إلى الإسكندرية وحج. وذهب إلى العراق، واجتمع بفحول العلماء وكبار المناظرين. وأفاد علماً كثيراً، وكان يحدِّث نفسه بالدولة لقومه على يده، ورجع إلى المغرب وتصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وانتشر صيته، وسمي الإمام. ولما بايعه الناس على مناصرته لقبوه المهدي. وكان يسمي أصحابه الطلبة، ويسمي أهل دعوته الموحدين... وله من غزارة العلم وقوة الحجة أخبار يطول ذكرها. وله من مضاء العزيمة وقوة الإرادة ما مكنه من إنشاء الدولة التي كان يمني بها نفسه وقومه.

توفي ليلة الأربعاء الثالث عشر من رمضان سنة 524 بتينمل، وبها دفن. ودام حكمه تسعة أعوام إلا ثلاثة أيام.

عبد المؤمن بن علي

ابن مخلوف، بن يملا، بن مروان، بن نصر، بن علي، بن عامر... وهو من قبيلة زناتة البربرية، وقيل هو من أصل عربي مضري. وكان الموحدون يلقبونه بالشيخ، ويلقِّبون المهديّ بالإمام... وهو أول خليفة للمهدي، استخلفه في حياته، وتولى الحكم بعد وفاته سنة 524. وتغلب على ابن تاشفين، وأرسل ابنه محمداً بجيش إلى قابس، وكان بها مدافع بن رشيد من بني جامع ـ وهو آخر من تولى قابس من بني جامع ـ ففر عنها ودخلها جيش الموحدين، وفي سنة 555 دخلت طرابلس في طاعته، كما دخل فيها جبل نفوسة، وبهذا لم يبق في الشمال الإفريقي خارج عن طاعته إلا المهدية فقد تحصن بها غاليالم ـ رجار الثاني ـ محاولاً أن يستقل بها عن الموحدين

ويدفعهم عنها... ولم يلبث سكانها أن استنجدوا بعبد المؤمن من ظلم غاليالم، فاستجاب لنجدتهم، وهاجمهم بجيوشه، ودخلها فاتحاً يوم عاشوراء سنة 555، وبفتح المهدية تم له الأمر في الشمال الإفريقي، وخلص له كله، وسمى هذه السنة سنة الأخماس لأنها وافقت ثلاثة أرقام كل منها خمسة.

وفي هذه السنة ذهب ابن مطروح إلى المهدية في وفد من الطرابلسيين لمقابلة عبد المؤمن وليقدم له الطاعة مشافهة ويجدد له العهد، فقبل منهم، وأكرم وفادتهم، وأقر ولاية ابن مطروح على طرابلس... ومن هذا الوقت دخلت طرابلس في عهد جديد، وأصبحت تابعة للموحدين، وأصبح رافع بن مطروح والياً عليها من قبلهم... وبقي ابن مطروح والياً عليها إلى أن هرم وعجز عن الحكم أيام يوسف بن عبد المؤمن فطلب إليه أن يعفيه من مهامّ الحكم وأن يأذن له بالذهاب إلى مصر، فأعفاه وأذن له. فسافر بطريق البحر إلى مصر سنة 568، ووصل الإسكندرية في رجب من هذه السنة وبقي فيها إلى أن توفي وبقيت ذريته، وكانت لهم رياسة، وفيهم علم وأدب.

ولما اشتد به الحنين إلى طرابلس قال:

لوقفة بين باب البحر ضاحيةً ... وباب هوارة أو موقف الغنم

أشهى إلى النفس من كسر الخليج ومن ... دَير الزجاج وشاطي بركة الخدم

وباب البحر، وباب هوارة، وموقف الغنم أمكنة بطرابلس، يقول: إن الوقوف فيها أشهى إلى نفسه من كسر الخليج، ودير الزجاج، وشاطىء بركة الخدم أو الحرم، وهي أمكنة بالإسكندرية.

وبعد أن فتح عبد المؤمن المهدية دان له المغرب كله. ودخل عليه صاحب قفصة، ومعه بعض أعيانها لتقديم الطاعة، وكان معهم الشاعر أبو محمد عبد الله بن أبي العباس التيفاشي، فأنشد بين يديه قصيدة أولها:

ما هزّ عِطفيه بين البيض والأسل ... مثلُ الخليفة عبد المؤمن بن علي

وأراد الاسترسال في الإنشاد، فأمره بالتوقف، واكتفى منه بهذا البيت

لبلاغته وأعطاه ألف دينار وقبل طاعتهم، وكانوا محاصرين ففك عنهم الحصار.

توفي عبد المؤمن بمدينة سلا في العاشر من جمادى الأولى سنة 558 ودفن بتينمل بجوار المهدي. ومدة حكمه ثلاث وثلاثون سنة، وثمانية أشهر، و15 يوماً.

يوسف بن عبد المؤمن

كنيته أبو يعقوب. بويع له عقب وفاة أبيه. وتوفي يوم السبت 18 من ربيع الآخر سنة 580 ومدة ملكه 21 سنة، و10 أشهر، و8 أيام.

يعقوب المنصور

كنيته أبو يوسف، بويع له بعد وفاة أبيه. ولد في أواخر ذي الحجة سنة 554 وتوفي يوم 12 من ربيع الأول سنة 595، ومدة حكمه 14 سنة و11 شهراً، وأربعة أيام وفي أيامه ظهر أولاد غانية: يحيى وعلي.

يحيى بن إسحاق الميورقي

هو يحيى بن إسحاق، بن حَمُّو، بن علي، الميوْرْقي، من بني غانية، من المرابطين الملثمين، من قبيلة صنهاجة الذين كانوا ملوك المغرب.

وعلي الميوْرْقي والد حَمُّو هو صاحب ميوْرْقَة. وكان قد سكن الصحراء لنزاع بينه وبين لمتونة. وقد استرجعه يوسف بن تاشفين بعد سنين من إقامته بالصحراء، وزوّجه امرأة من أهل بيته تسمى «غانية» كان أبوها عهد إليه بكفالتها. وقد ولدت من علي محمداً ويحيى، وبقيا في كفالة يوسف، وبعده في كفالة ابنه علي ومصاحبته، وعقد علي بن يوسف ليحيى على غرب الأندلس، وأنزله قرطبة. وعقد لمحمد على ميورقة ومنورقة، ويابسة سنة 520.

هذه غانية التي نسب إليها يحيى وعلي وهما من أحفادها.

خرج يحيى وأخوه علي من مَيورْقة في شعبان سنة 580 سعياً وراء الملك، وطلباً بثأر بني تاشفين من الموحدين، فاستوليا على المهدية، وطردا منها ابن عبد الكريم عامل الموحدين. واستوليا على طرابلس وصفاقس، وقابس. وفي سنة 586 استوليا على تونس، وطردا منها الموحدين.

وقد استفحل أمر بني غانية في إفريقية، واشتدت شوكتهم وضيَّقوا الخناق على دولة الموحدين واغتصبوا منها إفريقية قوة واقتداراً.

شرف الدين قراقش

هو أرمني من الغزّ، من مماليك الملك المظفر تقي الدين بن أيوب أخي صلاح الدين. وكان تقي الدين يريد أن يغزو المغرب، ولكن وقفت في طريقه صعوبات حالت دون تحقيق هذه الرغبة، وأهم هذه الصعوبات كثرة جموع العرب في إفريقية، خصوصاً وقد عُرفوا بالشجاعة وممارسة الحرب، وقد شاع خبر سفره بين قواد جيشه وخواصه فرغبوا في ذلك وحبذوا الفكرة، فلما عدل عن غزو المغرب صعب ذلك على قراقش، وأصر على تنفيذ الفكرة ولو بمخالفة سيده، ولما تحقق تصميم سيده على العدول، جمع أمره سنة 568، وانضم إليه إبراهيم بن قراتكين (سلاح دار) تقي الدين، وكثير من الغز المرتزقة، وسافروا إلى المغرب لمحاربة الموحدين، وإحياء دعوة العباسيين.

ولما اجتازوا عقبة السلوم اختلف قراقش وابن قراتكين في الرأي فافترقا، فسار ابن قراتكين على طريق الساحل وتمكن من الوصول إلى قفصه فقبض عليه المنصور في جماعة وذبحهم جميعاً. . وأما قراقش فسار إلى سيوة، - وكانت تسمى إذ ذاك «شنترية» -، فافتتحها، وخطب فيها لصلاح الدين وكتب إليه بذلك. . . واستولى على أوجلة، وزويلة وبلاد فزان، وأزال منها دولة بني خطاب الهواريين - وهم من البربر من قبيلة هوارة - وكانت

قاعدة ملكهم زويلة، ولذلك تعرف بزويلة بني خطاب، وقبض على ملكهم محمد[1] بن خطاب وعذبه حتى مات، وهو آخر ملوك بني خطاب ولما ضربت زويلة انتقلوا إلى فزان. وهكذا استمر قراقش في فتح البلاد، وكلما فتح بلداً دعا فيه لصلاح الدين وأرسل إلى سيده بذلك حتى وصل طرابلس.

قراقش في طرابلس

دخل طرابلس بعد أن غادرها أبو يحيى رافع بن مطروح. يقول بعض المؤرخين: إن قراقش احتل طرابلس من رافع بن مطروح سنة 579 ودخل رافع في طاعته. وهذا غير صحيح؛ لأن رافع بن مطروح غادر طرابلس إلى الإسكندرية سنة 568.

وكانت خالية من الجند والأقوات. وقبل أن يهاجم طرابلس دعا القبائل العربية الضاربة في تلك النواحي وحول المدينة للانضمام إليه، فانضم إليه العرب الذبابيون من بني سليم، والشيخ مسعود بن زيان شيخ الدواودة الرياحيين[2]، وغيرهم كثير من بني هلال وبني سليم وكان الشيخ مرغم بن صابر بن عسكر شيخ الجواري من الذبابيين أبى أن ينضم إلى قراقش فقبض عليه وباعه إلى حاكم برشلونة النصراني[3]، فاشتراه، وبقي عنده سيراً وسيأتي خبره.. وكان ذلك سنة 582، فقويت بالعرب شوكته، وكثرت عصابته، فنهض بهم إلى جبل نفوسة فاستولى عليه، واستولى فيه على أموال كثيرة ففرقها فيمن معه من العرب استجلاباً لإخلاصهم له... وباستيلائه على جبل نفوسة حفظ خط الرجعة لنفسه، ولم يبق وراءه من يخافه من الشرق والجنوب... ثم تقدم في جموعه إلى طرابلس وحاصرها، ولم يلبث أن استولى عليها لقلة ما بها من الجند والأقوات، لأن أهلها ما كانوا

(1) محمد بن خطاب، بن يصليتن، بن عبد الله، بن صنفل أو زنقل، بن خطاب. وأول أمر بني خطاب في زويلة أنهم كانوا عمالاً فيها للمنور بن بلكين في سنة 381.

(2) وقيل اسمه مسعود بن سلطان البلطة، وهو من الأمراء المشهورين. وسمي البلطة لشدته.

(3) ويقال إن الجنويين أسروه وباعوه لحاكم برشلونة.

ينتظرون هجوم العدو عليهم. . . وأصبح يملك ما بين طرابلس وفزان، ومن جبل نفوسة إلى حدود برقة الشرقية. . . وقد اضطره انضمام العرب إليه إلى كثرة الإنفاق، فأكثر من فرض الضرائب على السكان حتى أجهدهم، وأفقرهم، وتذمرت نفوسهم من قسوته عليهم، وأضمروا له العداء. . . واتخذ من طرابلس مقرًّا له، وبنى قصره الذي ما زالت بقاياه بقرية قرقاش، وهي محرفة عن اسم قراقش. وتوجه إلى إفريقية وهناك التقى بأولاد غانية: يحيى وعلي، فاجتمعوا على الفساد وظلم العباد، وانضم إليهم كافة بني سليم ومن ناصرهم من البربر. وكانت رياح، وجشم والأثبج من بني هلال مخالفين للموحدين فانضموا إليهم، وخالفتهم زغبة من بني هلال فانضمت إلى الموحدين، واشتد خطرهم على الناس، فاستغاثوا بالأمير يعقوب المنصور بن عبد المؤمن في مراكش سنة 583. وفي سنة 584 قتل علي بن غانية في حروبه مع نفزاوة بالجريد أصابه سهم غرب فقتله، وحمل جثمانه إلى مَيورْقة فدفن بها والسهم الغرب: هي التي لم يقصد بها قتل من أصابته. وفي سنة 586 التقت جيوش المنصور بجيوش يحيى ابن غانية وقراقش إلى الصحراء، وقتل كثير من أصحابهما، وصبّح المنصور قابس فاستولى عليها، ونقل من كان بها من حرم ابن غانية وذويه في البحر إلى تونس. وخرجت طرابلس من يد قراقش، ورجع المنصور إلى المغرب.

عثمان أبو دبوس

هو من ذرية أبي دبوس آخر خلفاء بني عبد المؤمن بمراكش. وقبل أن يغادر المنصور إفريقية ولاه على طرابلس. . . ولما انقرضت دولة الموحدين وقامت دولة بني مَرِين ذهب عثمان هذا إلى برشلونة، فأكرمه حاكمها ووجد عنده الشيخ مرغم بن صابرين عسكر شيخ الجواري الذي كان قراقش باعه إلى حاكم برشلونة سنة 582، فطلب أبو دبوس من حاكم برشلونة أن يجهز له جيشاً وأسطولاً بحريًّا ليسترد دولة الموحدين، فاشترط عليه شروطاً، وأن يدفع إليه مالاً، فرضي أبو دبوس، فجهز له حاكم برشلونة جيشاً وأسطولاً،

وأطلق له الشيخ مرغم بن صابر شيخ الجواري الذي كان أسيراً عنده وعقد بينهما حلفاً على أن ينصر كل منهما الآخر.

ولم نطلع على أعمال أبي دبوس في طرابلس بعد أن ولاه المنصور عليها. ويظهر أن هناك حلقة مفقودة حدث فيها ما أوجب خروج أبي دبوس من طرابلس، ولا ندري أيضاً لم ذهب أبو دبوس إلى حاكم برشلونة ليعينه على استرداد دولة الموحدين، ولم يذهب إلى المنصور في مراكش، كل هذا شيء ما زال في الخفاء.

وجاء أبو دبوس والشيخ مرغم بن صابر في أسطول برشلونة إلى طرابلس، ورسا أسطولهم عليها سنة 588، ونزل مرغم إلى البر، والتقى بقومه، وحملهم على مناصرة أبي دبوس، وحاصروا طرابلس من البر والبحر ثلاثة أيام فلم يقدروا عليها، فرحل الأسطول بمن فيه من جيش برشلونة، وبقي قريباً من المدينة ينتظر الوفاء بالمال الذي شرطه أبو دبوس على نفسه، وبقي جيش العرب يحاصر المدينة من جهة البر. وذهب أبو دبوس ومرغم إلى ضواحي طرابلس يجبون الأموال ويفرضون على الناس المغارم ليسددوا ما تعهدوا به لحاكم برشلونة، ورجع الأسطول إلى برشلونة، وبقي أبو دبوس يتقلب مع العرب في الأراضي الطرابلسية إلى أن هلك ولم يتم له أمر.

ولم يلبث قراقش أن جمع أمره وأغار على قابس فاحتلها. وكان بها كثير من مشايخ العرب الذين لم يناصروه وانضموا إلى الموحدين، فجمع منهم نحو سبعين شيخاً من بني سليم من الذبابيين والكعوب ـ جمعهم في قصر العروسيين وقتلهم جميعاً[1] منهم محمود بن طوق جد المحاميد، وإليه ينسبون. وحميد بن جارية جد الجواري وإليه ينسبون... وذهب قراقش إلى طرابلس فدخلها بعد حرب مريرة، وأصبح مستولياً على قابس وطرابلس،

(1) في أيام الدعي أبي عمارة حفر في هذا القصر لغرض ما، فعثر على عظام هؤلاء القتلى، ونقلوا منها نيفاً وستين جمجمة من جماجم رؤوسهم. وهذا القصر في قابس من قصور بني دهمان الهلاليين.

واستولى يحيى بن غانية على القيروان. ولا ندري من الذي كان يمانع قراقش من دخول المدينة.

عداوة:

وتغيرت الحال بين قراقش ويحيى بن غانية، وانقلبت المحبة بغضاً، والصداقة عداوة، وأعلن كل منهما الحرب على صاحبه.

وفي سنة 591 سار ابن غانية من القيروان إلى طرابلس لمحاربة قراقش وطرده منها، فلما أحس به قراقش جمع له، وخرج للقائه خارج السور خوفاً من الحصار، وأناب عنه ياقوتاً المعروف بالافتخار. فالتقوا بوادي محسن، وهو وادي الهيرة[1]، من أراضي ورشفانة غربي العزيزية وشماليها، فانهزم قراقش، وفر إلى الجبل، وطارده الميورْقي أياماً فلم يظفر به، وذهب قراقش إلى ودّان وبقي هناك، وسيأتي خبره.

ياقوت «الافتخار»

استخلفه قراقش على طرابلس حينما خرج لمحاربة ابن غانية. ولما انهزم قراقش ورجع ابن غانية إلى طرابلس تحصن بها ياقوت ولم يسلمها إلى ابن غانية فحاصره بها، واستمات ياقوت في الدفاع عنها، وطال حصارها، فاستنجد يحيى الميورقي بأخيه عبد الله في ميورقة، فأرسل إليه سفينتين في البحر، واشتد الحصار على المدينة من البر والبحر، ولم تلبث أن سقطت في يد الميورقي فدخلها فعفا عن الأهالي، وقبض على ياقوت وأرسله إلى مَيورْقة مكبلاً بالحديد، وبقي مسجوناً بها إلى أن استولى عليها الموحدون فخرج من السجن، وذهب إلى مراكش، ومات هناك... ولما تم استيلاء الميورْقي على طرابلس ولّى عليها ابن عمه تاشفين بن الغاني.

(1) (الهيرة) بفتح الهاء وسكون الياء: الأرض السهلة. ومن هذا المعنى سمّي وادي الهيرة. لأنه يفيض في أرض سهلة منبسطة. وعلى هذا يقرأ بفتح الهاء وسكون الياء المثناة من تحت.

وتوفي المنصور في الثاني من ربيع الأول سنة 595 وخلفه ابنه الناصر.

محمد الناصر

كنيته أبو عبد الله. بويع له يوم وفاة أبيه يعقوب المنصور، وتوفي يوم العاشر من شعبان سنة 610 ودامت ولايته 15 سنة، وأربعة أشهر، و19 يوماً...

واستمر ابن غانية في ثورته حتى تغلب على ابن عبد الكريم حاكم المهدية واستولى عليها سنة 597. وأرسل ابن عبد الكريم إلى ميورقة في سفينة مكبلا بالقيود، فرماه الحراس في البحر بقيوده ومات غرقاً سنة 597... وفي هذه السنة استولى يحيى بن غانية على تونس في ربيع الآخر، وامتد سلطانه على تبسّة والقيروان، والجريد، وصفاقس، وقابس، وطرابلس، وخطب في هذه المدن للعباسيين ببغداد... وامتنع أهل نفوسة من دفع المغارم المفروضة عليهم، فذهب إليهم بنفسه، وأخذ منهم ألف دينار تنكيلاً بهم ورجع إلى تونس.

وتعالت شكوى أهل إفريقية من أعمال ابن غانية، واتصل بالناصر ما حل بهم منه فخف إلى نجدتهم سنة 601. وأحس ابن غانية بقدومه إليه، فذهب إلى قفصة، وأرسل أهله وأمواله إلى المهدية، وجمع العرب وأخذ عليهم العهد على نصرته والمحاربة معه، وأخذ رهائنهم على ذلك.

وفي هذه السنة ثار عليه أهل طرابلس، وأخرجوا منها عامله تاشفين بن الغاني. ورجع إليهم يحيى بن غانية فاحتل البلد وخربها.

وقدم الناصر في جموعه، ونزل حول المهدية، وأرسل عبد الرحمن ابن أبي حفص لقتال الميورْقي فأدركه في جبال تاجرّا بقرب قابس[1] ودارت

(1) قال التيجاني في رحلته: قتل علي بن غانية في معركة تاجرّا. وقد تقدم أن أشرنا إلى قتل علي بن غانية في معركة قبل هذه، ولعلها كانت في تاجرا أيضاً.

بينهم الحرب، فهزم الميورقي، وقتل في المعركة أكثر جنده، ومن بينهم أخوه جبارة وكاتبه علي بن اللمطي، وكثيرٌ من المقربين إليه... وفر يحيى ابن غانية في نفر قليل إلى الصحراء. واستولى عبد الرحمن على كل ما تركه ابن غانية، ورجع به إلى الناصر، وهو ما يزال محاصراً المهدية... وكانت الغنائم في هذه المعركة ثمانية عشر ألف حمل من المال والمتاع والآلات. وكانت هزيمة ابن غانية في الثاني عشر من ربيع الأول سنة 602 وفي هذه الهزيمة المنكرة التي حاقت بابن غانية قال حماد المالقي هذين البيتين:

أرى يحيى أمامَ الخلق يأتي يَفر أمامَ مَن يأتي إليه
فشبهتُ الشقي بياء يَرمي ولامُ الأمر داخلةٌ عَليه

واستمر الناصر على حصار المهدية حتى فتحها يوم 27 من جمادى الأولى سنة 602 وكان القائم بالحروب في المهدية علي بن الغاني ابن عم يحيى بن غانية فاستسلم وتم أمر المهدية للناصر، وزال حكم ابن غانية عن طرابلس، ودخلت تحت حكم الناصر. وولى على المهدية محمد بن يعمور الهنتاتي (أبا عبد الله).

عبد الله بن إبراهيم بن جامع

ودخلت طرابلس تحت حكم الناصر وولى عليها عبد الله بن إبراهيم ابن جامع. وانتقل الناصر إلى تونس في 20 من جمادى الآخر سنة 602 ووصل إليها غرة رجب، وأقام بها بقية السنة وبعضاً من سنة 603 ورجع إلى مراكش وفي هذه المدة ما زال ابن غانية يشن غاراته على الناصر.

وفي أثناء إقامة الناصر بتونس جهز لأخيه السيد أبي إسحاق جيشاً وأمره بمطاردة ابن غانية الميورقي. وحصلت بينه وبين ابن غانية معركة بشَبْرُو فهزم ابن غانية والتجأ إلى الأراضي الطرابلسية. وفي أثناء مطاردته تمكن أبو إسحاق من إخضاع البربر بجبل نفوسة، واستمر أبو إسحاق يطارده

إلى سويقة ابن مذكور بأراضي زليطن ومن هنا رجع السيد أبو إسحاق إلى أخيه الناصر بتونس. واستمر ابن غانية هارباً إلى ما وراء سرت.

وسويقة ابن مذكور أو ابن مكتود كما في معجم البلدان، هي من البلدان الطرابلسية القديمة التي نسي اسمها ودرس رسمها. وذكر صاحب نزهة الأنظار أن سويقة ابن مذكور: «كانت عامرة وذات أسواق كبيرة مشهورة تبعد عن لبدة إلى جهة الشرق بنحو ثلاثين ميلا». وعلى هذا الوصف، فأقرب شيء يشبه أن يكون سويقة ابن مذكور هي تلك الأبنية التي توجد بجهة وادي ماجر الذي يبعد عن بلدة زليطن إلى الجنوب الغربي بنحو ثلاثين ك.م. وهي أبنية كثيرة ما زالت قائمة، على ضفاف وادي الحَجَاج[1] - أحد فروع وادي ماجر - ومنها قصر عظيم ما زالت آثارهُ ماثلة للعيان يعرف بقصر السوق، وحوله آثار كثيرة على هيئة الحوانيت. وبقربه على مسافة كم ونصف مكان ما زال يقال له «بومذكرة». والمكان الذي به قصر السوق يبعد عن لبده بنحو 60كم. وهي تساوي ثلاثين ميلاً تقريباً كما جاء في «نزهة الأنظار، ونزهة المشتاق».

وكلمة «السوق» التي أضيف إليها القصر هي من بقايا كلمة سويقة ولا شك، وقد انقلبت بطول الزمن إلى كلمة السوق، كما أن كلمة (بومذكرة) التي ما زالت تطلق على مكان معين هي من بقايا كلمة مذكور، دخلها التحريف فانقلبت إلى «بومذكرة»[2].

وسماها صاحب مراصد الإطلاع: (سويقة مكتود) وقال إنها بليْدة في أوائل بلاد إفريقية وآخر برقة، فهو يسميها سويقة مكتود. وسماها غيره سويقة مثكود...

---

(1) الحجاج: أرض ذات ربى مرتفعة متتابعة. وقد يكون بعضها من التراب والحجارة تحيط بأرض منبسطة تتراءى للناظر أنها تكون شبه دائرة على هذه الأرض.

(2) هذا ما وفقت إلى تحقيقه بواسطة صديقنا الأستاذ أحمد الصاري وأعتقد أنه هو الحقيقة خلافاً لما جاء في الطبعة الأولى.

عبد الواحد بن أبي حفص

كنيته أبو محمد، وهو جد الأمراء الحفصيين، وأول أمير منهم عين من قبل الموحدين، ولاه الناصر بن المنصور الموحدي على إفريقية في العاشر من شوال سنة 603.

وعاد ابن غانية من صحراء برقة لمحاربة الموحدين في إفريقية واستولى على سويقة بن مذكور وقبض على صاحبها. وكان كثيراً ما يتمثل بالبيت الذي قيل في الحجاج بن يوسف:

وقد كان العراق له اضطراباً فثقّف أمرَه بأخي ثقيف

ولما بلغ طرابلس اجتمع عليه العرب من بني هلال وبني سليم، وكانَ فيهم محمد بن مسعود شيخ الدواودة وقومه من رياح، فخرج إليه عبد الواحد ابن أبي حفص. ومعه بنو عوف من بني سليم، وهم مرداس وعلاق، وكان ذلك سنة 604 فلقيهم بشبرو[1]، وكانت معركة حامية الوطيس، أسفرت عن هزيمة يحيى بن غانية وأنصاره، وفر مجروحاً إلى «أقصامبرة»[2] بجهة طرابلس.

ولم يلبث ابن غانية أن جمع أنصاره من الملثمين، وانضم إليه كثير من العرب، وكان الدواودة من أشد العرب تحمساً لنصرته، وجعل العرب نساءهم في المقدمة، وتحالفوا معه على دخول إفريقية... وفي سنة 606 خرج إليهم عبد الواحد الحفصي والتقى به في جبل نفوسة... وكان المقصود من وضع نساء العرب في المقدمة الاستماتة في الدفاع عنهن، فلم يصمدوا لجيوش عبد الواحد وذهبت ريح العرب وسبيت نساؤهم، ومات في

(1) قال في الروض المعطار: شبرو موضع على مقربة من تبسة من البلاد الإفريقية كانت به وقعة للشيخ أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص ملك إفريقية على يحيى بن إسحاق المسوفي الميورقي في آخر ذي القعدة سنة 604.

(2) هذا الاسم غير معروف: ويظهر أنه محرف.

المعركة خلق كثير من زناتة، والملثمين والعرب، وكان من بين القتلى ابن شيخ الدواودة، وابن عمه حركات.

قال في الروض المعطار[1]: «وحضر تلك الواقعة جملة من رؤساء العرب وأحيائهم من الرياحيين وغيرهم، وحضرها محمد بن مسعود، وولده عبد الله، وبنو عمه، وذلك أن يحيى بن إسحاق بعد أن هزم في شبرو سنة 604 جمع حوله جماعة من رياح وزعب وعوف والشريد ونفات وغيرهم ودخل بهم إفريقية، فأراد عبد الواحد أن يقضي عليه قبل أن يستفحل أمره، فخرج من تونس وجدّ في السير حتى خرج من حدود إفريقية وتركها خلفه. وتراءى الجمعان بوادي أبي موسى واقتتلوا قتالاً شديداً، وانجلت المعركة عن هزيمة يحيى وفر لا يلوي على شيء. واغتيل في هذه المعركة محمد الغازي ابن عم يحيى، وحركات بن أبي الشيخ، ومحمد بن مسعود وجمع من أعيان العرب الرياحيين، وزعب، وشداد، وكثير من مشاهير العرب وأنجادها وأمرائها».

وجاء في الروض المعطار أن هذه الواقعة كانت في الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة 605.

وفي هذه المدة كان قراقش يقيم بودّان، وكان بينه وبين يحيى بن غانية عداوة تقدم ذكر أسبابها، فخاف يحيى أن يأتيه من الخلف، فذهب إليه مع جماعة من العرب الذبابيين - وكان بينهم وبين قراقش عداوة - فحاصروه في ودان إلى أن فني ما عنده من القوت، ثم استسلم، وطلب من العرب أن يقتلوه قبل ولده - وكان شديد المحبة له - فلما أخرجوه هو وولده، قال له ولده: يا أبت إلى أين يذهبون بنا؟ فقال له: إلى حيث ذهبنا بآبائهم. ثم قتلوه وقتلوا ابنه بعده. وصلبه الميورقي بظاهر ودان سنة 609.

وترك قراقش ولداً، وكان شجاعاً كريماً، وألحقه المستنصر بأجناده في

---

(1) قال في الروض المعطار: وتراءى الجمعان بوادي أبي موسى. وقال: ووادي أبي موسى موضع بمقربة من جبل نفوسة.

تونس، فحدثته نفسه بالثورة، وأن ينسج على منوال ولده، ويطالب بثأره. فلحق بودان، وأشعلها ناراً، فأرسل إليه حاكم كانم من قتله، وحمل رأسه إليه، وأراح الناس من شره، وكان ذلك سنة 656.

وتوفي الناصر سنة 610.

يوسف المستنصر

تولى بعد وفاة الناصر... وبقي ابن غانية ينتهز الفرصة للإغارة على أطراف إفريقية بعد أن خلا له الجو من قراقش. وبقي عبد الواحد في أيامه عاملاً على إفريقية إلى أن توفي بتونس غرة المحرم سنة 618.

السيد إدريس بن يوسف

هو السيد إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن من الموحدين، وكنيته أبو العلاء... تولى إفريقية سنة 618، وكانت له مع الميورقي وقائع هزم فيها الميورقي... وتوفي السيد إدريس في شعبان سنة 620.

عبد الله بن عبد الواحد

كنيته أبو محمد، ولقبه «عبُّو». ولي إفريقية بعد وفاة السيد إدريس. وفي أوائل سنة 621 ثار يحيى بن غانية بظاهر تونس، فأرسل إليه أبا زيد فهزمه. واعتقل عبو في 14 من رجب سنة 625، وهو آخر أمراء بني عبد المؤمن على إفريقية.

الدولة الحفصية

أسسها يحيى بن عبد الواحد في 26 من رجب سنة 625، ودام ملكها إلى اليوم السادس من جمادى الأولى سنة 981. ومدة ملكها 355 سنة، وأحد عشر شهراً. وهي فرع من دولة الموحدين ينتمي إلى يحيى بن عمر الهنتاتي. وهنتاتة قبيلة بربرية تلتحق بالمصامدة التي هي من أكبر قبائل البربر بالمغرب الأقصى.

يحيى بن عبد الواحد

كنيته أبو زكرياء[1]. وهو مؤسس الدولة الحفصية وأول أمرائها[2] ولي إفريقية عاملاً من قبل الموحدين يوم الأربعاء 26 من رجب سنة 625. ولكنه ما لبث أن أعلن استقلاله عليهم سنة 626، وهو من كبار الأمراء الذين أنجبتهم إفريقية. وعني بمحاربة يحيى ابن غانية، واشتد في مطاردته، ولم يمهله ينزل بمكان حتى ينقضّ عليه، وما زال به حتى فرق شمله، ومات شريداً مطروداً في برية تلمسان سنة 631[3]. وكانت مدته من خروجه من ميورقة إلى أن مات ثلاثاً وخمسين سنة. وقد طاف بالبلاد الإفريقية طولاً وعرضاً من سجلماسة إلى حدود مصر، وقضى من عمره ثلاثاً وخمسين سنة في حروب متواصلة، بين نصرٍ تارة، وهزيمة أخرى، ولم يذق في هذه

---

(1) كان للأمير أبي زكريا أخ اسمه محمد ويعرف باللحياني لطول لحيته.

(2) أما ولاية والده عبد الرحمن، وأخيه عبو، والسيد إدريس فكانت من قبل الموحدين، ويعدون من أمراء دولة الموحدين.

(3) وقيل في أواخر شوال سنة 633 (نزهة).

المدة الطويلة طعم الراحة، إرضاء لنفسه الكبيرة فيما تتوق إليه من المجد وحسن الأحدوثة وأبهة الملك.

وبموته انقرض أمر الملثمين من إفريقية والمغرب والأندلس. وانقطع ملك صنهاجة من الأرض بذهاب ملكه وانقطاع أمره، وقد عفى أثره ولم يعرف له قبر.

وترك يحيى بن غانية ثلاث بنات، وأوصى بهنّ إلى الأمير يحيى بن عبد الواحد، وترك خادماً اسمه جابر، فأوصلهن إلى عبد الواحد وأبلغه وصية سيده إليه ببناته، فتقبلهن قبولاً حسناً، وأحسن كفالتهن، وبنى لهن قصراً بجواره بقين فيه حتى متن عوانس، ولم يتزوجن، وما زال يعرف بقصر البنات.

قال ابن خلدون: «أخبرني والدي أنه أدرك واحدة منهن في العشر الأول من المائة الثامنة تناهز التسعين، ولقيها، وكانت من أشرف النساء وأسراهن خُلقاً».

يعقوب بن أبي يعقوب الهرغي

كنيته أبو عبد الرحمن. كان والياً على طرابلس من قبل الأمير أبي زكريا. واشتهر بالشجاعة. وقد سولت له نفسه أن يستقل بطرابلس. وعلم أعيان طرابلس بذلك فتشاوروا في الأمر، فاتفقوا على القبض عليه. وفي الليلة التي يريد أن ينفذ في صبيحتها ما بيَّته قبضوا عليه هو وأخيه ومن معهما، واستشاروا في أمرهم أبا زكريا فأمرهم بقتلهم فقتلوا جميعاً، وصلبت جثثهم على باب هوارة، وأرسلت رؤوسهم إلى تونس.

وتوفي الأمير يحيى (أبو زكريا) ليلة الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة 647 وعمره 49 سنة. ودامت ولايته 22 سنة.

محمد بن عيسى الهنتاتي

وفي سنة 646 توفي عبد الله بن إبراهيم بن جامع، وولي بعده على طرابلس محمد بن عيسى الهنتاتي، وكان يعرف بعنق الفضة، واستقلّ بها عن الحفصيين وتوفي سنة 684.

مناسبة:

نقل ما يلي ملخصاً من رحلة التجاني[1]:

كانت زنزور أيام محمد بن عيسى الهنتاتي من أمتلاك أهل مدينة طرابلس ولمّا وقعت فتنة الميورقي وطالت مدتها انقطعت الصلة بينها وبين أصحابها بالمدينة ولم ينتفعوا بشيء من غلاتها، فزهدوا فيها وباعوها لقبيلة من البربر تسمى مجريس وهذا أصل تملك المجرسيين لها.

ومجريس فخذ من قبيلة هوارة البربرية سموا باسم أمهم «مجريس» واسم أبيهم «وخيعن» وله زوج أخرى اسمها «تاسا» ينسب إليها التاسيون، وهم قبيلة من البربر أيضاً، فمجريس والتاسيون إخوة لأب.

وكانت لمجريس قوة ومنعة، وكان بينهم وبين العرب نزاع دائم. ولما ظهر مرغم بن صابر شيخ الجواري، وأصبح صاحب النفوذ في هذه المنطقة استبد بهم، واستعبدهم حتى كاد يفنيهم، وأصبحت السيطرة في هذه المنطقة للعرب.

وقد طلب مرغم بن صابر من السلطان[2] أن يعطيه قرية زنزور، وأن يكتب له بها ظهيراً «حجة» فأعطاها له في أوائل سنة 676 وكتب له بذلك حجة... ويقول التجاني: فأخبرني صاحبنا الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد

---

(1) هو عبد الله بن محمد التجاني رئيس كتبة الأمير زكريا اللحياني، ورفيقه في أسفاره. ويكفي رحلته فخراً أنها أصل من الأصول التي اعتمد عليها ابن خلدون في كتابة تاريخه. وهي من أحسن ما ألف في الرحلات الإفريقية. توفي في حدود سنة 725.

(2) الذي يظهر أنه محمد بن عيسى الهنتاتي.

السلام الأموي التاجوري: لما وصل مرغم بن صابر إلى طرابلس أراني الظهير «الحجة»، وسألني هل هو صحيح؟، فقلت: إنه صحيح، وهو بالعلامة الجارية. قال: فحينئذ أيقن بتملكها، ولم يكن يصدق بذلك.

وقد تقاسمهم المراغمة من الجواري كلٌّ على حسب رتبته، واتخذوهم خدماً لهم، وكانوا يتبايعونهم، فيباع الواحد من مجريس بأرضه ونسائه وأولاده بما يتفق عليه البائع والمشتري، ويكون المجريسي وأولاده خداماً في أرضهم يزرعونها ويعطون الغلة الذي اشتراهم، وهو ينفق عليهم كما ينفق على الخدم، وإذا لم ينصحوا في العمل باعهم لغيره بأرضهم، وهكذا دواليك.

ويقول التجاني: «إنه كان بزنزور جامع يقال إن عمرو بن العاص هو الذي بناه، واقتطع من الجامع موضع دفنت فيه أم سالم بن مرغم وكثير من ولده. وبجوار الجامع قصر خرب يقال له القصر القديم، ويقال إنه أول قصر بني بزنزور. وأهل البلد يحترمون بقايا هذا القصر، ويتفاءلون بوجوده، ويعتقدون أن بقاء بلادهم مربوط ببقاء هذا القصر، ويجتمعون تحت بقايا حوائطه» اهـ.

محمد بن يحيى

هو ابن عبد الواحد. ولقبه المستنصر بالله. بويع له بعد وفاة أبيه آخر جمادي الآخرة سنة 647. وهو ثاني الأمراء الحفصيين. وفي أيامه انقرضت الخلافة العباسية من بغداد على يد هولاكو التتري.. وقد رأى أمراء مكة وأشراف الحرمين الشريفين أنه لم يبق في البلاد العربية من هو أكبر منه شأناً، ولا أقدر منه على جمع كلمة المسلمين، فأرسلوا إليه البيعة بالخلافة سنة 657 فنودي به خليفة.

توفي ليلة الحادي عشر من ذي الحجة سنة 675. وعمره خمسون سنة. ولايته 28 عاماً، وخمسة أشهر، و21 يوماً.

يحيى بن محمد بن يحيى

لقبه الواثق. ولي بعد وفاة أبيه، وخلع سنة 677. وقتل في صفر سنة 679.

إبراهيم بن أبي زكريا

كنيته أبو إسحاق. بويع له خارج تونس بعد خلع ابن أخيه يحيى بن محمد. ودخل تونس سنة 678. وقتل ببجاية في آخر ربيع الأول سنة 682 أو 683.

أحمد بن مرزوق المسيلي

كنيته أبو عمارة، ولقبه «الدعي» وكان خامل الذكر لا يؤبه به. وكان أمره محل عجب، حتى قال فيه ابن الخطيب الأندلسي:

غَريبةٌ من لَعب الليالي   ما خَطرت لعاقل ببال

نشأ ببجاية، وكان يحترف الخياطة، مغموراً في السوقة من الناس لا شأن له، ولد بسلجماسة سنة 642، وكانت تحدثه نفسه بالملك، فترك بجاية وحرفة الخياطة والتحق بصحراء سجلماسة، وانتسب إلى أهل البيت وشرع يعمل لما كانت تحدثه به نفسه، وادعى عند أغمار الناس وسوقتهم أنه المهدي المنتظر. واستعمل كل ما أمكنه من أنواع الشعوذة لاستمالتهم. ولما لم تنطل حيلة عليهم ذهب يتقلب في الأرض حتى وصل طرابلس، ونزل على عرب ذباب من بني سليم، وما زال يحاورهم بشعوذته حتى بايعوه على النصرة. فأعلن عصيانه لإبراهيم بن أبي زكريا وثورته عليه، وقام بأمره في طرابلس أمير ذباب. وأغار على طرابلس... وكان الحاكم عليها محمد بن عيسى الهنتاتي.

فدافع دونها ولم يتمكن ابن مرزوق من دخولها، فتركها، وعاش في ضواحيها، وجبى الأموال من زنزور ولماية، وأغرم نفوسة وغريان، وهوارة

أموالاً كثيرة. وقد ترك طرابلس محاصرة وذهب إلى قابس فيمن معه من جموع العرب، فبايعه حاكمها عبد الملك بن مكي سنة 681، وانضم إليه الكعوب من بني سليم، وجاءته البيعة من جربة، والحامَّة، ونفزاوة. وزحف إلى توزر، وقفصة، فاستسلم أهلها له... ولما استفحل أمره جهز له أبو إسحاق جيشاً من تونس بقيادة ابنه أبي فارس. وقبل أن يلتقي أبو فارس بالدعي انقض عليه الجيش، فرجع إلى تونس، وتقدم الدعيّ إلى القيروان فاحتلها وبايعه أهلها. وبايعه أهل المهدية وصفاقس وسوسة، واضطرب أمر تونس، وغادرها أبو إسحاق إلى بجاية في شوال سنة 681؛ واستولى أبو عمارة على تونس، وتنازل أبو إسحاق عن الحكم لابنه أبي فارس... وجمع أبو فارس لملاقاة أبي عمارة فزحف إليه أبو عمارة من تونس في صفر سنة 682، والتقى الجمعان ثالث ربيع الأول من هذه السنة، وأسفرت الحرب عن قتل أبي فارس وانتهب معسكره، وقتل إخوته وبعث برؤوسهم إلى تونس.

وساءت سيرة الدعيّ وكثر ظلمه وجوره، وقد بنى أمره على التجبر والقتل. وكان ممن نجا من معسكر أبي فارس الأمير عمر بن أبي زكريا، فتسامع به الناس والتفوا حوله، وثاروا على الدعيّ أبي عمارة سنة 683 وتخلوا عنه، ودخل الأمير عمر تونس.

عمر بن أبي زكريا

كنيته أبو حفص. دخل تونس سنة 683 على أثر انهيار حكم الدعي وتخلِّي الناس عنه. وبويع له بالإمارة... واختفى الدعي خوفاً من القتل. وعثر عليه بعد ليال من دخول أبي حفص تونس في دار بعض السوقة، فهدمت الدار وأخذ إلى الأمير عمر، فأهين أمام الناس، وعذب في غير رحمة، ثم قتل في جمادى الأولى سنة 683، وطيف بشلوه في شوارع المدينة تشهيراً به، ثم قطع رأسه وعلق أمام الناس، وذهب غير مأسوف عليه، وأرسل محمد بن عيسى الهنتاتي بطاعته من طرابلس إلى الأمير عمر،

ودخلت طرابلس في حكمه. . . وتوفي الأمير عمر آخر ذي الحجة سنة 694 وعمره اثنتان وخمسون سنة ومدة ولايته إحدى عشرة سنة وثمانية أشهر.

يوسف بن طاهر اليربوعي

وفي سنة 684 ولي طرابلس يوسف بن طاهر اليربوعي عقب وفاة محمد بن عيسى الهنتاتي واستبد بطرابلس عن الحفصيين. . . واضطرب أمر إفريقية وكثرت فيها الثورات.

محمد بن الواثق(1)

لقبه أبو عصيدة، وهو ابن جارية. ولما قتل والده الواثق كانت أمه حاملاً به، ففرت إلى بيت أبي محمد المرجاني - وكان رجلاً صالحاً - ولما ولدته سماه محمداً، وعق عليه، وأطعم الفقراء عصيدة القمح، وبذلك قيل له أبو عصيدة. بويع بالإمارة في 24 من ذي الحجة سنة 694 ولقب المستنصر بالله. . . وتوفي يوم 10 من ربيع الآخر سنة 709، وكانت ولايته 14 سنة، وثلاثة أشهر، و17 يوماً.

نقل صاحب نزهة الأنظار ما ملخصه:

«الوزير جعفر المنصوري: وزير الأمير أبي حفص عمر أمير طرابلس. أخذ الوزير أموال الأمير وهرب إلى صفاقس، واحتمى بزاوية سيدي علي أبي الحسن بصفاقس فأرسل الأمير في طلبه نحو ثلاثين فارساً، فعثروا عليه بالزاوية، وأبوا إلا أخذه ولو بالقوة، وحاول الشيخ إقناعهم بتركه فأبوا. وأرادوا اقتحام حرم الزاوية للقبض عليه فغضب الشيخ ودعا عليهم، فأصيبوا بشيء أخافهم، فرجعوا هاربين إلى طرابلس».

وذكر أن ما نقله منقول عن ثبت مدون في أوراق بخط محمد بن محمد الرقيق بتاريخ أواسط صفر سنة 705.

---

(1) تقدم أن الواثق لقب ليحيى بن محمد بن يحيى، وقتل في صفر سنة 679.

ولم نعثر في أمراء طرابلس عمن اسمه أبو حفص عمر ويوجد في أمراء تونس عمر بن أبي زكريا، وكنيته أبو حفص. وفي أيامه كان الوالي على طرابلس محمد بن عيسى الهنتاتي.

زكريا بن أحمد اللحياني(1)

كنيته أبو يحيى. قدم طرابلس أيام أبي عصيدة فأقام بها من منتصف سنة 707 إلى أواخر سنة 708. ومر عليه ركب الحاج فسافر معه، وسيأتي خبر رجوعه.

أبو بكر الشهيد

هو أبو بكر بن أبي الخطاب عبد الرحمن بن أبي بكر. ولقبه الشهيد بويع بالإمارة بعد وفاة أبي عصيدة، وقتل في 27 من ربيع الآخر سنة 709 ودامت ولايته 17 يوماً.

خالد بن أبي زكريا

كنيته أبو البقاء. بويع بالإمارة يوم قتل أبي بكر الشهيد، وكان ضعيف الرأي لا حزم عنده. ثار عليه أخوه أبو بكر.

زكريا بن أحمد اللحياني

تقدم أن كنيته أبو يحيى، وأنه سافر من طرابلس إلى الحج أواخر سنة 708 وقد عاد من الحج في أوائل سنة 709. وكانت عودته أيام خالد بن أبي زكريا. ولما وصل طرابلس، وجد إفريقية مضطربة لضعف أبي البقاء عن ضبطها وإدارة أمورها فدعا لنفسه في طرابلس. وانضم إليه الكعوب: أولاد

(1) كان جدهم محمد أخو الأمير أبي زكريا ذا لحية كبيرة فلقب اللحياني، وتوارث عنه هذا اللقب أبناؤه وأحفاده وهو الذي كان بصحبته الأستاذ التجاني صاحب الرحلة.

أبي الليل من بني سليم وبايعوه بالإمارة... وكان أبو بكر أخو أبي البقاء ثائراً عليه، فكاتب اللحياني بطرابلس، وأرسل إليه بعض الهدايا فوعده بالمناصرة على أخيه. وأرسل اللحياني أولاد أبي الليل مع أبي عبد الله محمد المزدوري[1] إلى تونس، لطرد خالد بن أبي زكريا منها فدخلوها غرة جمادى الأولى سنة 711، ولم يقدر خالد عن الدفاع عن نفسه فأعلن خلع نفسه وقتل في جمادى الآخرة سنة 711، وكانت ولايته سنتين و13 يوماً وحضر اللحياني إلى تونس، وأخذ له المزدوري البيعة العامة بالإمارة في اليوم الثاني من رجب سنة 711.

أبو بكر بن أبي زكريا

هو أبو بكر، بن يحيى، بن إبراهيم، بن أبي زكريا الأول، أمير قسنطينة وكنيته أبو يحيى، ولقبه المتوكل على الله... ولد بقسنطينة في شعبان سنة 692 وهو أخو خالد أبي البقاء المتقدم ذكره، وكان ثائراً عليه. وتقدم أنه كاتب اللحياني ووعده اللحياني بنصرته على أخيه خالد. ولما احتل اللحياني تونس اعتبرها أبو بكر عدم وفاء من اللحياني فثار عليه.

وقد رأى اللحياني من نفسه العجز عن القيام بالحرب وإدارة الحكم لكبر سنه فاستعان في أموره ببعض رؤساء العرب، فلم يزدد أمره إلا اضطراباً، فرأى من الحكمة الرجوع إلى طرابلس، فجمع من تونس أموالاً كثيرة، قالوا إنها تربي على عشرين قنطاراً، وجوالين من حصى الدر والياقوت. وأناب عنه في تونس محمد بن أبي عمران، ورجع إلى طرابلس

(1) كان المزدوري رئيس حكومة اللحياني. وقد اضطر في بعض ظروف حياته إلى الخروج من تونس وسكن قرية وذرف. وهي غربي قابس بنحو مرحلة، وبها عيون ماء وقصر قديم، ولمناسبة وجوده في هذه القرية قال:

هـــــذي عـــــيـــــون وذرف   دع الـــــعـــــيـــــون تـــــذرف
بـــدلـــت مـــن أرضـــي بـــهـــا   وا أســـــفـــــي وا أســـــفـــــي

سنة 717 وبنى فيها قصراً عظيماً سماه «الطارمة» وهو يقع تحت السور القبلي مما يلي البحر[1]، وقد بناه بالجليز[2] والرخام وكان معه محمد بن يعقوب، وهجرس بن مرغم شيخ الجواري، وانضم إليه آل سالم، وآل سليمان من عرب ذباب، وكثرت جموعه من العرب. وكانت هناك فتن في الضواحي فتغلب عليها. واستقر في طرابلس. ومدة حكمه بتونس ستة أعوام وثلاثة أشهر ونصف. . . واستمر أبو بكر أمير قسنطينة في ثورته على الحكومة القائمة في تونس. وكان شجاعاً. ووقعت حروب بينه وبين بني هلال وبني سليم فتغلب عليهم.

محمد بن زكريا اللحياني

كنيته أبو ضربة. وكان الموحدون من أنصاره. بويع له بالإمارة من الموحدين والعرب بعد فرار والده إلى طرابلس في منتصف شعبان سنة 717 ولقب المنتصر. وفي سنة 718 ثار عليه أبو بكر أمير قسنطينة كما ثار على والده من قبل فاستنجد بوالده في طرابلس، فأرسل إليه جيشاً بقيادة وزيره زكريا بن يعقوب وأموالاً كثيرة. ففرق الأموال في العرب استجلاباً لنصرتهم، فلم يغن عنه شيئاً جيش والده وأمواله. وفشل أبو ضربة في مقاومة أبي بكر، ففرّ إلى طرابلس مستنجداً بوالده مرة ثانية، فأمده والده بالمال والرجال وجمع جيشاً كبيراً من بني سليم وبني هلال، والتقى بالأمير أبي بكر في فج النعام[3] فانهزم أبو ضربة وجيشه والتجأ إلى المهدية، فأدرك فيها وقتل في ربيع الآخر سنة 718 ودخل أبو بكرة تونس في الثامن من هذا الشهر. ودامت إمارة أبي ضربة في تونس تسعة أشهر ونصفاً.

(1) ينسب صاحب المنهل العذب هذا القصر إلى عبد الواحد اللحياني. ويقول إنه لما مات والده أبو يحيى في مصر سنة 732 رجع إلى المغرب يحاول أسباب الملك. وقدم طرابلس فأوطن بها وبني بها مقعداً إلى آخره. وستأتي بعض أخباره.

(2) هو البلاط المزخرف من القيشاني.

(3) ويقال له أيضاً فج القيروان.

وبلغت أخبار هزيمة أبي ضربة وقتله إلى والده في طرابلس، فأجَّر أسطولاً وشحن فيه أمواله وأهله، وهرب إلى مصر سنة 718 خوفاً أن ينزل به ما نزل بابنه، ونزل ضيفاً على محمد بن قلاوون سلطان مصر إذ ذاك فأكرم نزله، وبقي بمصر إلى أن توفي سنة 728.

محمد بن أبي عمران

هو من نسل أبي عمران موسى بن إبراهيم بن الشيخ أبي حفص، استخلفه اللحياني على تونس لما خرج منها إلى طرابلس. ولما سافر اللحياني من طرابلس إلى الإسكندرية أناب عنه محمد بن أبي عمران في طرابلس... ويظهر أن ابن أبي عمران التحق بطرابلس لما بايع العرب والموحدون أبا ضربة في تونس، أو لما تغلب الأمير أبو بكر على أبي ضربة، وبقي ابن أبي عمران في طرابلس نائباً عن اللحياني مستقلاً بها عن أمير تونس أبي بكر بن أبي زكريا الذي أخرج أبا ضربة من تونس وقتله.

واجتمع رؤساء العرب الضاربين حول طرابلس، وفي مقدمتهم حمزة ابن أبي الليل، وأغروه بالهجوم على تونس. وقد استجاب لدعوتهم، وجمع منهم جيشاً وأغار به على تونس، فاستولى عليها سنة 721، وأخرج منها أبا بكر بن أبي زكريا، وبقي بها إلى أوائل سنة 723. وفي هذه المدة كان أبو بكر يعد نفسه لاستردادها منه. وفي صفر سنة 723 تغلب أبو بكر على ابن أبي عمران وأخرجه من تونس واستولى عليها، فاضطر ابن أبي عمران إلى الرجوع إلى طرابلس، غير أنه لم يجد من الأهالي الإقبال الذي كان يجده منهم قبل هجومه على تونس وبلغ من تبرمهم به أن ثاروا عليه سنة 724، وأخرجوه من المدينة، فلحق بالعرب خارجها، وأغار بهم على تونس مراراً، وفي كل مرة يتركونه وحده، وقد يئس من انتصاره بهم، فلحق بتلمسان، وكان أبو تاشفين حاكماً عليها فبقي ضيفاً عنده.

بنو ثابت

هم عرب وشاحيون من بني سليم من الأسر الطرابلسية التي تسكن المدينة، ولهم مكانة بين الطرابلسيين.

وقد استقلوا بحكم طرابلس نحو 79 سنة. وكان لهم فيها أعمال يجدها القارىء فيما سنقصه من أخبارهم.

وأول حاكم منهم على طرابلس هو ثابت بن محمد بن ثابت تولاها سنة 724 وآخر حاكم منهم عليها يحيى بن أبي بكر بن ثابت عزل عن حكمها سنة 803.

ثابت بن محمد بن ثابت

لما أخرج الطرابلسيون محمد بن أبي عمران ولّوا عليهم ثابت بن محمد بن ثابت بن عمران سنة 724 واستمر والياً إلى أن توفي سنة 730.

الوشاحيون

ويقول ابن خلدون: «وفي أوائل المائة الثامنة كثرت مشاغبة المحاميد والجواري للدولة الحفصية بتونس، وما زال هذا شأنهم حتى تقلص ظلها عن قابس وطرابلس، فاستبدوا برياسة الضواحي، وتولى بنو مكي رياسة قابس، وبنو ثابت رياسة طرابلس، وبهذا انقسمت رياسة أولاد وشاح إلى قسمين، فتولى الجواري طرابلس وضواحيها، وزنزور، وغريان. وتولى المحاميد بلاد قابس، وبلاد نفوسة». اهـ.

ويلاحظ أنه منذ ظهور زكريا بن أحمد اللحياني قلت الأخبار عن طرابلس مما يدل على أنها بعدت عن تونس، لأنه كلما كانت طرابلس تابعة لتونس كثر ذكر المؤرخين لأحوالها وتطورات الأمور فيها.

وفي سنة 729 قدم وفد بني سليم ـ أعداء الحفصيين ـ على أبي تاشفين بتلمسان يستعْدونه على الحفصيين، فأرسل معهم محمد ابن أبي عمران

لمحاربة الحفصيين بتونس. فجمع ابن أبي عمران جموعاً كثيرة من العرب، وأغار على الحفصيين بتونس في أواخر سنة 729، وضيق عليها الحصار. وفي صفر سنة 730 استولى عليها، وأفلت الأمير أبو بكر الحفصي جريحاً وقتل أكثر أتباعه، ثم طُرد منها ابن أبي عمران في رجب من هذه السنة.

وتوفي الأمير أبو بكر يوم الأربعاء الثاني من رجب سنة 747، وعمره 55 سنة إلا شهراً. ومدة ولايته من حين ولي في المرة الأولى 29 سنة، وعشرة أشهر، و25 يوماً.

محمد بن ثابت

ولي طرابلس بعد وفاة أبيه ثابت سنة 730. وغزا جربة في أسطول عظيم وحاصرها، ولقي مشقة في فتحها. وما زال يشدد عليها الحصار حتى استولى عليها وأصبحت تابعة لطرابلس.

ولما تولى عمر بن أبي بكر على تونس سنة 747 أرسل إليها جيشاً بقيادة أخيه الفضل، وكان البحر الذي يفصلها عن البر قليل العمق، فخاضه الجيش على أرجلهم حتى وصلوا سور البلد وحاصروها، فتخلى عنها محمد ابن ثابت ورجع إلى طرابلس.

عمر بن أبي بكر

كنيته أبو حفص. بويع له يوم وفاة أبيه أبي بكر.

و كان أبو الحسن عثمان المريني أمير تلمسان يتوق دائما إلى الاستيلاء على إفريقية. وفي أيام الأمير عمر أراد أن يحقق هذه الرغبة، فرحل من تلمسان في صفر سنة 748. وجمع عليه رؤساء العرب من الكعوب وغيرهم، وأخذ بيعتهم له، فقويت بهم شوكته، و أرسل إليه محمد بن ثابت أمير طرابلس بيعته، فعظم أمره، و قصده إلى تونس في هذا الجيش الجرار.

ولما سمع به أميرها عمر ابن أبي بكر وأيقن أنه لا قبل له به فرّ هارباً، فسمع به عثمان المريني فأرسل في إثره من قتله. ودخل تونس في جمادى الآخرة سنة 748. وأقر عثمان المريني محمد بن ثابت على طرابلس، وبقي بها إلى أن توفي سنة 750. وتوفي المريني في 23 من ربيع الآخر سنة 752 وبقي في إفريقية سنتين ونصفاً.

عبد الواحد اللحياني

هو ابن زكريا بن أحمد اللحياني، وهو أخو أبي ضربة... ولما مات والده بمصر سنة 728 رجع إلى المغرب ليسعى لاسترداد نفوذهم، ووصل إلى إفريقية وانضم إليه كثير من العرب، وعبد الملك بن مكي حاكم قابس، وهاجم تونس فرد خائباً، ولحق بأبي تاشفين في تلمسان. فأرسله إلى طرابلس. ولكن البلاد قد أُصيبت بطاعون جارف[1] في هذه السنة فمات به عبد الواحد قبل أن يصل إلى طرابلس.

ثابت بن محمد بن ثابت (الثاني)

تقدم أن محمد بن ثابت توفي سنة 750. وبعد وفاته ولي طرابلس ابنه ثابت من قبل إبراهيم بن أبي بكر الحفصي[2]، ولكن ثابتاً ما لبث أن استبد بها عن الحفصيين، وقطع صلته بهم.

(1) قال في النجوم الزاهرة جـ7 ص 192: «في سنة 749 حصل وباء في أوربا والشرق، ووقع بأرض برقة إلى الإسكندرية، وكثر الموت حتى إنه صلي في الجامع على سبعمائة جنازة دفعة واحدة. وقدم الإسكندرية مركب فيه إفرنج فأخبروا أنهم رأوا بجزيرة طرابلس الغرب مركباً عليه طير تحوم في غاية الكثرة. فقصدوه فإذا جميع من فيها ميت والطير تأكلهم وقد مات من الطير أيضاً شيء كثير» اهـ.

(2) تولى بعد وفاة أخيه الفضل سنة 751. وتوفي في رجب سنة 770.

احتلال الجنويين طرابلس

«جنوة» من البلاد الإيطالية. ولقرب الساحل الإيطالي من طرابلس، كان الطليان كثيري التردد على طرابلس للتجارة، وهي أكبر سوق لتجارتهم، ولهذا كانوا أكثر الناس علماً بأحوالها واطلاعاً على عورتها، وكانوا دائمي التربص بها. وكلما آنسوا منها ضعفاً غزوها. وتاريخهم في هذا قديم، وحوادثهم متكررة منذ الفتح الإسلامي إلى يومنا هذا.

وفي أيام محمد بن ثابت أخذت الأُمور تستقر بها، ونشطت التجارة، فأعجبتهم حالها، فبيتوا غزوها وأعدوا لها من الجيش والأسطول ما رأوا فيه الكفاية.

ويقول عنه ابن حجر العسقلاني في «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة»: إنه كان شاباً غزّاءً. فاحتال عليه الفرنج، فقدمت منهم طائفة: في عدة مراكب بصفتهم تجاراً، وهم مقاتلة، فراسلوا من في المدينة من الإفرنج وأطلعوهم على سرهم، وأرسلوا من عندهم ترجماناً شيخاً مجرباً، فرأى في البلد غلاء لقلة الحب عندهم، وأشار على ثابت أن يجمع الأسلحة التي مع الجند، ويجعلها عنده في القلعة ليطمئن إليه تجار الفرنج، وينزلوا من مراكبهم ويبيعوا ما معهم من البضائع. وذكر له أن الخمس الذي يخصه من البضائع يجتمع منه مال كثير، وينتفع الناس بما معهم من المأكولات، ففعل، فلما تحقق الفرنج ذلك أنزلوا من مراكبهم بعض البضائع التي معهم، ففرح أهل البلد بها وتسارعوا إلى شرائها منهم، فلما اطمأن الفرنج إليهم تسوروا عليهم السور ليلاً، وهجموا على البلد دفعة واحدة سَحراً وأهلها غافلون فقتلوا منهم كيف شاءوا، وحاصروا القلعة، فهرب ثابت ـ تدلى بعمامته من القصر ـ واستولى الفرنج على البلد وكان ذلك في سنة 755 حتى اشتراها منهم أبو العباس أحمد بن علي صاحب قابس وجربة بخمسين ألف مثقال من الذهب.

وفي العاشر من ربيع الأول سنة 755 صبَّحوها على غرة، وتسلقوا

السور، وما شعر الأهالي إلا والعدو في الشوارع وعلى أبواب البيوت، وحيل بين الأهالي وبين أسباب الدفاع، وغلبوا على أمرهم، فملكوا البلاد واستولوا على ما فيها من متاع وأموال، وأسروا الرجال والنساء، ونقلوا كل ما استولوا عليه إلى جنوة حتى الأسرى. ولم يتمكن محمد بن ثابت من الدفاع عنها ففر إلى قبيلة الجواري خارج السور ليحتمي بها.

ويقول ابن حجر العسقلاني في «الدرر الكامنة»: إنه تدلى من القصر بعمامته... وديارهم معروفة الآن بجهة النواحي الأربعة جنوبي المدينة... والجواري من ذباب إحدى بطون بني سليم، فلم يحموه، بل قتلوه لدم يطالبونه به. وفر أخوه أبو بكر بن محمد إلى مصر.

بنو مكي

كانوا حكام قابس. وهم من البربر، ونسبهم في لواتة. وجدهم مكّي ابن فرح، بن زيادة الله بن أبي الحسن، بن محمد، بن زيادة الله، بن الحسين اللواتي.

أحمد بن مكي

لما احتل الجنويون طرابلس سنة 775 كان أحمد بن مكي حاكم قابس، فتوسط لديهم في فدائها، فشرطوا عليه خمسين ألف مثقال من الذهب العين، فقبل؛ وأرسل إلى السلطان أبي عنان في تونس يستنهض همته في دفع المبلغ، فلم يسرع في الإجابة، وألحَّ الجنويون على ابن مكي في الطلب، فأخرج ما عنده، واستوهب أهل قابس والجريد والحامَّة فوهبوه ما بقي، ودفع المبلغ للجنويين وسلموا له طرابلس بعد أن مكثوا فيها حوالي خمسة أشهر. وقد أرسل إليه أبو عنان المال ليرده على أهله فاعتذر عن أخذه، وإنها لرجولة منه تمثل الشهامة والنخوة، وأنبل عاطفة إنسانية.

وكانت قابس تابعة لتونس فعقد له أبو عنان على طرابلس فتولاها

وجعلها دار إمارته... وبقي أميراً عليها إلى أن توفي سنة 766... وتوفي أبو عنان في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة 759، وعمره ثلاثون سنة ومدة حكمه عشر سنوات.

عبد الرحمن بن أحمد بن مكي

ولي طرابلس بعد وفاة أبيه أحمد بن مكي. وكان عبد الرحمن سيىء التدبير عاجز الرأي مستبدّاً. كرهه الناس وسئموا حكمه.

أبو بكر بن محمد بن ثابت

تقدم أن محمد بن ثابت فر إلى الجواري فقتلوه، وفر أخوه أبو بكر إلى مصر. وفي سنة 772 رجع إلى طرابلس بطريق البحر ومعه أسطول فأغار به على طرابلس، وحاصرها به من جهة البحر، وألّبهم على عبد الرحمن بن أحمد وأصبحت المدينة محاصرة من البحر والبر، وكان عبد الرحمن مكروهاً من الأهالي لسوء سلوكه وتجبره على الأهالي، وقد وجدوا فرصة للخلاص منه، فثاروا عليه، وفتحوا المدينة لأبي بكر فدخلها، وقبضوا على عبد الرحمن وسلموه لأحد رؤساء ذباب فأجاره، وأوصله إلى قابس، وكان بها عمه عبد الملك بن مكي. وملك أبو بكر طرابلس. وأرسل هدايا كثيرة إلى أمير تونس أحمد بن محمد[1] وكان فيها كثير من الرقيق وأنواع المتاع وقدم له الطاعة فقبلها وأقره على ولاية طرابلس، ولم يزل أبو بكر والياً عليها إلى أن توفي سنة 792.

علي بن عمران بن محمد بن ثابت

ولي طرابلس بعد وفاة عمه أبي بكر بن محمد سنة 792.

---

(1) تولى إمارة تونس في 18 من ربيع الآخر سنة 772 وتوفي يوم الثالث من شعبان سنة 796 ومدة إمارته 24 سنة وثلاثة أشهر ونصف.

ولم يستقر بنو ثابت على حال، فتارة يتبعون تونس، وتارة يستقلون بطرابلس. وفي أيام علي هذا اضطربت أحوالهم، وتنازعوا ففشلوا وذهبت ريحهم فالتجأ رئيسهم أبو خلف إلى أمير تونس أحمد بن محمد الحفصي يستنجد به وطلب منه المعونة على غزو طرابلس، وإخراج علي بن عمران منها، فاستجاب لطلبه وأرسل معه ابنه عمر سنة 794 في جيش، وهاجموها، وقد دافع عنها واليها علي بن عمران حتى أيسوا من اقتحامها عليه فلجأوا إلى طريق الحصار وأقاموا عليها سنة يمنعون عنها الأقوات ويشنون عليها الغارات وقد سئم عمر بن أحمد طول البقاء، وسئم المحاصرون طول الحصار. وأخيراً اتفقوا مع عمر بن أحمد على أن يدفعوا له غرامة ويرتحل عنهم، فدفعوا له ما اتفقوا عليه ورحل سنة 795 وبقي علي بن عمران والياً على طرابلس.

ولم يسلم علي بن عمران من المنافسة على ولاية طرابلس. فقد كان ابنا عمه يحيى وعبد الواحد ينافسانه الولاية، ويسعيان للاستيلاء على طرابلس. ولما تولى عبد العزيز بن أبي العباس[1] استنجد به يحيى وعبد الواحد على ابن عمهما علي بن عمران. فأجاب طلبهما، وجهز جيشاً وسار معهما سنة 800 لطرد علي بن عمران من طرابلس وتسليمها لهما. وكان له من أراد، فامتلك طرابلس وقبض على واليها علي بن عمران.

يحيى بن أبي بكر بن ثابت

ولاه عبد العزيز على طرابلس بعد أن احتلها، وعقد لأخيه عبد الواحد على الجند، وأمكنهما من السلطة على طرابلس ورجع إلى تونس. وقد اتضح لعبد العزيز أن يحيى وعبد الواحد لا يمكنهما القيام بحكم طرابلس، ويظهر أنه أحس منهما ما يهدد نفوذه على طرابلس، ويمكنهما من الاستقلال

---

(1) وكنيته أبو فارس، واشتهر بعزوز. بويع له بالإمارة سنة 796 حارب المفسدين من شيوخ العرب وأجبرهم على الطاعة وثار عليه عمال الجريد فطاردهم إلى درج غدامس. وامتد ملكه من طرابلس إلى أقصى المغرب وتوفي يوم عيد الأضحى سنة 837 ودام حكمه إحدى وأربعين سنة وأربعة أشهر وسبعة أيام.

بها. ويقال إنه علل ما اتضح له بخوفه من هجوم الفرنجة عليها، فسار إليها سنة 803 وعزل يحيى وعبد الواحد، وولى عليها من قبله أحد رجاله الذين يثق فيهم[1]، وأصبحت طرابلس تابعة له. وانقرض حكم بني ثابت من طرابلس، وإمارتهم عليها.

محمد بن عبد العزيز

لقبه المنصور. وفي أوائل سنة 803 حاصر عبد العزيز طرابلس. واضطرته شدة المقاومة إلى أن يطيل حصارها. وفي اليوم السادس من رجب من السنة المذكورة تغلب عليها، ودخلها فاتحاً وعين ابنه المنصور والياً عليها. وتوفي المنصور في طرابلس سنة 833. ومدة حكمه عشر سنوات، ونقل جثمانه إلى تونس، ودفن إلى جوار سيدي محمد بن خلف.

عبد الواحد بن حفص

كنيته أبو محمد. عقد له أبو فارس على طرابلس بعد وفاة ابنه محمد المنصور سنة 833. وكان أبو محمد هذا حازماً في أموره ذا رأي صائب قوي الإرادة.

ولما عرضت عليه الإمارة اشترط لقبولها شروطاً؛ أولاً: أن يبقى والياً على البلاد، ولا يعزل حتى يعيد البلاد إلى أعز ما كانت عليه من الغنى والراحة. ثانياً: أن يستقل بالإدارة، ولا يرد أمره في شيء. ثالثاً: أن يتخذ لنفسه جنداً حسبما يريد. وقد قبلت كل شروطه على رضى من الأمير عبد العزيز.

ومنذ أن أسندت إليه أمور طرابلس أخذ يعمل لاستتباب الأمن، واطمئنان الناس على أموالهم وأرواحهم. وضرب على أيدي الأشقياء من

(1) قال في المنهل العذب: اسمه عبد العزيز، ولم يزل والياً على طرابلس إلى أن توفي سنة 823.

الأعراب العابثين بالأمن. وسلك معهم طريق الترغيب تارة، والترهيب أخرى حتى قضى عليهم وأقام العدل بين الناس فيما ولاه الله منهم. فملك ناصية الأمور، ونعمت البلاد في أيامه بالراحة. واتسعت تجارتها، وكثرت الأموال. وبقي والياً عليها إلى أن توفي سنة 858[1]. ومدة حكمه 25 سنة كانت من أهنأ السنين على البلاد راحة ورغد عيش.

وقد أقره على ولاية طرابلس محمد المنتصر[2]، بن محمد المنصور، وعثمان بن محمد المنصور.

أبو بكر بن عثمان

ولاه والده عثمان[3] بن محمد على طرابلس سنة 858 عقب وفاة عبد الواحد ولم يحدث في زمنه ما يكدر صفو البلاد، لأن عبد الواحد مهّد له السبيل، وأقام فيها من العدل ما حفظها من الفتن أيام أبي بكر.

وفي أيامه سنة 862 جاء والده عثمان إلى طرابلس ليتفقد أحوالها ورجع إلى تونس.

يحيى بن محمد المسعود

هو حفيد عثمان. وقد توفي والده محمد المسعود في حياة جده عثمان سنة 875 فأوصى له جده بالإمارة بعد وفاته، وأسندت إليه في أواخر رمضان

(1) يقول الأستاذ بيرم: تولى بعده ابنه، ولم نعثر على اسم هذا الابن ولم يذكره هو.

(2) بويع له بالإمارة بعد وفاة جدّه عزوز يوم عاشوراء سنة 838 وتوفي يوم 12 من صفر سنة 839.

(3) بويع لعثمان بعد وفاة أخيه محمد المنتصر يوم 13 من صفر سنة 839. وفي أيامه سنة 841 توفي أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن حلولو الزليطني. ولي قضاء طرابلس ورجع إلى تونس. وهو شارح جمع الجوامع. ومختصر خليل وتنقيح القرافي. وإشارات الباجي. وعقيدة الرسالة. وتوفي عثمان سنة 893.

سنة 893[1] وكان عمه أبو بكر والياً على طرابلس فأقره على ولايتها. ولكن أبا بكر لم تسترح نفسه لإسناد الإمارة لابن أخيه، ويرى أنه أولى بها منه، وأن في تخطي والده له وإسنادها لابن أخيه غمطاً لحقه وحطًّا من كرامته. فشق على ابن أخيه عصا الطاعة، وحاول أن يستقل عليه بطرابلس، وطلب من أهلها أن يؤيدوه، ويبايعوه بولايتها مستقلاً بها عن تونس. ولكن أهل طرابلس لم يوافقوه.

ثورة بني غراب

ثار بنو غراب على أبي بكر، وناصره بعض السكان، ووقعت حرب بين الفريقين انتهت بالقبض على أبي بكر وإرساله لابن أخيه في تونس فسجنه أياماً ثم قتله. وبقيت طرابلس تعاني شر الانقسام والتحزب. وقد قام من بينهم رجل يقال له منصور فسعى بين الفريقين بالخير فاستمعوا لنصائحه، فهدأت الفتنة. وقد جازاه الطرابلسيون خير جزاء فاختاروه حاكماً للمدينة عليهم بدلاً من الحاكم الحفصي أبي بكر. وسمع سكان الدواخل ببيعة الشيخ منصور حاكماً على المدينة، فجاءته البيعة من غريان، وترهونة، ومسلاّتة وبني وليد[2].

وما لبث الشيخ منصور أن تغيرت حاله، وأصبح جباراً ظالماً فقتله أحد أقاربه حوالي سنة 876هـ. وخلفه في الحكم رجل يقال له يوسف، ومات بالطاعون سنة 885هـ. وخلفه في الحكم مامى وبقي في الحكم نحو اثنتي عشرة سنة، وتوفي سنة 898هـ. . واتفقت كلمة الطرابلسيين على تعيين الشيخ عبد الله بن شرف[3] فولوه حاكماً عليهم، وكان رجلاً يميل إلى العبادة والزهد في الدنيا حتى لقب بالمرابط. وقد تغلبت عليه هذه الناحية الروحية،

(1) توفي يحيى بالطاعون في 9 من شعبان سنة 899، ومدة إمارته ست سنين إلا أربعين يوماً.
(2) تعيين هذه الأسماء منقول عن رسالة الأستاذ عمر الباروني.
(3) رسالة الأستاذ عمر الباروني.

فلم يكن عنده اهتمام بتحصين البلاد، وتقوية أبراجها وأسوارها، ولا بإعداد الجند الكافي للدفاع عنها، فأصبحت عرضة لطمع الأعداء.

ولم تكن ثورة بني غراب ذات أثر كبير على ثروة البلاد. وقد دام حكم الشيخ عبد الله بن شرف نحو 18 سنة استطاع فيها السكان أن يضيفوا إلى ثروتهم ما فقد منها أيام ثورة بني غراب.

ويمكننا القول بأن طرابلس ـ منذ أن تولاها عبد الواحد بن حفص سنة 833 ـ إلى أن احتلها الإسبان سنة 916 ـ كانت في رخاء مستمر وأمن شامل، وأمكنها في هذه المدة ـ وهي لا تقل عن 83 سنة ـ أن تجمع ثروة هائلة كانت مضرب المثل في الشمال الإفريقي، وذهب أهلها في متع الحياة مذاهب شتى أدت بهم إلى أن أفسد الترف عزائمهم، وانصرفوا إلى ملذاتهم عن كل شيء يذكي فيهم روح الشهامة، ويحملهم على اتخاذ الأسباب لتحصين بلادهم، والدفاع عن حريمهم، وعن هذه الثروة الهائلة التي شاع ذكرها في جميع البلاد الأوربية، والتي كانت سبباً في تكالب الفرنجة على استعبادهم.

احتلال الإسبان لطرابلس

بعد أن سقطت الأندلس في أيدي الأسبان ازدادوا حمية ورغبة في مطاردة العرب للتنكيل بهم والقضاء على الدين الإسلامي ومطاردة معتنقيه أينما وجدوا. وانضم إلى هذه الحركة أنصار البابوية في روما، وشاركت فيها كل الطوائف النصرانية، إلا أن الكاثوليك كانوا في المقدمة. وعلى جهودهم تقوم حركة مطاردة الإسلام ومعتنقيه. وكان أكبر ميدان لهذه الحركة هو الشمال الإفريقي بعد الأندلس لقربه من بلاد الأندلس وهي زعيمة هذه الحركة، ومن جنوب أوربا الذي يناصرها سكانه، وهو يعتبر مهد الكاثوليكية ومنبعها.

ولم يكن يجرؤ أحد من الأوربيين على مزاحمة الأسبان في زعامة هذه

الحركة، لأن بيئتهم تأثرت بحضارة العرب، ونفوسهم تشبعت بعلومهم وآدابهم، واقتبسوا عنهم خطط الحرب وخداعها، وكيف ينال النصر وتتقى الهزيمة، فكانوا في مقدمة الأوربيين الذين استضاءوا بنور الحضارة الأندلسية، وأيضاً فهم الذين طردوا العرب من الأندلس، لهذا كان الأسبان أولى بزعامة الحركة التي تهدف إلى إبادة العرب والقضاء على الإسلام.

وابتدأت الحركة باحتلال الجزائر. ففي 22 من ذي القعدة سنة 814 احتل الكونت بدرو نافارّو وهران عاصمة الجزائر... وفي 5 من رمضان سنة 915 احتل بجاية.

وازداد تكالب الأسبان على احتلال الساحل الإفريقي تكالباً شجعهم عليه ضعف الدولة الحفصية، وما أحرزوه من نصر في احتلال وهران، وبجاية.

وكانت رغبة الانتقام من المسلمين، والعرب على الأخص تدفعهم دفعاً، وتبدو واضحة في أعمالهم الهمجية التي يرتكبونها في كل بلد تمكنوا من احتلاله وأوقعه سوء حظه تحت سيطرتهم... فما كانوا يوقرون شيخاً، ولا يرحمون ضعيفاً ولا يترفعون عن قتل الأطفال، وبقر بطون الحوامل، وهتك الحرمات، وأعمال السلب والنهب.

وفي أثناء ما كان الأسبان يحتلون الشمال الإفريقي كانت الدولة العثمانية ظهرت إلى الوجود، وتركَّزت في الآستانة، وكانت دولة مسلمة يهمها من أمر الإسلام ما يهم كل مسلم يحترم دينه، وكان لحوادث الأندلس وقع سيىء على نفس هذه الدولة الفتية، وامتد نفوذها إلى شرقي البحر المتوسط.

ولم يهمل الأسبان من حسابهم هذه الدولة الناشئة التي تدين بالإسلام الذي جردوا للقضاء عليه كلّ ما يملكون من نفس ونفيس. وقد أصبح لها أسطول، ونفوذ في البحر المتوسط. وأيقنوا أنهم إذا لم يتقوا هذا الخطر بما يحول بينهم وبينه، أو بما يحد من نشاطه أدركهم لا محالة، وقضى على مشروعاتهم العدوانية ضد الإسلام.

وكانت طرابلس أقوى مركز يتخذ لمواجهة الخطر العثماني في البحر المتوسط لأنها أكبر مدينة في شرق الشمال الإفريقي، وأقوى نقطة للدفاع عنه من الهجوم عليه من الشرق، وأقرب نقطة لتموين ونجدة الجيوش التي تغزو الشرق. وقد كانت طرابلس في السنين الأربعين التي تقدمت احتلال الأسبان امتازت بنصيب وافر من الثروة ورفاهية العيش. فكان مركزها الجغرافي والطمع في الاستيلاء على ثروتها يدفعان إلى التعجيل باحتلالها. وفي السيطرة على ثروتها فائدة أخرى، وهي أنها لا ينتفع بها في إنشاء الجيوش والأساطيل وتقوية القلاع التي قد تحول بينهم وبين احتلالها وحينئذ يصبح مركز مالطة بل وكل الشمال الإفريقي في خطر.

ومن أقوى الأسباب التي هيأت للأسبان احتلال طرابلس هو ضعف الحامية فيها، وانصراف الناس إلى تنمية المال، وإلى متع الحياة عن الاهتمام بتقوية الجيش وتحصين القلاع.

ومن المناسبات التي انتهزها الأسبان للتعجيل باحتلال طرابلس أنه في سنة 916 ـ وهي سنة الاحتلال ـ وقع خلاف بين أحمد الحفصي وبين والده الناصر، فذهب إلى الأسبان يستنجد بهم على أبيه، واتفق أن جاء تجار من الأسبان كانوا في طرابلس، فأخذوا يغرون حكومتهم بطرابلس ويقللون من شأنها، ويصفون لها ما فيها من الثروة الهائلة، وما فيه أهلها من التنعم الذي أدى إلى انحلال رجولتهم، وتركهم كل ما يستعمل في الحرب حتى المُدي، وقالوا له: ما رأينا بلداً أكثر منها مالاً، وأقل سلاحاً، وأعجز عن مدافعة العدو، فكان هذا الوصف مشجعاً للأسبان على التعجيل باحتلالها.

وهذا وصف للحملة الأسبانية مختصر من رسالة: «الأسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس» للأستاذ عمر محمد الباروني.

وكان الأسبان قد استعدوا لغزو طرابلس، فجهزوا مائة وعشرين قطعة بحرية، وانضم إليها سفن أخرى من مالطة، وشحنت بخمسة عشر ألف جندي من الأسبان، وثلاثة آلاف من الإيطاليين والمالطيين. وفي 8 من ربيع الآخر سنة 916هـ. أقلع الأسطول من فافينيانا، ومر بجزيرة قوزو بمالطة

فتزود منها بالماء. وانضم إلى الجيش خبير مالطي اسمه جوليانو بيلا له معرفة بطرابلس. وقد أعدت هذه الحملة بإشراف نائب الملك في صقلية. وبإعانة الجيوش الصقلية والإيطالية.

وقد تسربت أخبار هذه الحملة إلى طرابلس قبل حركتها بنحو شهر، فأخذ الناس في الهجرة منها إلى غريان، وتاجورة، ومسلاتة، وأخذوا معهم كل ما كان مهمًّا من أموالهم، وما أمكنهم من أثقال متاعهم، ولم يبق بالمدينة إلا المحاربون، وشيخ المدينة وأهله، واسمه عبد الله بن شرف وبعض السكان الذين لم يقدروا على الفرار، وانحازوا إلى قصر الحكومة والجامع الكبير. وصعد المحاربون فوق الأسوار وعلى القلاع.

واقترب الأسطول الأسباني من المدينة، ورسا على مينائها ليلة الثامن عشر من ربيع الآخر سنة 916هـ. الخامس والعشرين من يوليو سنة 1510م. وهو اليوم الذي يوافق القديس جاك الرسول، وهو محترم عند الأسبان. وبات القائد العام الكونت بدرو نافارّو يرتب الجيش ويصدر إليه الأوامر... وكلف أربعة آلاف جندي منه بمهاجمة العرب خارج المدينة لقطع الاتصال بينهم وبين من بداخلها، وكلف باقي الجيش بمهاجمة داخل المدينة، ومن على الأسوار وداخل القلاع.

وأنزلت الجيوش في القوارب وكانت بقيادة «بدرو نافارّو». وفي الساعة التاسعة صباحاً ابتدأ الهجوم، وأطلقت السفن مدافعها على الأسوار وقصر الحكومة. ونزل الجيش المكلف بمنع العرب من الاتصال بالمدينة إلى البر بجهة سيدي الشعاب لمنع الاتصال بالمدينة.. واندفع الجيش الأسباني نحو المدينة تحميه مدافع الأسطول، فاحتل البرج القائم على باب العرب وبعض الأسوار. وتمكن الأسبان من فتح باب السور، واتصل الجيش الخارجي بالجيش الداخلي واستبسل الطرابلسيون في الدفاع. وجاء في رسالة القائد نافارّو أنه لم يخل موضع قدم في المدينة من قتيل[1]، ويقدر عدد القتلى

(1) رسالة الأستاذ عمر الباروني.

بخمسة آلاف، والأسرى بأكثر من ستة آلاف. وتغلب الأسبان على مقاومة العرب العنيفة. واحتل قصر الحكومة عنوة، وأسر فيه شيخ المدينة الشيخ عبد الله بن شرف هو وزوجه وأبناؤه. وقد حمي وطيس المعركة حينما تمكن حامل العلم الأسباني من نصبه على برج القصر.

وأبدى من التجأوا إلى الجامع الكبير مقاومة شديدة، فقتل منهم نحو ألفي طرابلسي بين رجال ونساء وأطفال... ويقول بعض من نقل عنهم السيد عمر الباروني: «إن القتلى من الأسبان كانوا ثلاثمائة رجل. وكان من بين الموتى كولونيل كبير في الجيش، وأميرال الأسطول، وشخصية أخرى كبيرة من النبلاء.

وقبل أن تغرب شمس يوم 18 من ربيع الآخر سنة 916هـ. سقطت مدينة طرابلس في يد الأسبان. سقطت مدينة طرابلس العربية المسلمة في يد أعداء الإنسانية الأسبان والطليان، أعداء الفضيلة والحق. سقطت بعد أن أريقت دماء الطرابلسيين في كل بقعة منها، وعلى كل منفذ وطريق، وفوق كل قلعة وبرج، وفي صحن الجامع وعند المحراب ـ دفاعاً عنها، وعن عفاف النساء وطهارة المحجبات، فحيثما توجهت تعثرت رجلاك في جثث أطفال لم يرث لصراخهم، وفي أجسام نساء مبقورات البطون مقطوعات الأثداء لم ترع حرمتهن، وفي أشلاء شيوخ لم تحترم شيخوختهم ولكثرة القتلى فقد ألقيت جثثهم في صهاريج الجوامع وفي البحر وأحرق بعضها بالنار. وأخذ شيخ المدينة عبد الله بن شرف هو وأولاده وحريمه أسرى إلى بلرمو، وبقوا هناك نحو عشر سنوات كل ذلك من أجل الصليب، وفي مرضاة الصليب».

هذا موجز ما جاء في رسالة الأستاذ الباروني عن حملة الأسبان على طرابلس ولا شك أن الحامل على التمثيل بالنساء والأطفال هو الانتقام من العرب، والتعصب ضد الإسلام للقضاء عليه في الشمال الإفريقي، وكل حرب اشتملت على مثل هذه الشناعات سماها الأوربيون الحرب المقدسة، وإن ما ارتكبه الطليان من فظائع في طرابلس لما احتلوها سنة 1329هـ.

1911م. لهو صورة معادة من هذا الانتقام الصليبي الذي يتقرب به الأوربيون إلى الصليب كلما تمكنوا من الاستيلاء على بلد عربي أو إسلامي، ويرونه من صفاتهم الإنسانية الكاملة التي يتباهون بالاتصاف بها ويتقربون بها زلفى إلى الصليب.

قصة عجيبة

اقترن هذا الاحتلال بقصة عجيبة، صيغت في قالب يبدو أنه مغرق في الخيال إلى أبعد حد، وقد أجمعت كل الكتب التي ألفت بعد هذا الاحتلال على ذكر هذه القصة وما اشتملت عليه من غرابة بدون أن ينتقدها أحد أو يعلق عليها مما يجعل النفس لا تستغرب أن يكون لها ظل من الحقيقة.

ذلك أن طرابلس توالت عليها الفتن في تاريخها القديم، فما تكاد تنتهي فيها ثورة حتى تقوم أخرى، ودامت على هذه الحال مئات السنين، وهي مسرح للملاحم السياسية والعسكرية التي كانت تثيرها الخلافات بين الحكام والأمراء وبعض النزعات المذهبية، وقد استمرت هذه الحال من القرن الثاني الهجري وما عدا فترات قليلة لا تعد شيئاً في مئات السنين، حتى أتت هذه الحروب المتواصلة على الرجال والثروة، وكان لها أسوأ الأثر على تأخر الثقافة العربية فيها، حتى قال بعض المؤرخين: إن طرابلس تعتمد في ثقافتها ـ خلال هذه المدة ـ على من يفد عليها من الحجاج وطلاب العلم مغرّبين ومشرقين، وعلى من يستصحبهم أمراء إفريقية معهم في طريقهم إلى الحج من أهل العلم والفضل. وكان السكان يعيشون في حياة مضطربة، توارثها الأبناء عن الآباء، وورثها الآباء عن الأجداد، لا أمن على الحياة، ولا أمل في ادخار رزق أو تنمية مال، وقد عانت المدينة أكبر قسط من الاضطراب. وفي سنة 833 تولى عليها عبد الواحد بن حفص من قبل أمير تونس عبد العزيز بن حفص المشهور بعزوز وقد اتصف هذان الرجلان بالحزم والشجاعة، والعدل وقوة الإرادة. وأطلقت الحرية لعبد الواحد في إصلاح البلاد كيفما شاء بدون معارض فبذل من حزمه وسديد رأيه ما يبذله المخلصون القادرون على الإصلاح. فاستتب الأمن في طرابلس، وشعر

الناس بالطمأنينة، فاندفعوا بكل قواهم إلى العمل في التجارة، والزراعة، والصناعة. ووجدوا من رعاية هذا الرجل المصلح ما أبدل خوفهم أمناً، وفقرهم غنى. وبقوا في حكم عبد الواحد 25 سنة ذاقوا فيها من ألوان السعادة ما لم ير أجدادهم قريباً منه في مئات السنين الماضية، وجاء بعد عبد الواحد أبو بكر بن عثمان فبقي معهم 35 سنة لم يحدث فيها ما يكدر الصفو بما مهد له عبد الواحد بعدله وقوة عزيمته مما كان خير عون له على الحكم الصالح.

وفي هذه المدة الطويلة أثرى الطرابلسيون إثراء لا مزيد عليه، وانغمسوا في الرفاهية وبُلهنية العيش، ولم يقفوا عند حد في إشباع رغباتهم من نعيم الحياة تعويضاً لما فاتهم في تلك السنين القاسية الطويلة.

وقد انتهى بهم الرَّفَهُ إلى تلك النتيجة التي تنتظر ذوي الرفاهة وهي انحلال العزائم، وميوعة الرجولة التي جرت سنة الله أن تكون دائماً سبباً في انهيار كل أمة مترفهة.

وبما أن طرابلس على صلة دائماً بشواطىء البحر المتوسط الشمالية فقد لفت إليهم ما تأثروا به من ميوعة الترف أنظار أوربا عامة، والإيطاليين والإسبانيين خاصة فجعلوا يفكرون في احتلال هذا البلد الذي أفسدت الرفاهية رجولة أهله، وحلت عزائمهم، فبيتوا الأمر، وتزعم الأسبان المؤامرة، وأشركوا معهم النابليين، والصقليين، والمالطيين واحتلوا مدينة طرابلس في المحرم سنة 916 كما ذكرناه آنفاً.

وإلى هنا لا نجد في الأمر غريباً من قوم جربوا بؤس الحياة وويلات الحرب أجيالاً، ثم لما بسط عليهم العدل جناحه جدوا في كسب الثروة، وانغمسوا في نعيم الحياة حتى وصلوا إلى نتيجة هذا الانغماس، وهي الانحلال ثم الاستعباد.

ولكن الغريب في الأمر هو ما ذكره الأستاذ بيرم الخامس[1] وغيره من المؤلفين وجعلوه سبباً في هذا الاحتلال.

لؤلؤة ودلاعة[2]

قال الأستاذ بيرم: «ولطول ما تقلبت على الطرابلسين الأحوال، وتعاقبت عليهم دول الاحتلال سئموا الحرب، وصار حمل السلاح عندهم ممقوتاً وأثروا إثراء عجيباً ومالوا إلى الدعة.

وقد حدث أن جاءت إلى طرابلس سفينتان أسبانيتان محملتان بالبضائع، فاشتراهما تاجر واحد، ودفع ثمنهما نقداً، فعجب أصحاب السفينتيْن لذلك ثم دعاهم آخر للضيافة، فأقام لهم مائدة فاخرة مما زاد إعجابهم. وقد دفع هذا التاجر غروره بالمال إلى أن أخذ لؤلؤة ثمينة ودقها دقًّاً ناعماً، وذرها على الطعام على مرآىً من الضيوف، وقال لهم: هذا مقام الفلفل، ثم أحضر (دلاعة) بطيخة خضراء، ولكنه لم يجد سكيناً يقطعها بها، فسألهم سكيناً فلم يجد عندهم، فسأل جيرانه فلم يجد، فذهب إلى السوق واشترى سكيناً. ولما سألوه عن عدم وجود السكين قال لهم: إن الأهالي كانوا ضجروا من حمل السلاح ليلاً ونهاراً أيام الظلم والعدوان. ولما استقر الأمن والعدل صار حمل السلاح بيننا أمراً معيباً، ومن حمله يعرض للإهانة. فتعجب الأسبان مما رأوا، وأخبروا دولتهم بذلك فطمعت في طرابلس، واحتلتها سنة 916. . .» هذا ما ذكره الأستاذ بيرم، وذكر قصة أحمد الحفصي التي ذكرناها آنفاً، والتي لم نطلع عليها لغيره.

---

(1) ذكره في كتابه: «صفوة الاعتبار». وذكره الأستاذ محمود مقديش الصفاقسي في كتابه «نزهة الأنظار» وهو من أهل القرن الثاني عشر هجرية وتوفي سنة 1228 وأما الأستاذ بيرم فقد ولد سنة 1255 وذكر هذه القصة ابن غلبون، وهو من أهل القرن الثاني عشر. ورجع من الأزهر إلى مصراتة سنة 1133هـ. وذكرت في المنهل العذب.

(2) الدلاعة كلمة بربرية اسم للبطيخة الخضراء وهي معروفة عند البربر في الشمال الإفريقي منذ القدم، وعرفها عنهم العرب منذ دخولهم إفريقية. وقد ذكر المؤرخون في سبب قتل إدريس بن عبد الله أنه سم في (دلاعة) سنة 175هـ.

فاللؤلؤة الثمينة التي دفع الغرور بصاحبها إلى أن يسحقها ويذرها على الطعام حبًّا في الظهور بمظهر الغنى... وعدم وجود السكين في بيوت هؤلاء الأغنياء: لا لسبب سوى كراهتهم للحرب. هذان الأمران هما محل الغرابة من كثير من الناس، والانتقاد من القراء للمؤلفين الذين يسوقون مثل هذه الغريبات ولا يعلقون عليها بكلمة.

ورأيي: أما عن الياقوتة، فإن الغرور قد يدفع بصاحبه إلى أكثر من هذا فهو لا يقف بصاحبه عند حد، وصاحبه لا يفكر فيما وراء ما تحدثه به نفسه.

وأما عن عدم وجود السكين، فأنا في شك من هذا الخيال المرتب كما يشك غيري. وكراهة اقتناء السلاح الناتجة عن كراهة الحرب لا تنتج عدم وجود السكين في البيوت، لأن السكين ليست من آلات الحرب التي تقابل بها مدافع الأسبان وبنادقهم وسيوفهم، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن السكين من ضروريات البيوت التي لا يمكن الاستغناء عنها. ولا أقل من أن توجد سكين في المطبخ لتقطيع البصل وما يحتاج إليه الطعام، وخصوصاً في بيوت الأغنياء، فمن المتعذر على العقل التصديق بصحة هذه الخرافة.

وابتهجت أوربا بسقوط طرابلس، وأقام نائب البابا احتفالات الفرح بسقوط هذه المدينة العربية الإسلامية في أيدي المسيحيين. كما استاء المسلمون لهذا الاحتلال، وقابله الطرابلسيون المقيمون في الاسكندرية إذ ذاك بعمل عدائي ضد الأسبان في الاسكندرية وأحرقوا لهم فندقاً[1].

وأرسل القسيس أمريكو دامبواس رئيس منظمة فرسان القديس يوحنا إلى فرديناند ملك أسبانيا تهنئة، ويرجوه أن يتابع فتوحاته في إفريقية.

وأراد الكونت بدرو نافارّو أن يتخذ من طرابلس قاعدة لغزو الشمال الإفريقي، فأقلع أسطوله يوم 22 من ربيع الآخر سنة 916هـ. في 12 سفينة

(1) رسالة الأستاذ عمر الباروني.

قاصداً جربة. ولكن فظائع الأسبان في طرابلس سبقت نافارّو إلى جربة، فكانت من أشد ما حمل أهلها على الاستماتة في الدفاع وأيقن الكونت نافارّو بهذا العزم فعدل عن الاشتباك في حرب مع جزيرة جربة وأقلع راجعاً إلى طرابلس، في جمادى الأولى من هذه السنة. وجمع قواه مرة ثانية، واستعان بأسطول طليطلة الأسباني، وجيش بجاية، وزحف على جزيرة جربة مرة أخرى في جمادى الأولى سنة 916هـ. فهزم فيها شر هزيمة وأقلع عن جربة في 27 منه ورجع إلى طرابلس يجر أذيال الخيبة بعد أن ترك من جيشه ثلاثة آلاف قتيل، وعدداً كبيراً من الأسرى.

وانتهز الطرابلسيون المعسكرون خارج السور غياب نافارّو وأسطوله وانقضوا على المدينة، وتسلقوا السور، ولكنهم لم يوفقوا فرجعوا أدراجهم. . .

ويقول الأستاذ الباروني: «إن هذه الكوارث لم تفت في عضد الطرابلسيين بل دأبوا على الدفاع، واستعانوا بإخوانهم في الدواخل، وتألفت مراكز للمقاومة في الجبل الغربي وغريان وتاجورة». اهـ.

ولم يغفل محمد بن حسن الحفصي إعانة طرابلس فجمع جيشاً كبيراً بقيادة محمد أبي الحداد[1] قائد توزر، وكان من أكبر قواده، ووصل إلى طرابلس ونزل خارج السور وانضم إلى هذا الجيش المحاربون الطرابلسيون، وهاجموا المدينة في ذي الحجة سنة 916هـ. فبراير سنة 1511 ولكنهم لم يظفروا منها بطائل.

ويقول صاحب المؤنس[2]: إنه حصلت مبارزة بين أبي الحداد وأحد قواد الأسبان، فاحتضنه أبو الحداد وأخذه أسيراً. ودام حصار أبي الحداد لطرابلس سبعة أشهر، ثم مات أبو الحداد وتفرق جيشه[3].

---

(1) سماه الأستاذ الباروني محمد أبو شداد.

(2) تأليف الأستاذ محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني.

(3) ذكر في المنهل العذب اسماً آخر غير أبي الحداد، وذكر لموتة قصة الله أعلم بصحتها، مع ما فيها من عدم ارتباط الحوادث.

وكان من الضروري أن يبعث أمير تونس محمد بن الحسن بهذا الجيش لمساعدة الطرابلسيين، لأنه علم أن الأسبان ينصبون له الشباك ويتآمرون عليه ولو قدر له أن ينجح في طرد الأسبان من طرابلس لكان في هذا نصر له كبير، وتقوية لمركزه.

العهد الإسباني

كان العهد الأسباني في طرابلس عهد استبداد وظلم، وشغلتهم جباية الأموال وفرض الضرائب عن القيام بأي إصلاح في البلاد وشغل الناس بأمر الأسبان عن أعمالهم، ومتابعة نشاطهم في الزراعة والصناعة والتجارة فعم الخراب والفقر البلاد والعباد. وكانت الحرب سجالاً بينهم وبين الطرابلسيين فلا العرب أمكنهم أن يقتحموا المدينة على الأسبان، ولا الأسبان أمكنهم أن يجلوا العرب عن تاجورة. وقد طال المقام بالأسبان على هذا الوضع المائع. وإذا استثنينا بعض الإصلاحات التي أحدثوها في قصر الحكومة وبعض الأسوار زيادة في تقوية الحصون سنة 924هـ/ 1518م. أمكننا أن نؤكد أنهم لم يقوموا بأي إصلاح في البلاد، بل أفسحوا الطريق للخراب يعبث بجميع أنواع النشاط المادي والأدبي. وكان الحصار المضروب حول أسوار المدينة من الطرابلسيين، وفداحة الضرائب[1] التي فرضوها على التجارة الواردة إليها من البحر من أكبر العوامل التي جعلت سكان المدينة في فقر مدقع، وجعلت أسواقها في كساد مستمر، وتجارتها في بوار، فانصرف عنها الموردون إلى غيرها من موانىء البحر الأبيض، وانقطع منها المصدرون لفناء الثروة وانقطاع العمل.

تحول في السياسة الأسبانية

كانت أخبار نشاط الأسطول العثماني في شرق حوض البحر الأبيض قد انتشرت. وامتدت أطماع الترك إلى الناحية الغربية من هذا البحر،

(1) يقول الأستاذ الباروني إنها كانت 50٪.

وأسندت قيادة الأسطول التركي إلى رجال ذوي مقدرة وشهامة مثل خير الدين برباروسا وغيره. وكانت روحهم متشبعة بالدفاع عن حوزة الإسلام وكرامة معتنقيه... ووصلت بعض قطع الأسطول التركي إلى المياه الطرابلسية سنة 918هـ/ 1512م. فكان لما أبداه من جرأة، ولما لاقاه الأسبان من عدم النجاح في التغلب على الطرابلسيين رد فعل كبير فيما كان يبديه الأسبان من تحمس لامتلاك طرابلس يضاف إلى هذا الهزائم الشنيعة التي لاقوها في فتح جزيرتي جربة وقرقنة، فكانت هذه الأسباب مجتمعة ومتفرقة من الأسباب التي حملت ساسة الأسبان على التفكير في تغيير سياستهم نحو طرابلس، بل ونحو الشمال الإفريقي كله.

وأول بوادر هذا التحول إلحاق طرابلس بصقلية في الإدارة.

ففي سنة 919هـ.. تنازل ملك أسبانيا عن إدارة طرابلس إلى نائب الملك في صقلية، وأصبحت مدينة طرابلس تابعة في الإدارة لصقلية. وأرسل نائب الملك إلى طرابلس جوان فرنشيسكو والياً عليها. وشجع نائب الملك بعض الأسر الصقلية على الهجرة إلى طرابلس لتعميرها، ووعدهم بإعفائهم من الضرائب، وإعطائهم بيوتاً يسكنونها، وأرضاً يزرعونها، وذلك ليبعث فيها روح النشاط التجاري والصناعي الذي فقدته بسبب جلاء السكان عنها وسوء معاملة الأسبان.

وزيادة في الترغيب وعدهم بالعفو عن أصحاب الجرائم منهم.

ولما مات الملك فرديناند ملك الأسبان سنة 922هـ خلفه الإمبراطور المقدس شارل الخامس، وبدأ التحول واضحاً في سياسة شارل، ويظهر أنه اضطر إلى تغيير سياسته اضطراراً، لأن الحروب الداخلية التي انتشرت في إيطاليا والخلاف القائم بينه وبين فرنسوا الأول لم يمكناه من مواصلة سياسة خلفه في طرابلس.

وانتشر اسم خير الدين بارباروسا بين الممالك الأوربية، وهاجم بأسطوله بجاية سنة 920هـ وأعاد الكرة عليها سنة 921هـ، وأصبح يهدد أسبانيا في كل ممتلكاتها الإفريقية.

وقد ضاق الحال بالأسبان في طرابلس، وأفلست سياسة العنف التي كانوا يستعملونها في داخل المدينة وخارجها، ولم يبد من الطرابلسيين أي فتور في الدفاع عن بلادهم، فعمد الأسبان إلى محاولة جديدة وهي العفو عن الشيخ عبد الله بن شرف شيخ المدينة السابق، فأطلقوا سراحه حوالي سنة 927 بعد أن قضى في منفاه هو وأسرته نحو عشر سنوات. وحاولوا أن يستغلوا نفوذه في إخضاع الطرابلسيين. . . ويقول الأستاذ الباروني: «ورجع على إثر رجوعه خمسمائة عائلة طرابلسية. ولكنه لم يجد في معاملة الأسبان ما يشجعه على البقاء معهم، ولم يلبث أن فرّ، والتحق بالمجاهدين في تاجورة» ا.هـ. وقد توقعوا من هروب الشيخ عبد الله أن ينظم صفوف المجاهدين ويذكي روح المقاومة فيهم. وكانوا يحسبون أكبر حساب لهجوم الأسطول التركي، فصاروا يحسبون أيضاً حساب الشيخ عبد الله والعرب.

وقد حملهم هذا الخوف على إجراء بعض الإصلاحات في القلاع والحصون وقصر الحكومة والميناء. وكانوا في حاجة إلى الحجارة فهدموا بيوت بعض المهاجرين واستعملوا حجارتها في البناء. وكان اهتمامهم بالناحية الجنوبية من السور أكثر لأنهم كانوا يحسبون حساب التل الجنوبي الذي يسمونه الآن الظهرة لأنه مكان مرتفع فإذا وضع عليه مدفع أصبحت المدينة في خطر.

وكل هذه التحصينات لم تهدّىء من روع الأسبان، ولم تبعث في نفوسهم الطمأنينة إلى البقاء في طرابلس. ولذلك ما كادت منظمة فرسان القديس يوحنا تطلب ضمها إليها حتى أجيبت إلى طلبها.

منظمة فرسان القديس

ابتدأت هذه المنظمة حياتها بالدعوة إلى الخير والتمسك بالدين، ومدّ يد المساعدة إلى ذوي الحاجة والمعوزين. وقبل الحروب الصليبية كان مقرها القدس. ولما نشبت الحروب الصليبية اتخذت لها مهمة الصليب الأحمر عندنا اليوم، وظهر تحيزها ضد المسلمين. وما كادت الحرب

الصليبية تنتهي حتى طردها صلاح الدين من القدس فلجأت إلى عكا. ثم طردها منها إلى رودس. وأمكنها أن تقنع ملوك أوروبا بحمايتها فكان لها ما أرادت، وأسست في رودس حكومة مسيحية تحت حمايتهم. وضمت إليها جزر الدوديكانيز، وشملها البابا بعطفه لما رآه فيها من التعصب للمسيحية والعمل على إبادة الإسلام والمسلمين، وقد اتخذت لها من الدعوة إلى الدين وحب الخير شعاراً ما لبث أن تكشف عن حقيقة هي التعصب على الإسلام والمسلمين، وإثارة الحرب، وإراقة الدماء، وإباحة القتل.

وأول ما بدأوا بعرقلة حركات الأسطول العثماني، وسلكوا مسلك القراصنة الجبناء. وفي رمضان سنة 928 دهمهم السلطان سليم بأسطول وجيش عظيمين، وبعد حصار جزيرة رودس ستة أشهر سقطت في يد الجيش العثماني في السابع من صفر سنة 929هـ. وقد شملهم المسلمون بعفوهم وحفظوا عليهم أرواحهم وأموالهم، ولم يقابلوا أعمالهم الوحشية بمثلها، وطلبوا منهم أن يغادروا الجزيرة إلى حيث يشاءون. وفي 18 صفر سنة 929هـ يناير سنة 1523م غادر فرسان القديس جزيرة رودس إلى إيطاليا بدعوة من البابا كليمنت السابع... وقد رأى رئيس المنظمة الأب فيليب أن يطلب إلى شارل الخامس إمبراطور المملكة الرومانية منحه جزيرة مالطة وقوزو لأنهم رأوا أنهما أليق مكان لغزو البلاد الإسلامية الذي يتعطشون له دائماً. وهنا سنحت الفرصة لشارل للتخلص من طرابلس التي طالما تحين لها الفرص، فقبل طلب الفرسان على شرط أن يقوموا بالدفاع عن مدينة طرابلس... ومن هنا ابتدأت قصة فرسان القديس في طرابلس.

أدرك فرسان القديس أنهم إذا قبلوا هذا الشرط فسيتعرضون لحرب طويلة من الطرابلسيين، وهجوم شديد من الترك سيكون مصيرهم فيه مصير هجوم رودس. ولم يجدوا بُداً من القبول، فقبلوا على كره، وعلى علم بما ينتظرهم من العاقبة السيئة إرضاء للإمبراطور شارل.

ويقول الأستاذ الباروني: «ووافق مجلس منظمة الفرسان على الوثيقة

القيصرية في 25 من يولية سنة 1535م[1] وجاء وفد منهم إلى طرابلس ليتسلم المدينة من واليها «فرديناند ألِركون»[2].

وإلى هنا انتهى حكم الأسبان في طرابلس، بعد أن دام عشرين سنة لم يتجاوزوا فيها أسوار المدينة، وقاسى فيها الطرابلسيون شر ما يقاسيه محكوم من حاكم. وذهب الأسبان إلى غير رجعة، ولم يتركوا في طرابلس ما يشرف إنساناً أو يمت إلى الخير بصلة، ولولا ما شغل به الأسبان من أحداث في أوربا لما أبقوا في طرابلس مسلماً.

فرسان القديس في طرابلس

تسلم فرسان القديس طرابلس في المحرم سنة 942 «يولية سنة 1535» وعينوا عليها والياً هو القسيس «جسباري دي سنقوسا» وهو أول وال من هذه المنظمة على طرابلس، وكانت مهمة الدفاع عن طرابلس مهمة شاقة؛ لأن الفرسان يواجهون عدة أعداء في طرابلس: كراهة العرب في الداخل، والعرب المحاربين في الخارج، والأسطول التركي في البحر، ولم يكن لديهم من المال ما يكفي لما تتطلبه مهمتهم لإصلاح ما تركه الأسبان من الخراب في كل ناحية من نواحي الحياة، وأبدى الفرسان بعض النشاط فاستولوا على زنزور، والمنصورية (صياد) ولماية والحشان والزاوية، وصبراتة، وكانوا يجبون أموالها ويفرضون عليها المغارم، ويأخذون رهائنها خوف الانتقاض عليهم. وقد اضطر أهل الجهة الغربية للخضوع لأنهم في طريق الجيوش التونسية التي كانت تأتي لنصرة فرسان القديس على طريق البر. بخلاف الجهة الشرقية فقد احتفظت بنفسها بواسطة مشايخها. وقد

(1) يوافق 24 من المحرم 942هـ.

(2) يقول الأستاذ العسلي في ترجمته كتاب «ليبيا»: وفي سنة 1530م تنازل عنها كارلو الخامس ملك أسبانيا إلى فرسان سان جوفاني وأضيفت إلى مالطة. وفي هذا الوقت أعيد بناء السراي وزيد في حجمه، وأصلحت أسوار المدينة، ووسائل الدفاع عن الميناء التي كانت دائماً هدفاً لمناوشات العرب والأتراك.

وجد مراد آغا معاونة فعالة في محاربة فرسان القديس وبعث أمير تونس إلى والي طرابلس يطلب منه صداقة منظمة القديس يوحنا وعقد معاهدة صداقة ودفاع معها، فرد عليه بأنه سيستشير حكومته، ويرجوه ألا يرسل معونة إلى العرب بتاجورة حتى تتم المعاهدة بين مؤسسة القديس وبينه.

وبلغت أخبار هذه المعاهدة خير الدين برباروسا فجهز أسطولاً ونزل على تاجورة واحتلها سنة 937هـ وطرد منها أنصار الحسن أمير تونس ومؤيديه، وأبقى في تاجورة أحد قواده، واسمه خير الدين كرمان، وأبقى معه بعض القطع الحربية وجنوداً وأسلحةً وكانت ميناء تاجورة غير صالحة لرسو السفن فأسرع كرمان لإعداد حوض فيها لسفنه، وبنى برجاً ليدافع به عن السفن الراسية في هذا الميناء.

وأعلن خير الدين كرمان الحرب على الفرسان في البر والبحر، واستولى على سفينتين للفرسان بكل ما فيهما وضعف نفوذهم خارج السور، وامتنع سكان زنزور وغيرهم من دفع الضرائب وتخلصوا من حكم الفرسان.

وقد كان لغزو الترك تونس أثر سيء على أميرها مما حمله على الالتجاء إلى فرسان القديس ومعاونتهم على الترك، وعقد معاهدة دفاعية ضد الترك. وسنرى كيف أنه ساق جيشاً على طرابلس بطريق البر مساعدة لفرسان القديس.

وسمع الحسن أمير تونس بأعمال خير الدين في تاجورة. فجهز جيشاً في شهر جمادى الآخرة سنة 938هـ يناير سنة 1532م لمحاصرة تاجورة وقاده بنفسه. وقد تأكد الحسن من مساعدة فرسان القديس بالمدافع والعتاد الحربي بناء على وعدهم إياه بهذه المساعدة.

وزحف الحسن على طرابلس وحاصر جيش خير الدين في زواغة وتاجورة وعند البرج القائم على الميناء، وبعث إلى والي طرابلس يطلب منه وفاء الوعد بالنجدة، فلم يف بوعده. وجاءت نجدة إلى خير الدين كرمان من برباروسا، وبلغ عدد أسطوله في تاجورة 15 قطعة كبيرة. واستطاع كرمان أن يدافع عن تاجورة.

وجاء خير الدين برباروسا في حملة كبيرة لنجدة تاجورة، ونزل على

صفاقس أولاً واحتلها في شوال سنة 940هـ (أبريل سنة 1534). وعلم الحسن بهذه النجدة، فرحل عن تاجورة. وذهب لملاقاة خير الدين في صفاقس، وانكسرت حملة الحسن وخاب فأله. وخاف الفرسان من تقدم كرمان إلى طرابلس فالتجأوا إلى إصلاح الحصون والقلاع، وأعوزهم المال فأرهقوا الناس بالضرائب.

وفي سنة 940هـ/ و1534م. دعي بارباروسا إلى الآستانة، وأسندت إليه قيادة الأسطول العثماني كله، فازداد خوف الفرسان. وخرج بارباروسا بأسطوله على سواحل إيطاليا، واحتل تونس. وعين حسن آغا على قسم من الأسطول وأرسله إلى طرابلس.

ورجع كرمان إلى تاجورة ـ وكان قد ذهب إلى صفاقس ـ ومعه كتاب من بارباروسا يأمرهم فيه بمساعدته والالتفاف حوله، فانضمت إليه القبائل الطرابلسية ودفعت إليه خراج أراضيها وضرائب أشجارها وحيواناتها، وضرائب تجارتها. وحاصر طرابلس، وضيق على أهلها حتى أصبحوا لا يقدرون على فتح الأبواب. وانتشرت قوات خير الدين حول طرابلس. وبنى قلعة على بعد ميل من سور المدينة إلى الجنوب وكانت تعرف بقلعة القائد، وكانت بالظهرة، ونصب عليها المدافع، وكانت قنابلها تصل قريباً من الأسوار، وتضايق الفرسان من هذه القلعة أشد المضايقة.

وتهيأ كرمان لاحتلال طرابلس، وكان ذا عزم وقوة إرادة، وحشد جنده ورجاله، وانضم إليه المتطوعون من لماية وزنزور، وتقدم الجيش نحو أسوار المدينة ومعه حَملة السلالم، ونشبت الحرب، واختلطت أصوات التكبير والتهليل بأصوات البنادق والمدافع ونصبت السلالم على الأسوار، وحمي وطيس الحرب. وضاقت الدنيا في وجوه الفرسان وظنوا ألاّ مناص من الأسر أو القتل، وكادوا يرفعون الأعلام البيضاء علامة الاستسلام. وفي آخر لحظة واتاهم النصر بسبب انتشار خبر وفاة خير الدين بين الجنود فأخذوا يتسللون تاركين مواقع الدفاع ليتحصنوا بقلعة الظهرة، وكسب الفرسان المعركة.

وجاء المدد إلى فرسان القديس من مالطة. وأمكنهم، من طريق التحايل وبث الفتنة بين سكان المنشية، أن يستميلوا بعضاً منهم، وانضموا إلى صفوفهم. ويقول الأستاذ الباروني: «فجاءوا أفواجاً، وملأوا الميادين ليحاربوا إخوانهم». وبلغ خبر انضمام هؤلاء النفر للفرسان إلى خير الدين كرمان فاستعد للقائهم... وتقدم جيش الفرسان نحو قلعة القائد بالظهرة. ورابط جيش خير الدين في قبيلة أبي دبوس. ولم يحاول كرمان أن يتعرض لزحف الفرسان وخلّى بينهم وبين القلعة. واشتد الحصار على القلعة، وأيس المحاصرون من إغاثة خير الدين، فاستماتوا في القتال، وأبوْا الاستسلام فنسفت القلعة بمن فيها، وذهبت أجسامهم في الفضاء تذروها الرياح. ورحمة الله ورضوانه على من أدى للوطن واجبه... ولم يبق أمام الفرسان إلا خير الدين الذي يعسكر في قبيلة أبي دبوس التي تبعد عن المدينة بخمسة أميال، فانتقل من مكانه إلى تاجورة. وتقدم الفرسان إلى هذه القبيلة فنهبوها، وأسروا من فيها، وأضرموا فيها النار. وإلى هنا انقطعت أخبار خير الدين كرمان. ويقال إنه قتل في هذه المعارك. وهيأت الظروف إلى دور آخر هو استيلاء الترك على طرابلس، وطرد حكومة القسس منها إلى غير رجعة، وكان ما سنقصه.

الترك في طرابلس

بعد أن اختفى خير الدين كرمان من تاجورة ولم يسمع له ذكر بقي العرب وفرسان القديس وجهاً لوجه. ولم تكن لدى العرب قوة تكافىء قوة الفرسان، وأصبح من المستحيل التفاهم لاستحكام العداوة بين الفريقين، فلهذا اضطر العرب في تاجورة أن يستعينوا بدولة تنقذهم من هذا الموقف الحرج. ولم تكن إذ ذاك دولة مسلمة يمكن الالتجاء إليها إلا دولة بني عثمان، فقد ظهرت في رودس والجزائر، وتونس، والبحر الأبيض، وكان خير الدين كرمان تولى أمورهم في تاجورة حوالي 16 سنة، وفوق كل هذا فهي دولة إسلامية تعمل لرفعة شأن الإسلام وحماية المسلمين، لهذا كله لم

يفكروا في الاحتماء بغيرها، وأرسلوا وفداً منهم إلى الآستانة سنة 926 ليعرض الأمر على السلطان سليم، ويطلب منه إنقاذهم من فرسان القديس. وقابل السلطان سليم الوفد واستجاب إلى طلبه.. وهنا يروي ابن غلبون في تاريخه أنه أرسل معهم مراد آغا أحد خصيان القصر في نفر قليل من العساكر...

ويؤكد الأستاذ الباروني أن مراد أغا «انضم إلى بارباروسا سنة 1538م[1]، وكان يثق فيه ويعتمد عليه، وهو الذي أرسله إلى تاجورة ليستأنف ما بدأه خير الدين كرمان ويترأس الغزو على طرابلس وأمده بالسفن والرجال والعتاد الحربي».

والأستاذ الباروني يريد أن يشكك في إرسال الوفد إلى الآستانة، ولكنه يقر وجود مراد آغا في تاجورة، في زمن متأخر عن الزمن الذي ذكر في المنهل العذب بنحو عشرين سنة لم يأت فيها ذكر لمراد آغا، وينسب وجوده في تاجورة إلى أسباب غير التي ذكرها ابن غلبون وتابعه فيها أحمد بك النائب.

وقد يكون ما اشتهر به ابن غلبون والنائب من عدم التحري في الرواية ومناقشة غير المقبول منها ـ يؤيد ما ذهب إليه الأستاذ الباروني. يضاف إلى هذا وجود الأسطول العثماني في البحر الأبيض، ووجود القواد العثمانيين وحروبهم في الشمال الإفريقي، وفي تاجورة. وهذا ما يجعل النجدة قريبة توفِّر على الطرابلسيين مشقة الذهاب إلى الآستانة...

ومراد أغا ولد في راقوسا من البلاد الإيطالية، وأسره القراصنة وباعوه في سوق النخاسة، وآل أمره إلى قصر السلطان سليم وأجريت له عملية الخصي، لأن القصور الملكية إذ ذاك لا يباشر فيها خدمة النساء إلا الخصيان.

---

(1) يوافق سنة 945هـ. وفي المنهل العذب أن مراد آغا جاء إلى طرابلس سنة 926 والفرق شاسع بين التاريخين.

وقام مراد أغا في بادىء الأمر بمناوشات يقصد منها عدم تمكين فرسان القديس من الحشد والتجمع.

وكان لدى الفرسان رهائن من سكان الجهة الغربية فهربوا، فبعثوا في إثرهم رسلاً، فقبض عليهم أهل لماية وباعوهم لمراد أغا، فاستاء الفرسان لذلك، وأرادوا الانتقام من أهل هذه الجهات فجهزوا أسطولاً من ثماني قطع بحرية وشحنوه بخيرة المقاتلة عندهم، وأرسلوا جيشاً برياً وأخذ طريقه إلى لماية على الساحل، وغادر الجيشان طرابلس في جمادى الأولى سنة 902هـ. يولية سنة 1545م وترأس على الجيش البري أحد أعيان سوق الجمعة وكان متحالفاً مع الفرسان. وسار الجيشان في جنح الظلام، ونزل جيش الأسطول إلى البر قبالة لماية: وقبيل الفجر وصل الجيش البري... وقد شعر سكان لماية بهذا العدو الزاحف، فانتبهوا مذعورين وفرُّوا إلى الجنوب حيث البادية والأرض متسعة وزحف الجيش على لماية فأسروا فيها نحو أربعمائة وغنموا كل ما فيها وقسم على رجال الجيش، وحمل الأسرى إلى مدينة طرابلس مكبلين في الأغلال... ورجع أهل لماية إلى بلادهم فوجدوها خاوية خالية، وقد نهبت جميع أرزاقهم ووجدوا من جثث القتلى كثيراً وكثيراً.

وفي سنة 953هـ ـ سنة 1546م. كان الأب جوان والياً على طرابلس، فاقترح على منظمة الفرسان أن تنقل مركزها إلى طرابلس نظراً لضيق مجال مالطة، واتساع هذا المجال في طرابلس. ولكنه لم يجد موافقة على هذا الرأي، ويعللون عدم الموافقة عليه بأن الطرابلسيين ما زالوا مصممين على الدفاع ولن تلين قناتهم مهما طال الزمن، وأيضاً فإن الأسطول التركي الذي ملأ البحر الأبيض، والسياسة التركية التي امتدت إلى شواطىء إفريقية، وهي تتحفز للوثوب على طرابلس، كل هذا حمل المعارضين على التمسُّك برأيهم.

طورغود[1]

توفي خير الدين بارباروسا ليلة 5 من جمادى الأولى سنة 953هـ ـ 4 يولية سنة 1546م. وهو أميرال الأسطول التركي العظيم... وكان ذكر طورغود مقروناً دائماً بذكر انتصارات الأسطول التركي في البحر الأبيض مما جعله في مقدمة القواد البحريين الأتراك.

ولطورغود تاريخ حافل بجلائل الأعمال، والمغامرات البحرية العظيمة. وكان جريئاً مقداماً لا يهاب الموت، ولا يخاف العدو. وكان يحمل بين جنبيه نفساً كبيرة تحمّل في إرضائها كثيراً من المخاطر والأهوال، ورفعته أعماله إلى ذروة المجد من غير أن يستند إلى أحد. وكان موفقاً في العمل للانتقام من المسيحية وإنقاذ المسلمين من شرورها. وبدأ طورغود أعماله في الشمال الإفريقي، فطرد الأسبان من سوسة، والمنستير، وصفاقس. وفي سنة 957هـ/ 1550م. احتل المهدية. ووجدت أوربا نفسها أمام هذا الأسد البحري يهددها بالاستيلاء عليها فتجمعت ضده، وأرادت أن تغالبه فغلبها وتولاه الله بنصره فانتصر.

وفي أثناء ما كان طورغود يقوم بعملياته الحربية في شمالي إفريقية كان مراد أغا في طرابلس في شبه انتظار لنجدة الأسطول التركي. لقد فقد مراد أغا بموت برباروسا صديقاً ومعيناً، وتوقفت الإمدادات التي كانت تأتيه أيام خير الدين برباروسا. وفي سنة 956هـ/ 1549م جاء مراد أغا لزيارة عبد القادر ابن شوشانة في المنشية، فسمع به الفرسان فهاجموه للقبض عليه، ولكن ابن شوشانة دافع دونه هو ورجاله حتى نجا وأُسر ابن شوشانة وصديقه أحمد بن جوهرة. وأطلق الفرسان ابن شوشانة وصديقه أحمد بن جوهرة على أمل أن يستعينوا بنفوذهما على إخضاع القبائل، ولكن ابن شوشانة تعاقد مع مراد

---

(1) أصله من بلاد الأناضول، والتحق من صغره بخدمة الأسطول العسكرية مع خير الدين باشا. واشتهر في قيادته حتى نال الرياسة العليا، وله غزوات كثيرة في البحر المتوسط. واستشهد في معارك مالطة سنة 973.

سرًّا على قتال الفرسان وتطهير البلاد منهم وبلغ الخبر والي طرابلس فقبض على ابن شوشانة وصديقه أحمد بن جوهرة ومعهما نحو تسعة آخرين وأرسلهم إلى مالطة لمحاكمتهم. وحيث لم تثبت إدانتهم أُطلقوا ورجعوا إلى طرابلس.

حشد الأسطول التركي

كان فرسان القديس يحسبون ألف حساب لهجوم الأسطول التركي على طرابلس. وقد أقضَّ هذا الخوف مضاجعهم واستولى على نفوسهم حتى أصبحوا يتوقعون زوال ملكهم من طرابلس على يديه.

وكانت هذه المنظمة منذ أن وطئت أقدامها طرابلس تشعر بضعف في المقاومة، وبعجز عن الحصول على مستلزمات الدفاع: من كثرة الجند، وتوفير المال لإصلاح القلاع والأسوار... وكان وجودها في طرابلس يرتكز على وعود ملوك أوربا بمدها بما يلزم للمحافظة على كيانها وتوطيد نفوذها، ولكن ملوك أوربا لم يكونوا عند ظنها بهم، ولم يفوا بوعدهم لها كما كانت تنتظر، فتحرج مركزها ووقعت في حيْص بيص، وأحاطت بها المخاوف، وفشلت جميع محاولاتها لتغطية مركزها المزعزع... ولو كانت قوة الطرابلسيين متكافئة مع قوة الفرسان أو قريبة منها لما أمكنهم أن يبقوا في طرابلس نحو عشرين سنة.

وما كاد الفرسان يعلمون بشحد سفن الأسطول التركي في شرقي البحر الأبيض حتى توجَّسوا شرًّا، واشتد خوفهم على مصيرهم، وشرعوا في تقوية السور والأبراج، واستصرخوا ملوك أوربا، واستجدوا معونتهم جاعلين في مقدمة ما ينتحلونه من أسباب لاستدرار إحسانهم ـ دفع ما يتهدد المسيحية من خطر.. ولكن أوربا لم تكن مستعدة لسماع هذه الصيحات بالقدر الذي يطلبه الفرسان لتقوية مركزهم في طرابلس، ولإقناع المسيحية بنجاحهم في مهمة الدفاع عنها، فباءت جهودهم بالفشل. وكان عزم الترك على تخليص إفريقية من قراصنة المسيحية، وقوة أسطولهم الذي لم يعد له مثيل في البحر

الأبيض - لا تؤثر عليهما صيحات اليأس وحركات المذبوح.

تجمع الأسطول التركي في شرقي البحر الأبيض. وكان مجموع سفنه مائة وخمسين سفينة، وركب فيها 17 ألف جندي، وستمائة فارس. وكان سنان باشا القائد الأعلى لهذا الأسطول. وظهر هذا الأسطول الضخم أمام مالطة يوم 14 رجب سنة 958هـ. 18 يولية سنة 1551م. وكان طورغود في هذه الحملة. وخوفاً من أن يقتضي احتلال مالطة كلها زمناً طويلاً نظراً لمناعتها الطبيعية قد تفوت معه الفائدة من التعجيل باحتلال الشمال الإفريقي فقد اكتفى سنان باشا باحتلال قوزو إحدى جزر مالطة في 26 من رجب المذكور، وأسر منها نحو سبعة آلاف، وأقلع عنها الأسطول قاصداً إلى طرابلس.

ورسا الأسطول أمام طرابلس، ونزل سنان باشا على تاجورة حيث يقيم مراد أغا. وأرسل سنان باشا رسولاً عربيّاً يحمل علماً أبيض ومعه رسالة إلى الفرسان يطلب منهم أن يسلموا المدينة، ويعدهم بأن يبقي على حياتهم وأموالهم.

وأخذ سنان باشا في إنزال الجيوش والمدافع إلى البر، ورتب الجيش في مضاربه، وأحاط بالمدينة من كل ناحية، وحفرت الخنادق. ونصبت المدافع البرية قرب سيدي الشعاب. واتخذ الأسطول مواضعه من البحر، وتمت جميع الاستعدادات. ولم يصدر الأمر بالهجوم انتظاراً لرد الفرسان.

وفي أثناء ما كان سنان يقوم بترتيب الجيش جاء السفير الفرنساوي دارمون، ورست سفينته على ساحل تاجورة وطلب مقابلة سنان. فأجيب لذلك. وفي أثناء محادثته رجاه أن يعدل عن احتلال طرابلس وأن يتركها للفرسان، وتوسل لديه في قضاء مهمته بما بين فرنسا والسلطان سليمان من صداقة، وبما يتمتع به الفرسان من رعاية دول أوربا لهم.

ولم يجد سنان باشا في هذه الوساطة ما يبررها، واعتذر للسفير بأنه مأمور من قبل السلطان باحتلال طرابلس وطرد الفرسان منها. وهذا التصريح

من سنان بأنه مأمور من السلطان بأخذ طرابلس من فرسان القديس يرد ما جاء في تاريخ ابن غلبون، وتاريخ النائب من أن مراد أغا طلب من سنان مساعدته بالأسطول على فك المدينة، فاعتذر سنان بعدم الإذن له في ذلك، وبعد توسلات مراد أغا وتحمله كل مسؤولية تنتج عن ذلك أجاب سنان باشا طلبه.

وصدرت أوامر سنان بعدم مغادرة سفير فرنسا تاجورة خوفاً من اتصاله بالآستانة، أو بفرسان القديس في طرابلس لعرقلة أعماله. وردَّ الفرسان على الباشا بعدم التسليم، وبالإصرار على المقاومة إلى النهاية.

الهجوم على مدينة طرابلس

وفي يوم 6 من شعبان سنة 958هـ ـ 9من شهر أغسطس سنة 1551م. صدرت الأوامر إلى الجيش التركي بالهجوم، وأطلقت المدافع على الأبراج والأسوار، وعلى قصر الحكومة، وأحرزت المدفعية نجاحاً فتقدمت، ونصبت على مسافة 150 متراً من قصر الحكومة... وكان ضرب المدافع قويَّاً ومحكماً وكان الجنود يصوّبون بنادقهم إلى المرابطين في رؤوس الأسوار وغيرهم.

وعمَّت الفوضى جنود الفرسان، وألحّوا على ضباطهم في طلب الصلح، وطلب بعضهم السفر إلى مالطة. واعتقد حاكم المدينة فاليبرا أن سقوط المدينة في يد الأتراك أمر لا مفر منه، فأرسل إلى سنان باشا يطلب منه المفاوضة في الصلح على شرط أن يترك الفرسان يخرجون إلى مالطة بسلاحهم وأمتعتهم، ورفض سنان باشا هذا الشرط إلا إذا دفعوا ثمن كل ما أنفقه على هذه الحملة غرامة حربية، فرفضوا شرطه لأنه لا يوجد عندهم شيء من المال... وتجددت الحرب، وتجددت معها ثورة الجنود في داخل المدينة، وسخطهم على الوالي ومطالبتهم بتسليم المدينة... وطلب سنان باشا فاليبرا حاكم المدينة للتحدث إليه مشافهة في شأن الصلح، فخرج إلى الباشا ومعه أحد مساعديه. وعرض عليه سنان: إما أن يدفع الخسارة

الحربية، أو يأسر جميع الفرسان، ويبيعهم في الأسواق لردِّ نفقات الحرب. واستاء فالييرا من قوله: يبيعهم في الأسواق، فخرج عن صوابه وأغلظ في القول. فأمر سنان باشا بحجزه، وأرجع مساعده إلى المدينة لينذر من فيها بالفناء إذ ما توانوا في فتح الأبواب وتسليم المدينة. وانقضَّ هذا الخبر على رؤوس المحاربين كالصاعقة، وأخذ الخوف من نفوسهم كل مأخذ. وكانت المدافع ترمي حممها على القلاع والأسوار في عنف لا هوادة معه حتى تهدَّم أكثرها. وأرسل سنان منادياً ينادي حول الأسوار بالأمان لكل من ألقى سلاحه واستسلم: واغتنم جنود الفرسان المذعورون هذه الفرصة، فألقوا بسلاحهم، وهرعوا إلى الأبواب ففتحوها بدون أن ينتظروا أمراً أو يستشيروا أحداً. ودخلها سنان الفاتح وجيشه المظفر، وفي المقدمة مراد آغا، وطورغود بك.

ووفى لهم سنان بما وعد، ورفع عنهم القتل، ووهب لهم أرواحهم وأموالهم.

الاحتفال بفتح طرابلس

وفي يوم 13 من شهر شعبان سنة 958هـ و16 من أغسطس سنة 1551م احتفل بفتح طرابلس احتفالاً رائعاً حضره المسيو دارمون سفير فرنسا الذي حجزه الباشا في تاجورة. ورئيس الفرسان فالييرا الذي كان حاكماً على طرابلس... وكان يوم 6، 7، 8 من شعبان و9، 10، 11 من أغسطس أشد أيام الحرب... وتكرم سنان باشا على الفرسان فأذن لهم في السفر إلى مالطة فسافروا يوم 15 من شعبان سنة 958هـ 18 من أغسطس سنة 1551 على سفن تحمل الراية الفرنسية... ولم تستغرق العمليات الحربية ـ منذ أن شرع في الهجوم إلى أن سافر الفرسان إلى مالطة ـ أكثر من عشرة أيام[1]...

ولم يترك الفرسان في طرابلس ما يذكرون به سوى الخراب، وأخبار

---

(1) ويرمز لتاريخ هذا الاحتلال بكلمة «جاء الترك بس» على طريقة أبجدية المغاربة.

تلك الفظائع والمجازر. وسافروا من البلاد مشيعين باللعنات بعد أن قضوا فيها 18 سنة.

وما كان الفرسان يستحقون هذا العطف من سنان لو كانت المعاملة بالمثل فقد كانوا في معاملتهم للطرابلسيين قساة القلوب، متحجري العواطف، حملهم التعصب للمسيحية على ارتكاب كل نقيصة مع العرب والمسلمين، وكان وجودهم في طرابلس حلقة من سلسلة فظائع الأسبان في الأندلس. ولكن بشاشة الإسلام ملأت قلب سنان باشا رحمة وإنسانية، فعفا بعد قدرة، وسامح بعد استحقاق العقوبة، وهكذا نحن المسلمين دائماً، ولن نعدل عن هذه الفضيلة الإنسانية.

ولاية مراد آغا

عين سنان باشا مراد آغا والياً على طرابلس مدى الحياة. وبعد أن استقر الأمن في البلاد سافر سنان باشا بأسطوله إلى الغرب، وأبقى مع مراد آغا حامية صغيرة من الجند.

وكانت طرابلس قد عمَّها الخراب من جراء الحرب وإهمال الفرسان لشأنها، فشغل بتعميرها، وجلب لها كثيراً من السكان من تاجورة ومن المهاجرين الذين هاجروا أيام الأسبان لأن الحروب أتت على كثير من سكانها، وشجع الناس على الزراعة والصناعة، وإنشاء البساتين واستثمار الأرض. وقد استردت البلاد في أيامه كثيراً مما فقدته أيام الأسبان وفرسان القديس، وأخذت الحياة تدبُّ في جميع مرافقها.

وقد أمكنه أن يخضع البلاد للنفوذ التركي. وبقيت زوارة تحاول التخلص من نفوذه، فلم يتركها تسترسل في ذلك. واضطرته ظروف عنادهم إلى أن يغزوهم بجيش فيه نحو 3600 جندي. وكان هذا الجيش يحاصر زوارة في شعبان سنة 959هـ. وأغسطس سنة 1552م.

وقد اتفق أن فرسان القديس جهزوا أسطولاً فيه ست عشرة سفينة عليها

ألفا جندي لغزو زوارة لأنها بعيدة عن المدينة، وظنوا أن نفوذ مراد آغا لم يصلها وذهب هذا الجيش إلى زوارة، ووصلها يوم 5 من شعبان من السنة المذكورة.

وكان جيش مراد آغا موجوداً في زوارة يحاصرها. وزحف جيش الفرسان إلى زوارة، وعاث فيها قتلاً وسبياً، ولم يكن يشعر بوجود جيش مراد آغا. وأخذ جيش الفرسان في الرجوع إلى الأسطول، فلم يشعر إلا وانقض عليه جيش مراد آغا، من كل صوب. وضاق على جيش الفرسان الفرار فتشتتوا وتركوا كل ما غنموه من أموال، وما استولوا عليه من أسرى. واضطر الفرسان إلى أن يلقوا بأنفسهم في البحر ومات كثير منهم غرقاً قبل وصولهم إلى السفن، وأقلع الأسطول يجر أذيال الخيبة، وكانت هزيمة منكرة له وللجيش[1].

ولم يحدث في أيام مراد آغا غير هذا الحادث الذي اعتبره الفرسان أقسى عليهم من حادث جزيرة رودس.

ولاية طورغود باشا

بعد احتلال طرابلس قويت شوكة الأسطول التركي في البحر الأبيض بقيادة طورغود بك. ومن حسن الحظ الذي صادف الفرسان أن نجا أسطولهم الذي غزا زوارة من الوقوع في أسر أسطول طورغود.

وكان طورغود يتمنى لو أسندت إليه ولاية طرابلس بعد احتلالها بدلاً من مراد آغا. ولكن سنان باشا عدل عنه إلى مراد فبقيت أمنية في نفسه تتوق إلى الفوز بها... وفي شعبان سنة 959هـ - وأغسطس سنة 1552م[2] سافر إلى الآستانة ليقدم للجهات المختصة تقريراً سنوياً عن أعماله البحرية. واغتنم طورغود وجوده في الآستانة ليسعى للحصول على ولاية طرابلس، فسعى

(1) ملخص من رسالة الأستاذ الباروني.

(2) هذه التواريخ تخالف ما ذكره النائب.

لدى السلطان سليمان، وذكر له شيخوخة مراد وضعفه عن الإدارة وعجزه عن الاحتفاظ بالسلطة التركية في طرابلس ما رآه مبرراً لاختياره لهذا المنصب بدلاً عن مراد.

ونظراً لمكانة طورغود، ولما امتاز به من جلائل الأعمال، ونظراً كذلك لموقع طرابلس وأهميتها للمحافظة على سواحل إفريقية اقتنع السلطان بوجهة نظر طورغود وأصدر أمره بتعيينه والياً على طرابلس.

وقدم طورغود إلى طرابلس في ربيع الآخر سنة 960هـ ـ ومارس سنة 1553م[1]، وبيده أمر تعيينه والياً على طرابلس. وقابله مراد فيمن قابله. وفرح الجيش والعرب بمقدمه وتعيينه والياً لما يعلمونه عنه من المقدرة والكفاية. وبلغ مراد آغا أمر تعيينه فامتثل الأمر وسلمه مهام الحكم وشؤون البلاد.

انتقل مراد آغا إلى تاجورة بعد أن سلم أمور طرابلس إلى طورغود ليريح نفسه فيما بقي له من أيام حياته. وقد تولى طرابلس سنة واحدة، وسبعة أشهر ونصفاً[2] ونقل معه إلى تاجورة أمواله الكثيرة، وبعض المسيحيين الذين كان أسرهم وملكهم ملك الرقيق. وبنى جامعه الكبير في تاجورة بواسطة هؤلاء الأسرى، ووعدهم بإطلاق سراحهم إذا أتموه على أكمل وجه. وقد أقامه على 48 عموداً وأقام على هذه الأقواس قباباً كثيرة... وهو مستطيل الشكل يبلغ طوله حوالي 42,60 متراً وعرضه 35,20 متراً. وإلى جانب المسجد قبر مراد آغا في مبنى صغير، وعليه قبة واحدة، وقد بذل مراد آغا في تعمير طرابلس وإصلاحها جهداً مشكوراً عليه رحمة الله.

وتسلم طورغود الحكم في طرابلس وما زالت في حاجة إلى إصلاح ما أفسده الإسبانيون وفرسان القديس من أسوارها وأبراجها، وما زالت كذلك في حاجة إلى تشجيع الزراعة، وإحياء الصناعة، وإنعاش التجارة وإيجاد الأيدي العاملة التي قلّت بسبب الحروب الطويلة، وإسعاف السكان بما ينعش

(1) هذه التواريخ تخالف ما ذكره النائب.
(2) هذه المدة غير التي قضاها في تاجورة قبل فتح طرابلس وتوليه عليها من قبل سنان باشا.

حياتهم ويرفه عنهم شظف العيش... وقد تناول طورغود كل هذا بما عرف من عزمه وقوة إرادته. وكان يعتمد في جل نفقاته على الغنائم التي يأتي بها الأسطول في غزواته على البلاد الأوربية. وكان يتحصل على مقدار كبير منها.. وقد استنجد به أهل القيروان من ظلم حاكمهم محمد بن أبي الطيب الشابي[1]، فذهب إلى القيروان وقتل محمد بن الطيب وشرد قومه، واستخلف على القيروان حيدر باشا ورجع إلى طرابلس.. وفي هذه المدة كان المكنّى حاكماً على صفاقس، فانضم إلى طورغود ودخل تحت نفوذه، وأصبحت صفاقس تابعة لطرابلس.

الصفاقسيون في طرابلس

اشتهر الصفاقسيون بالنشاط في العمل، والدراية بالصناعات إذ ذاك. وقد كانت طرابلس في حاجة إلى الأيدي العاملة للنهوض بها من كَبْوتها التي أوقعها فيها الأسبان وفرسان القديس... وبعد أن انضمت صفاقس إلى طرابلس أشار المكنّى على طورغود بنقل بعض الأسر الصفاقسية إلى طرابلس لتستفيد البلاد من نشاطهم التجاري والصناعي، فاستصوب طورغود هذا الرأي ووكل إليه الأمر في اختيار من يراه.. وكان رأي المكنّى خالصاً لوجه الله. ولكن كانت بينه وبين بعض الأسر الصفاقسية ضغائن، فاقترح على طورغود هذا الرأي حتى إذا ما وافقه اختارهم ليجليهم عن بلادهم تنكيلاً بهم، وعمد المكنّى إلى اختيار نحو أربعين أسرة للانتقال إلى طرابلس وكتب أسماءها في قائمة، فوافق عليها طورغود، وكلفه أن يكون رئيساً عليهم، فوقع فيما وقع فيه غيره وأبلغهم الخبر فوافقوا على كره... ولما وصلوا إلى طرابلس فرح بهم السكان وأنزلوهم في محل الكرامة، وأصبح المكنّى من أعضاء مجلس الوالي المقربين لديه[2].

---

(1) الشابي نسبة إلى الشابة، وهي قرية قرب القيروان قبالة المهدية «مؤنس».

(2) قال صاحب نزهة الأنظار: كنت في ساحل طرابلس سنة 1174 فرأيت داراً عظيمة =

وسار طورغود باشا في حكم طرابلس على نظام الدايات الذي كان متبعاً في الجزائر وتونس. واهتم ببناء السفن حتى أصبحت له قوة بحرية عظيمة كانت تغزو البحر وتأتي بالغنائم مما تستولي عليه من سفن الأروبيين. واهتم بتوسيع حدود طرابلس حتى شمل حكمه صفاقس وامتد نفوذه على الساحل إلى مسافة أكثر من 7500 ميل، وشمل برقة إلى الحدود المصرية.

وكان للسفن الطرابلسية المقام الأول في البحر الأبيض، وفي غزو مالطة حينما أعلنت الدولة العثمانية الحرب سنة 972.

وقد تمتعت طرابلس بالأمن في أيام طورغود وانتعشت فيها الصناعات، وبذل طورغود في تعميرها ما أمكنه من جهد، وفي التقدم بها ما وسعته قدرته.

ولم ينس الأسبان وفرسان القديس ما أُصيبوا به من نكبات وهزائم في طرابلس وغيرها على يد الأتراك والعرب. ولم يفتر فرسان القديس عن تحريض دول أوربا على المسلمين والتنكيل بهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا... ففي سنة 971 اتفقت حكومات أسبانيا، وجنوة وفرسان القديس في مالطة على أخذ إفريقية وانتزاع الإسلام منها، فأرسلت الحكومة العثمانية سنة 972 أسطولاً كبيراً إلى مالطة وحاصرها حصاراً شديداً، وطال حصارهم لها. وكان طورغود في طرابلس فاستنجدوا به فذهب إليهم في اثنتي عشرة سفينة، واشترك معهم في حصار مالطة واشتدت المعارك بين الطرفين، ولم يمكن التغلب على حصون مالطة، واستشهد طورغود في إحدى المعارك سنة 973، وجيء بجثته إلى طرابلس[1] ودفنت في تربة خاصة، وما زال قبره يزار باعتباره أحد الشهداء ومن أكبر المجاهدين.

عليه رحمة الله ورضوانه.

= وحولها أطفال عليهم آثار النعمة، فسألت عن الدار فقيل لي هذه دار المكنى. ويقال إن المكنى هذا هو الذي بنى قصر الجفارة القديم.

(1) ويقال إنه جيء برأسه فقط، وذلك لأنه أصيب بقنبلة من مدفع يقال إنها فتتت جسمه ولم يبق إلا رأسه.

خاتمة

انتهيت من جمع ما قصدت إليه من تاريخ الفتح العربي في ليبيا. وأرجو أن أكون قد هيأت فرصة لكل مواطن يريد البحث عما بقي مجهولاً من تاريخ ليبيا.. وأعتقد أن هذا المجهول كثير، وجدُّ كثير... وقد لا يطول جهله ـ إذا ما تضافرت الجهود على البحث عنه ـ حتى يبدو للعيان واضحاً جليًّا، وحتى يكون في متناول كل ليبي أن يعرف ما لليبيا من كمال فيبني عليه، أو نقص فيكمله.

والله ولي التوفيق، ومنه الإعانة على ما يقصد إليه المخلصون من خير.

جمادى الآخرة سنة 1373/ فبراير سنة 1954

الطاهر أحمد الزاوي

المراجع

- **فتوح مصر والمغرب** للعلامة عبد الرحمن بن عبد الحكم
- **فتوح البلدان** لأحمد بن يحيى البلاذري
- **المسالك والممالك** لأبي عبيد الله البكري
- **البيان المُغرب في أخبار المغرب** لابن عذارى المراكشي
- **كتاب العبر** لابن خلدون
- **نزهة المشتاق، في اختراق الآفاق** للإدريسي (جغرافيا)
- **رياض النفوس** لأبي بكر محمد بن عبد الله المالكي
- **رحلة التجاني** لأبي محمد عبد الله التجاني (جغرافيا)
- **رحلة العياشي** لأبي سالم عبد الله العياشي (جغرافيا)
- **الخلاصة النقية** للأستاذ محمد الباجي التونسي
- **صفة المغرب** مأخوذ من كتاب البلدان لليعقوبي
- **التذكار** لابن غلبون الطرابلسي
- **الدرر الكامنة** لابن حجر العسقلاني
- **معجم البلدان** للحموي
- **كتاب السير** للأستاذ أحمد الشماخي الطرابلسي
- **الأزهار الرياضية** للشيخ سليمان باشا الباروني

- **دائرة المعارف الإيطالية** تعريب ابننا الأستاذ أحمد الطيب البشتي
- **الإسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس** للأستاذ عمر الباروني الطرابلسي
- **التبيان في تخطيط البلدان** لإسماعيل رأفت بك
- **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك** لأبي عبيد الله البكري (جغرافيا)
- **فتح العرب للمغرب** للأستاذ حسين مؤنس
- **نزهة الأنظار، في عجائب التواريخ والأخبار** للأستاذ محمود بن مقديش الصفاقسي
- **طبقات علماء إفريقية وتونس** لأبي العرب محمد بن أحمد التميمي
- **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس** لمحمد بن أبي القاسم الرعيني
- **خلاصة تاريخ تونس** للأستاذ حسن حسني عبد الوهاب
- **لب التاريخ** للأستاذ محمد الحبيب التونسي
- **الأنيس المطرب** لابن أبي زرع
- **المعز لدين الله** للأستاذ حسن إبراهيم
- **ليبيا ـ تأليف (كاكيا)** تعريب الأستاذ العسلي
- **دائرة المعارف** للبستاني
- **المنهل العذب** للأستاذ النائب الطرابلسي
- **جمهرة الأنساب** لابن حزم
- **المسألة الشرقية** للأستاذ عبد الله حسين
- **مروج الذهب** للمسعودي

- **المجتمع التونسي على عهد الأغالبة** للأستاذ عثمان الكعاك التونسي
- **مراصد الاطِّلاع** لياقوت الحموي
- **معارك الإسلام الكبرى** لجمال الدين حماد
- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** لعبد الحي بن العماد الحنبلي المتوفى سنة 1089
- **البداية والنهاية** لابن كثير
- **سيرة جوذر**
- **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق** اختصار يوحنا الراهب نسخة مطبوعة في لوحة، في مكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة
- **الروْض المعطار في أخبار الأقطار** لأبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد المنعم بن عبد النور الحميري

المؤلف

الطاهر بن أحمد الزاوي: ولدتُ سنة 1890 في الحرشا، إحدى قرى مدينة الزاوية بطرابلس الغرب، وحفظت القرآن ببلدي الحرشا، بجامع سيدي علي بن عبد الحميد العوسجي، على أستاذي الفقيه محمد الصالح رحمه الله. وأخذت بعض العلوم في زاوية الأبشات على أستاذي: الشيخ الطاهر ابن الشيخ محمد بن عبد الرزاق البشتي، والشيخ عبد الرحمن بن عبد الحميد البشتي.

والتحقت بالأزهر الشريف لإتمام دراستي سنة 1912. وأخذت العلم عن أساتذتي الشيخ أحمد مصطفى الشريف، الفقيه المحدث. والشيخ محمود خطاب الصوفي الواعظ. والشيخ الدسوقي العربي، شيخ المعقول في عصره. والشيخ علي الجهاني المصراتي الطرابلسي، وغيرهم من أساتذة الأزهر.

ورجعت إلى طرابلس سنة 1919. وبقيت مع المجاهدين إلى أواخر سنة 1923. وفي هذه السنة تغلب الطليان على الطرابلسيين، فهاجرت إلى مصر في يناير سنة 1924، والتحقت بالأزهر مرة ثانية في يونية سنة 1924، وأخذت الشهادة العالية سنة 1938 وتجنست بالجنسية المصرية في إبريل سنة 1940، ووظفت بوزارة الأوقاف في منتصف مايو من هذه السنة.

المحتويات